الحوار في الحديث النبوى

تراكيبه وصوره

تأليف

الدكتور / عيد محمد شبايك

دار حـــــراء

٣٣ شارع شريف – القاهرة

الدكتور/ عيد محمد شبايك

الحوار فى الحديث النبوى
تراكيبه وصوره

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

استهلال

"بيان كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم"

سعد زغلول (وحى القلم ٣/١)

"كلام كلما زدته فكراً زادك معنى .. كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان"

الرافعى (وحى القلم ٣/٩، ١٩).

الإهداء

إلى من أوتى جوامع الكلم، وجمع له بين المهابة والحلاوة

وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام.

إلى من لم ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى.

إلى من هدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

إلى رسول الله ﷺ .

المقدمة

الحمد لله الذى أيد نبيه بأعلى مراتب البلاغة، وخصه بأشرف درجات الفصاحة، وأصلى وأسلم على هذا النبى أذن الخير التى استمعت واستقبلت آخر إرسال السماء لمدى الأرض، ولسان الصدق الذى بلغ عن ربه هداية الخلق، أعزه الله من قائل **"أوتيت جوامع الكلم"** فظهرت على يديه كنوز الحكمة، وتألفت قلوب البشر. وبعد

يجعل القرآن الكريم كل قضاياه سبيلها الحوار، ويجعل خلافه مع خصومه ومخالفيه قائما على الحوار.

ويضرب الله لنا مثلا بحواره تعالى مع الملائكة، **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾** وحواره مع بعض الأنبياء كإبراهيم عليه السلام **﴿رب أرنى كيف تحيى الموت؟﴾** وكحواره مع نوح بشأن ولده حين قال **﴿رب إن ابنى من أهلى﴾** وكأن الحق سبحانه يريد من ذلك أن يعلم الناس أن يلجأوا إلى الحوار قبل أن يجأوا إلى القوة مهما ملكوا من وسائلها، وكأنه سبحانه يقول: هل تملكون من القوة أكثر مما أملك؟ ومع ذلك فإنى اتخذ الحوار والحجة سبيلا إلى تبيان الحق وإقراره، وهل تبلغ مخالفة مخالفيكم ما بلغه خلاف إبليس إياى؟ ومع ذلك اتخذ الحوار معه سبيلا.

من هذا ندرك أهمية الحوار طريقا موصلا إلى الحق، ومدى تأثيره أداة فى الوصول إلى الإقناع.

إن أوضح ما نزل القرآن من أجله الدعوة والتشريع، ولقد حدد القرآن منهاج الدعوة بحدود الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدل بالتى هى أحسن.

فأما جانب الحكمة فكان بالحوار الهادىء، وأما جانب الموعظة الحسنة فكان بالتذكير وضرب الأمثال، وأما جانب الجدل فكان بالحجاج وإيراد الأدلة الدامغة.

والنبي ﷺ داعية صدوق، ملكت عليه الدعوة كل مشاعره، فدائما قلبه معلق بما يدعو إليه لتحقيق أهداف الدعوة .. وهدف الدعوة هو الوصول بالمدعو إلى الإيمان بها وبمبادئها إيمانا لا يقف عند حد التصديق، بل يجب تأييد ذلك بالعمل وإن خالف الأهواء والشهوات والتقاليد والعادات .. ولكي يتحقق هذا الهدف فلابد - إذن - من وسيلة مؤثرة، تزيل الغشاوة، وتقرب المسافة بين ما هو مألوف لدى القوم، وبين ما يجب أن يألفوه من مبادىء الدين، وهذا يحتاج إلى مراودة النفوس ومباسطتها، ومعاملة الخصوم بما يتناسب مع أحوالهم العلمية والاعتقادية، ومجاراتهم وأخذهم بالرفق مع الصبر؛ لأن التخلص من إلف العادة ليس سهلا، وتغيير القلوب والأفكار أعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال.

ولكن لكل شيء أداته، ولكل داء علاجه .. لذلك نجد النبي ﷺ ينهج نهج القرآن في اتخاذ الحوار الهادىء وسيلة هادفة في أي خلاف مع أعدائه أو مخالفيه لإقناعهم، لأنه يدرك أن للحوار تأثيرا في جذب المعاندين إلى ساحة الحوار، ومن ثم التأثير فيهم بالحجة القوية، والبرهان المنطقي مع العبارة البليغة، لأن الحجة القوية إذا سيقت في عبارة بليغة ازدادت قوة، فيزداد تأثيرها، بأن يصبح لها تأثيران، تأثير الحجة القوية على العقل، وتأثير العبارة البليغة على الوجدان، فتملك على الخصم مشاعره، فلا يجد بدا من الإقرار والتسليم.

من هذا ونحوه تأتي أهمية البحث في هذا الموضوع (الحوار في الحديث النبوي- تراكيبه وصوره) وتأتي أهمية البحث فيه أيضا من أنه يدرس نصوصا تمثل القمة الثانية من الناحية الفنية في البيان بعد القرآن الكريم.

ولا تنتهي أهمية الموضوع عند هذا الحد بل تتجاوز ذلك إلى أن هذه النصوص الحوارية التي تناولتها الدراسة - وهي كثيرة جدا - نصوص حظيت بعناية كبيرة من جهة التوثيق والتحقيق، وهي عناية لا تزال ذروة لا تطاول في هذا الصدد.

والموضوع بعد ذلك جديد كل الجدة، لم تتناوله الأقلام - فيما أعلم - بالبحث الموضوعى المتعمق.

لهذا - أعنى أهمية الموضوع وجدته التى سبقت الإشار إليها - كان سبب اختيارى للبحث فى هذا الموضوع، لعلى أضيف شيئا جديدا إلى المكتبة النبوية.

هذا إلى الرغبة فى ممارسة الجانب التطبيقى فى البحث البلاغى لأهمية جدواه.

لذلك كان منهج الدراسة الذى سلكته قائما على النظر إلى البلاغة نظرة شاملة بلا علوم ولا فواصل، وتطبيق البلاغة تطبيقا شاملا على النص، مع عدم الإكثار من المصطلحات، محاولا أن استجلى ما فى النصوص - التى جمعتها من كتب السنة عن الحوار - من خصائص وسمات فنية نابعة من طبيعتها، بعيدا عن هيمنة مصطلحات البلاغيين وما وصفوه من أطر وقوالب من شأنها - فى كثير من الأحيان - أن تشغل الباحث عن دراسة البلاغة دراسة فنية ذوقية. وليس عزوفى عن العناية بهذا المنهج المدرسى القائم على تحرير المصطلحات، والتعاريف والتقاسيم، لمعابة فيه، أو نفرة عنه، وإنما لأنه منهج تربوى مدرسى لا يليق بهذا البحث.

وكانت سبيلى فى هذا البحث تجلية أسلوب الحوار فى الحديث النبوى (طبيعته وخصائصه وأهدافه) مسترشدا بوسائل البلاغة فى بيان خصائص التراكيب والتصوير، لأن هناك ارتباطا وثيقا بين طبيعة الحوار وأهدافه، وبين البحث فى تراكيبه وصوره لاسيما وأن من أبرز أهداف الحوار تحقيق الإقناع بفكرة ما، والتأثير بها بعرضها على نحو شائق فى عبارة بليغة أو إشارة لافتة أو صورة ناطقة، وليس هناك أجدر من توخى طرق محكمة من النظم لتحقيق التقرير والإقناع، وصور بيانية محسة لتحقيق التأثير والإقناع.

وكنت حريصا على أن يكون النص هو الموجه دائما إلى مقوماته وخصائصه، وما ينطوى عليه من بلاغة، وكنت أحاول أن أفرغ ما تمتلىء به نفسى من إعجاب نتيجة تفاعلى مع النص من خلال تحليل العلاقات

المتشابكة فى تراكيبه وصوره وتصوير ما فيه من خطرات نفسية وارتباط الشكل بالمضمون، وهذا هو النهج الذى انتهت إلى دراسة الأساليب، لاستكناه نواحى الجمال الفني فى النص، وكنت حريصا على إبراز ما فى النص من أدب النبوة وحكمته، وخصائص الحوار ودوره فى الاقناع، وتقرير المبادئ والأحكام.

وإذا كنت استخدم حديثا ما أكثر من مرة، فليس هذا تكرارا بدون جدوى، لأن كل مرة يأتى فى ثوب جديد، ليعالج فكرة جديدة، أو يوظف توظيفا آخر، لخدمة الهدف الذى جيء به من أجله، ولأن الغرض من استخدامه فى كل مرة، التأثير فى زاوية من زوايا الإنسان المتعددة المناحى والأهواء.

وقد تناولت موضوع "الحوار فى الحديث النبوى - تراكيبه وصوره" وفق خطة قائمة على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

أشرت فى التمهيد إلى قيمة الحديث النبوى - نصا بيانيا - يرتفع إلى أعلى مستوى يمكن أن يبلغه بشر، ناهيك عن الجهود التى بذلت فى توثيقه وتحقيقه، كما أشرت إلى جهود الباحثين المتقدمين والمحدثين فى دراسة الحديث النبوى - فى إيجاز - وهى من الكثرة بمكان، إلا أن جانب معالجة الحوار فى الحديث النبوى لم يظفر من اهتمامهم - فيما أعلم - إلا بالنذر اليسير أو يكاد.

ويبدو أن اهتمام العلماء والأدباء باستجلاء بلاغة القرآن الكريم وأوجه إعجازه صرفهم عن دراسة بعض الجوانب فى الحديث الشريف، ومنها الحوار.

وقد تناولت فى **الفصل الأول** الحديث عن "الحوار لغة ومصطلحا"، وعلاقة هذا المصطلح بغيره من المصطلحات القريبة من معناه كالجدل والمحاجة والمناظرة، وظهر لى أنها تشترك جميعا فى معنى المراجعة، أى مراجعة الكلام أو التردد فيه، وتبين أن لفظ الحوار أشمل فى الدلالة على الوضع اللغوى وهو ما

اعتبرناه فى بحثنا هذا، ثم تكلمت عن طبيعة الحوار وخصائصه وأهدافه، ممـا يكشف عن أهمية دراسة الموضوع.

ولما كان لبلاغة العبارة دور كبير فى التأثير علـى المخـاطب وإقناعـه، جعلت لذلك مبحثا خاصا، بينت فيه صلة البلاغة بالحوار، كاشفا عن أثـر العبارة البليغة فى التأثير إقناعا وإمتاعا، وطبقت ذلك على بعض الشواهد مـن الحوار النبوى مع التحليل البلاغى.

وكان **الفصل الثانى** عن "طرق الحوار ووسائل التشويق" بينت فيه حرص النبى ﷺ على استخدام عنصر التشويق فى حواره، لما لعنصر التشـويق مـن إضفاء الحيوية على الحوار، وضمان استمرار المتلقى فى متابعـة الموضـوع، وإثارة ترقبه لنتائج الحوار، ثم إلى الاقتناع بها والتسليم عن قناعة ورضا.

وجعلت **الفصل الثالث** للحديث عن "التراكيب فى الحـوار النبـوى" وتشمل: التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والفصـل والوصل، وخروج الكلام على مقتضى الظاهر، والإيجاز والإطناب، مبينا مـن خلال الشواهد الحوارية القيمة البلاغية لهذه التراكيب، ودور الكلمة والجملة والجمل والأساليب فى استجلاء المعنى والقيمة التعبيرية لكـل فى مكانـه أو الأغراض البلاغية التى توحى بها المواقف أو يستدعيها السياق وارتباط ذلـك بالمقام، ومن هذه الأغراض ما هو تأصيل لمقررات البلاغيين، ومنها ما هـو إضافة لما قرروه.

وجعلت **الفصل الرابع** لدراسة "الصورة فى الحوار النبـوى" وتشـمل: التشبيه، والمجاز بأنواعه، والكناية والتعريض، ولا يخفى ما لهذه الفنـون مـن قيمة فنية فى تجلية المعنى تشخيصا وتجسيما وإيحاء.

ولما كان **التصوير** لا يقتصر على هذه الفنون البيانية، بل تتسع دائرتـه لتشمل التصوير بالألفاظ، إذا أحسن استخدامها، جعلـت لذلـك مبحثـا تكلمت فيه عن "الأسلوب التصويرى" - سواء كان التصوير بـالوصف أو بالقص - ومدى تأثيره فى نفس المخاطب، وامتـلاك مشـاعره، وبينـت

بالشواهد – من الحوار النبوى – قيمة هذا النوع من التصوير فى الإيحاء والتأثير النفسى.

وكان لابد لهذه الدراسة من حصاد، نهضت به الخاتمة فيما حددته من نتائج علمية أسأل الله – تعالى – أن ينفع بها.

المصادر والمراجع:

وكانت مصادرى فى هذه الدراسة كتب السنة والمسانيد (صحيح البخارى، وصحيح مسلم والجامع الصحيح للترمذى وسنن أبى داود والنسائى وابن ماجه والدارمى وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل).

ومن المعروف أن هذه المصادر هى أمهات الحديث الكبيرة التى جمعت فأوعت، ثم إنها موثقة كل التوثيق مع التحقيق والدقة، هذا فضلا عما احتوته هذه الكتب الأصيلة من مادة نصية – من الأحاديث التى تضمنت حوارا – كافية لأن يقوم عليها هذا البحث.

هذا بالإضافة إلى بعض المختارات الحديثية مثل رياض الصالحين، وشرحه دليل الفالحين والترغيب والترهيب وعمدة القارىء وبعض المصادر الأخرى ككتب الشروح والتفسير واللغة والأدب والتاريخ والسيرة وغيرها.

يضاف إلى ذلك الكثير من المراجع التى تناولت دراسات عن الحديث النبوى أو الأدب النبوى أو البيان النبوى أ والبلاغة النبوية وهى كثيرة، ورغم كثرتها لم يتعرض أحد للحديث عن الحوار فى الحديث النبوى إلا الدكتور محمد الصباغ فى كتابه "الحديث النبوى" حيث اجتزأ القول عنه، لأنه لم يكن الهدف من الكتاب.

وبعد، لا يفوتنى أن أشكر كل يد ساهمت فى إخراج هذا البحث سواء كانت المساهمة مناقشة أو نقدا أو مراجعة أو تصويبا أو لفتا إلى مرجع، وأسأل الله أن يجزى الجميع خير الجزاء.

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

تمهيد

الحديث النبوى نص بيانى يرتفع فى بياننا العربى إلى أعلى مستوى يمكن أن يبلغه بيان بشر؛ لأن ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى إن لم تكن من الوحى، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هى من دليله، وكأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وفى سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ.(١)

وقد كان النبى ﷺ أفصح العرب قاطبة، لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده، وليس غريبا أن يجتمع ذلك كله لرسول الله ﷺ فقد أعده الله لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصه بكتابه، واصطفاه لرسالته **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**.

ويمتاز أسلوبه - من خلال أحاديثه - بوضوح الفكرة، وبلاغة العبارة، ودقة الوصف، وإيجاز القول، وإبداع التصوير، وجمال التعبير، ومجانبة التكلف، يصاحب ذلك كله جمال الإيقاع، وروعة الموسيقى فى الألفاظ والعبارات، ممتزجة بالمعانى والصور.

يقول الرافعى: "إنه كلام كلما زدته فكرا زادك معنى ... فهو معك على قدر ما أنت معه ... إنما هو كلام قيل لتصير به المعانى إلى حقائقها، كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان"(٢)

وقد ظفر الحديث النبوى بالبحث والدراسة والتحليل لدى علماء العربية قاطبة، كل فى مجال تخصصه، وظفر النص النبوى لدى البلاغيين باهتمام كبير، فألف فيه الشريف الرضى كتابه المشهور "المجازات النبوية"، وكان يقتطع من الحديث الجملة أو الكلمة التى فيها المجاز، ثم يعلق عليها مبينا وجه

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣١٢.

(٢) وحى القلم ٣/٩، ١٩.

المجاز فيها، ولو أنه أورد الحديث كاملا لكان أفضل وأعون للقارىء على الفهم والإحساس بالصورة الفنية (المجاز) وتذوق المعنى.

وكذلك فعل ابن رشيق القيروانى فى كتابه "العمدة" وعبدالقاهر الجرجانى فى "أسرار البلاغة" وابن الأثير فى "المثل السائر"، فكان من الملاحظ على هؤلاء الأعلام أن ينتزع من الحديث الجملة التى يستخدمها للتمثيل بها على القاعدة، وقلما عمد إلى الشرح أو التحليل، أو التعليق بما يكشف عن الأثر البلاغى فى النص الممثل به، ولعل ابن الأثير كان أكثرهم استشهادا بالحديث وأقربهم إلى التحليل، ترى ذلك واضحا فى مواضع متفرقة من كتابه، بالإضافة إلى أنه خص الفصل الخامس من مقدمة كتابه المذكور بالحديث عن "جوامع الكلم" وهو حديث لم يتجاوز ثلاث الصفحات.[١]

أما عن جهود العلماء المحدثين فى دراسة بلاغة الحديث النبوى فمنها:

ما كتبه الاستاذ الرافعى فى كتابه القيم (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، والحق "إن ما كتبه عن البلاغة النبوية فى هذا الكتاب أقرب إلى المديح النبوى - شخصا وقولا ومنطقا فى كثير من جوانبه - منها إلى الدراسة التحليلية التذوقية[٢].

وكتب أيضا - الاستاذ الرافعى مقالا بعنوان (السمو الروحى الأعظم والجمال الفنى فى البلاغة النبوية)[٣] وأشار إلى أن هذا المقال كالتكملة على ما هناك، يقصد كتابه السابق.

وكان حديثه أيضا يميل إلى المديح، أكثر من ميله إلى تناول النصوص والوقوف معها وقفة المحلل المتذوق، وهو الأديب الذواقة.

---

(١) انظر المثل السائر ١/٧٨ - ٨٠.

(٢) التصوير الفنى فى الحديث النبوى ص ٦٨ انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٧٩ - ٣٣٣ هذه الصفحات كلها مدح ووصف لفصاحته وصفته واحكام منطقه واجتماع كلامه وقلته ونفى الشعر عنه ﷺ وتأثيره فى اللغة.

(٣) وحى القلم ٣/ ٥ - ٢٧

وهذا لا يعنى أنه قصر فى تجلية بلاغة النبى ﷺ بل نجد له وقفات طيبة وتحليلات رائعة فى كتابه ومقاله السابقين، كتصويره لدقائق المعنى المستوحى من اللفظ(١)، وعنايته بالاستنباط والتعمق فى فهم الألفاظ أكثر من عنايته بدارسة الصورة مثلا، أو الإشارة إلى الحوار ودوره فى إثراء الموقف.(٢)

ومهما يكن من أمر، فكتابته فى البلاغة النبوية رائدة، لم يتركها باحث أتى بعده إلا وقد تعرض لها، وأخذ بنصيبه منها قل أو كثر.

دراسات أخرى:

وقامت دراسات أخرى فى بلاغة الحديث النبوى لا تخلو من لمحات موفقة تأتى فى ثنايا الشرح أو التعليق.

ومن أشهر الذين كتبوا فى البلاغة النبوية، الاستاذ أحمد حسن الزيات فى "مجلة الرسالة" فقد كتب بعض مقالات فى أوقات متفرقة، ثم ضمها فيما بعد مع غيرها فى كتاب، سماه "وحى الرسالة".

والاستاذ عباس العقاد كتب فصلا بعنوان "البليغ" فى كتابه "عبقرية محمد" وهو يقع فى عشر صفحات ركز القول فيها عن سمة "الإبلاغ" فى بلاغته ﷺ .(٣)

وللدكتور محمد الصباغ كتابان فى الحديث النبوى وبلاغته:

الأول: الحديث النبوى (مصطلحه - بلاغته - كتبه)

والثانى: التصوير الفنى فى الحديث النبوى. ويبدو أن الثانى منهما كتب بعد الأول لتأثر الثانى بالأول فى مواطن كثيرة.

---

(١) وحى القلم ٢٢/٣ - ٢٣ وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٢٨.

(٢) وحى القلم ٧/٣- ٩ انظر تعمقه للفظة "الخرق" فى حديث الشركاء فى السفينة.

(٣) انظر مجموعة عباس محمود العقاد الإسلامية / المجلد الثانى مجموعة العبقريات / عبقرية محمد رسول الله ﷺ ص ٨٣ - ٩٢ دار الكتاب العربى بيروت ط ١ ١٣٩١/١٩٧١.

وقد كتب الدكتور الصباغ فصلا فى كتابه الأول تحدث فيه عن أسلوب الحديث النبوى مبينا خصائصه وتعرض فيه للحوار مع الإيجاز الشديد فى حوالى ثمان صفحات، ولكنى لا أنكر أنى قد استفدت منها فى بعض أفكار هذا البحث.

أما كتابه الثانى وهو بحث كان قد أعده لنيل درجة الدكتوراه بعنوان: "التصوير الفنى فى الحديث النبوى" وفى فيه الصورة الفنية فى الحديث حقها، من دراسة جوانبها من تصوير بالوصف، أو بالموازنة، وبالقصة، وبالتشخيص، وبالموسيقى، وعلاقة الصورة بالنفس، والبيئة والمجتمع والحس.

وكان له إشارات عابرة فى تعليقاته على النصوص الحوراية، عن دور الحوار فى الحديث، ولكنها لا تتجاوز الجملة أو الجملتين، لأنها ليست الهدف.

وللدكتور محمد بن حسن الزير كتاب (القصص فى الحديث النبوى دراسة فنية موضوعية) وهو بحث كان قد أعده لنيل درجة الماجستير، وله فيه جهد طيب حيث تحدث عن نسيج القصة النبوية وعناصرها الفنية، وأنواعها، وموضوعاتها، وبعد أن أبان ماهيتها، طفق يكشف عن مهمتها ووظائفها، وأنهى بحثه بتصور دقيق للمنهج الإسلامى فى الفن القصصى من خلال ما جمعه من نصوص، وهى من الكثرة بمكان.

وقد خص الباحث الفصل الثالث من الكتاب بالحديث عن العناصر الفنية فى القصة النبوية من (شخصية وحدث وحوار) وكذلك عنصر الزمان والمكان وبين أن هذه العناصر فى صورة من التشابك والتداخل، وتتفاوت حسب طبيعة كل قصة.

• والذى يعنينى من هذا الفصل حديثه عن "الحوار، وهو حديث بالطبع يتناول الحوار كعنصر فنى من عناصر القصة، وليس هذا سبيلنا، وقد وقع حديثه عن الحوار فى حوالى سبع عشرة صفحة، أفدت منها قدر الإمكان.

وللدكتور عز الدين على السيد كتاب فى دراسة (الحديث النبوى من الوجهة البلاغية)[١] وهو يعد دراسة تطبيقية لقواعد البلاغة على الحديث، تقوم على الطريقة التقريرية التى انتهجها المعلم المعصوم ﷺ ، محاولا أن يتبين الأسس الفنية: والقيم الجمالية، والرصيد النفسى، وراء العبارة النبوية. نلمح ذلك من خلال تحليلاته الجيدة لكثير من أحاديث النبى ﷺ يطيل أحيانا، وأحيانا يكتفى بالإشارة إلى موطن الشاهد فى عبارة موجزة، وربما نحا المؤلف فى كتابه نحو البلاغة التقليدية، وإن ذلك فى تصورى هو من حيث الشكل، أما من حيث المضمون، فتحليله للنصوص النبوية نحس فيه البلاغة القائمة على الذوق السليم: الكاشفة عن الملامح والسمات التى تميز بها الحديث النبوى.

و لم يتعرض أيضا للحديث عن الحوار اللهم إلا أن يكون إشارة عابرة خلال التعليق على بعض الأحاديث الحوارية.

لكن المأخذ الذى يرد على المؤلف، هو اعتماده على مصدر واحد فى أخذ النصوص التى كانت مادة لكتابه، هو كتاب "تيسير الوصول" وقد رجع

---

(١) صدر هذا الكتاب فى طبعته الأولى عن مكتبة وهبة بالقاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م باسم المؤلف د.عز الدين على السيد وقد صدر فى طبعة أخرى عن دار اقرأ بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م باسم د. كمال عز الدين، وهذا لبس، يجب أن نزيله وهو أن طبعة "اقرأ" صدرت بعد وفاة المؤلف، والذى تولى مراجعتها والإشراف عليها الدكتور (محمد كمال) عز الدين ابن المؤلف، ومن هنا حدث الخطأ من الناشر بأن تصور ان الابن اسمه محمد والاب اسمه كمال فى حين أن (محمد كمال) اسم مركب، وبناء على ذلك أصدر الطبعة باسم د. كمال عز الدين، وقد ترتب على ذلك الخطأ وقوع بعض الباحثين فيه، فقد وجدت الدكتور عودة خليل أبو عودة قد وقع فى هذا الخطأ فى كتابه "بناء الجملة فى الحديث النبوى الشريف فى الصحيحين) عندما أشار إلى المؤلفات التى ألفت فى خدمة بلاغة الحديث النبوى فى العصر الحديث ص ٨١ فذكر كتاب "الحديث النبوى من الوجهة البلاغية" مرتين مرةً باسم الدكتور كمال عز الدين ومرة باسم الدكتور عز الدين السيد، ولست أدرى كيف وقع فى هذا الخطأ؟ لأنى أعتقد لو أن النسختين بين يديه لاستطاع بكل بساطة أن يتأكد من أن النسختين لمؤلف واحد هو د. عز الدين على السيد رحمه الله وجعل مثواه الجنة وجزاه الله خيرا عما قدم لطلاب البلاغة من خير.

أحيانا قليلة إلى "الجامع الصغير" ولم يرجع إلى أمهات كتب الحديث المشهورة المشهود لها بالثقة.

ونحن لا ننكر أن يرجع المؤلف إلى هذين المصدرين، وإنما المأخذ فى اقتصاره عليهما، فى بحث مادته الحديث النبوى.

ومهما يكن من أمر، فكتابه يعد خطوة طيبة فى دراسة البلاغة النبوية، وتجربة جديدة فى البلاغة التطبيقية، توضح الملامح والسمات توضيحا يربى ملكة الذوق، وينمى ملكة التطبيق.

ورغم اهتمام الباحثين بدراسة الحديث النبوى من جوانب كثيرة، إلا أنهم لم يوجهوا عنايتهم إلى دراسة هذا الجانب "الحوار" كما اهتم الكثيرون منهم بدراسة "الحوار فى القرآن الكريم" حتى أصبح لدينا دراسات كثيرة فى هذا الموضوع منها:

١ - كتاب "أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم" ،للدكتور عبدالحليم حفنى وهو يعد المحاولى الأولى لتخصيص الحوار القرآنى بدراسة مستقلة يهدف منها إلى أمرين: بيان أهم خصائص أسلوب المحاورة، ومدى مساهمته فى تحقيق الهدف العام للقرآن الكريم. (ص٩).

٢ - كتاب "الحوار فى القرآن" للاستاذ محمد فضل الله وهو يعد محاولة جيدة فى اكتشاف آفاق الحوار القرآنى وأساليبه وقواعده ودراسة معطياته.

٣ مخطوط بجامعة الأزهر بعنوان "الحوار فى القرآن (خصائصه التركيبية وصوره البيانية) للدكتور محمد إبراهيم شادى، سار فيه على تقسيم موضوعات البلاغة القديمة من علم المعانى وعلم البيان، وعولت الدراسة على كشف أبعاد الحوار من خلال دراسة خصائصه التركيبية وصوره البيانية وارتباط ذلك بالمقام.

وعلى كل فقد كان لهذه الدراسات فضل، فى إضاءة النور أمام أفكار هذا البحث.

ولم تكن تلكم الإشارات العابرة إلى الحوار، إلا لمســـات خفيفـــة غـــير متعمقة، وإن كان بعضها له فضل السبق.

الفصل الأول

الحــــوار

- تحقيق مصطلح الحوار.
- طبيعة الحوار وخصائصه.
- أهداف الحوار.
- صلة البلاغة بالحوار.

تحقيق مصطلح الحوار:

الحوار والمحاورة مصدر للفعل حاور، وأصل المحاورة المراجعة، تقول: حاوره محاورة وحوارا: جاوبه، وحاوره: جادله، وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم، وتحاوروا: تجادلوا، قال تعالى: ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ ، والمحاورة : مراجعة المنطق والكلام.(١)

قال الراغب: "أصل الحوار التردد ... وحار الماء في الغدير: تردد فيه، وحار في أمره: تحير ... والمحاورة والحوار: المرادة في الكلام"(٢)

وأطلق صاحب "الطراز" على جنس الحوار مصطلح "الترجيع في المحاورة" وقال:

"والترجيع "تفعيل مثل قولك: رجعت الشيء إذا أردته ... ويقال للسماء ذات الرجع؛ لأن المطر يتردد في نزوله منها، وفي مصطلح علماء البيان عبارة عن أن يحكي المتكلم مراجعة في القول ومحاورة جرت بينه وبين غيره أوجز عبارة وأخصر لفظا، فيترل في البلاغة أحسن المنازل، وأعجب المواقع ... ومن جيده ما قاله البحتري:

بت أسقيه صفوة الراح حتى	وضع الكاس مائلا يتكفا
قلت : عبدالعزيز تفديك نفسي	قال لبيك قلت لبيك ألفا
هاكها قال هاتها قلت خذها	قال لا أستطيعها ثم أغفى

فهذا وما شاكله من جيد ما يؤثر في المحاورة وترجيع الخطاب على جهة الملاطفة والاستعطاف"(٣)

وقد شاعت بين الناس ألفاظ قريبة في مدلولها من مدلول الحوار كالجدال أو المجادلة والمناظرة، والترجيع في المحاورة، والمحاجة، وهذه الألفاظ قريب

---

(١) لسان العرب: مادة (حور) والمعجم الوسيط (حور).

(٢) مفردات الراغب: مادة (حور).

(٣) الطراز للعلوى ١٥١/٣ - ١٥٣ وانظر هناك أمثلة أخرى.

مدلول بعضها من بعض، **لأنها ترجع فى نهاية أمرها إلى نزعة البيـــان لـــدى الانسان ورغبته فى الدفاع عن رأيه ومغالبة غيره.**

والجدل أو المجادلة : اللدد فى الخصومة، تقول: جادله مجادلة وجدالا: ناقشه وخاصمه وطلب المغالبة لإظهار الحق، قال تعالى: **﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾** وتجادلا فى الأمر: تخاصما فيه.(١)

"والجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبـل أى أحكمت فتله"(٢)

يقول صاحب "مقاييس اللغة": "الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشىء فى استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام"(٣)
إذن فكلاهما نوع من مراجعة الكلام، إلا أن الحوار مراجعة الكـــلام بـين المتحاورين بطريقة فيها مرونة وليونة فى الحديث، بعيدا عن اللدد والخصومـة التى قد تصاحب الجدل.

ولنعد إلى النبع الأصيل، إلى القرآن الكريم نتأمل استخدامه لهذين المعنيين، لنقف على الفرق بين مدلوليهما.
وردت مادة "الجدل" فى القرآن فى نحو تسعة وعشرين موضعا يغلب عليها أن تكون فى سياق عدم الرضا عن الجدال أو عدم جدواه، فمن أمثلة ذلك قولـه تعالى: **﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾** (غافر ٥١) وقولـه: **﴿ومـن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتـاب منـير﴾** (الحـج٨

(١) لسان العرب (جدل).
(٢) مفردات الراغب (جدل).
(٣) مقاييس اللغة ٤٣٣/١ مادة (ج.د.ل).

ولقمان ٢٠) وقوله نهيا عن الجدل فى الحج **﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج﴾** (البقرة ١٩٧) وغير ذلك.(١)

أما المحاورة فقد وردت فى ثلاثة مواضع فقط، موضعان فى سورة الكهف فى قصة الأخوين صاحبى الجنتين، وموضع فى سورة المجادلة، ففى سورة الكهف: **﴿فقال له صاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا﴾** [٣٤] **﴿قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا﴾** [٣٧] والموضع الثالث فى سورة المجادلة: **﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾** (المجادلة ١).

وقد نزلت هذه الآية بشأن خولة بن ثعلبة، ويتضح من سياقها التفرقة بين المجادلة والمحاورة فى مدلوليهما اللذين نتحدث عنهما فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة لذلك عبر عنه - سبحانه - بقوله: **﴿تجادلك فى زوجها﴾**، ولكن حديثها مع الرسول ﷺ كان مراجعة فى الكلام، ولذلك عبر عنه - سبحانه - بقوله: **﴿والله يسمع تحاوركما﴾**.

قال الزمخشرى: فى قوله تعالى: **﴿تجادلك فى زوجها﴾** وقرىء تحاورك أى تراجعك الكلام، وتحاورك أى تسائلك"(٢) وبمثل ذلك قال كل من النسفى (٣)والخازن(٤) والرازى(٥).

وقوله **﴿تجادلك فى زوجها﴾** أى تحاورك وتحاجك فيما وقع بينها وبين زوجها.

---

(١) راجع المعجم المفهرس مادة (جدل).

(٢) الكشاف ٤/٦٩، ٧٠

(٣) راجع مدارك التنزيل ضمن مجمع التفاسير ٦/١٩٤ دار الدعوة - استانبول - تركيا - ط ١ - المطبعة العامرة سنة ١٣٢٠هـ.

(٤) راجع لباب التأويل للخازن ضمن مجمع التفاسير السابق.

(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٥٠ طبعة دار الكتب العلمية بطهران - ط٢ بدون تاريخ.

وفى هذه المجادلة ما يكشف عن أن المرأة تنكر الظهار فى شريعة هذا الدين الذى آمنت به... وهذا يعنى أن الإسلام فتح على الذين دخلوا فيه آفاقا رحيبة مشرقة من التفكير السليم والمنطق الحكيم الذى يرفض الزور من القول والمنكر من العمل.

وفى قوله ﴿تجادلك﴾ إشارة إلى احترام الشريعة الإسلامية للإنسان وإعطائه حقه وحريته فى استعمال عقله ومراجعة غيره فيما يعرض له من قضايا الحياة، وهذا ما نراه واضحا فى موقف المرأة من النبى ﷺ ومراجعتها له فيما رآه ... ولهذا سمى القرآن موقفها هذا (مجادلة) و لم ينكر عليها ذلك بل جاءها بالرحمة والفضل العظيم.(١)

وفى قوله ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ إشارة إلى هذا الحوار الذى جرى بين المرأة والنبى ﷺ فهى تتجه اتجاها، والنبى يتجه اتجاها آخر .. هى تريد ألا يكون الظهار طلاقا تحرم به على زوجها، والنبى يراه طلاقا تقع به الحرمة بينها وبين زوجها .. فهذا نوع من مراجعة الكلام واختلاف فى الرأى لذلك سمى محاورة.

والمحاجة: المغالبة بالحجة، يقال حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أى غلبته بالحجج التى أدليت بها(٢). و(حاجه) محاجة وحجاجا: جادله، قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه﴾، واحتج عليه: أقام الحجة، واحتج عليه: عارضه مستنكرا فعله، تحاجوا: تجادلوا.(٣)

والحجة: الدليل والبرهان، ومنه حديث معاوية: فجعلت أحج خصمى أى أغلبه بالحجة، وحاجه يحجه حجا: غلبه على حجته.(٤)

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن. عبدالكريم الخطيب ٨١٢/٢٥، ٨١٣ - دار الفكر - مكتبة السنة المحمدية.

(٢) لسان العرب مادة (حجج).

(٣) المعجم الوسيط (حجج).

(٤) لسان العرب.

إذن فالمحاجة مغالبة بالحجة، وتقديم الدليل والبرهان الذى يؤيد وجهة نظر المجادل أو المحاور، وهى بهذا المعنى قريبة من المجادلة والمراجعة فى الكلام.
والمراجعة فى الكلام تنشأ – عادة – بين اثنين لوجود خلاف بينهما فى الرأى ووجه النظر، وذلك بالطبع يرجع إلى النزعة البيانية التى أودعها الله فى بنى الإنسان جبلة وطبعا، فكل إنسان يريد أن يبدى رأيه ويدافع عنه بمنطق البيان والحجة.

أما المناظرة : أن تناظر أخاك فى أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه، والتناظر: التراوض فى الأمر، ونظيرك الذى يراوضك وتناظره.(١)
وجاء فى "معجم مصطلحات الأدب": "المناظرات نوع من المحاورات التى احتدمت بين النحاة والمناطقة والمتكلمين..."(٢)
ويفهم من ذلك أن المحاورة أعم من المناظرة وكل من المحاورة والمناظرة، وإذا وجد فى الحوار محاجة أو مجادلة أو خصومة أو نزاع كان مناظرة.
إذن فالمناظرة نمط من مراجعة الكلام بين اثنين يقصد كل منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما فى ظهور الحق.
وعلى هذا فالحوار يضم المناظرة وغيرها فتكون المناظرة فرع من المحاورة أو الحوار.

وبعد التأمل فى هذه المصطلحات – مع ما بينها من فروق يسيرة – نلحظ أنها تلتقى فى معنى عام، وهو مراجعة الكلام أو التردد فى الكلام سواء صاحب هذه المراجعة خصومة أم لم يصحبها، أو أريد بها مغالبة الخصم أم لا، فبناء على ذلك فالحوار يتسع ليشمل الجدل الذى عرف بإطلاقه على مواقف الخصومة، يدل على ذلك أن ما حدث من مراجعة بين الرسول ﷺ والمرأة لما كان فى جانب المرأة سمى جدالا، ولما كان فى جانب الرسول سمى حوارا لتفاوت ما بينهما فى طريقة المراجعة، وشبه ذلك محاورات الرسل مع أقوامهم، فإن الخلاف بين الطرفين متحقق. وبناء على ذلك فما ذكره العلماء

(١) لسان العرب مادة (نظر).
(٢) مجدى وهبة. معجم مصطلحات الأدب ٩٠.

من تفسير لمعنى الحوار والجدل أو الحوار والمناظرة والمحاجة يتسع مدلول الحوار ليشمل كل هذه المعانى، لذلك يجوز أن نطلق عليها جميعا مصطلح "**الحوار**" لأن مراجعة الكلام التى نسميها محاورة موجودة فى كل أنواع الحديث الذى يتبادله طرفان سواء صاحب ذلك خصومة أم لا، وهذا ما أشار إليه ابن فارس ، وحينئذ يكون لفظ الحوار أشمل فى الدلالة على الوضع اللغوى وهو الأسلوب الذى جرى عليه أسلوب القرآن الكريم وأسلوب النبى ﷺ وهو ما اعتبرناه فى بحثنا هذا.

ومما يجدر بنا أن نشير إليه ونحن فى هذا الصدد لفظ "**المناقشة**" حيث يشيع استعماله فى معنى المحاورة، واللغة لا تعرف هذا الاستعمال، بل لا تكاد تعرف استعماله من حيث الواقع إلا من طرف واحد، وليس تبادلا بين طرفين، فالمناقشة عند علماء اللغة استقصاء الحساب واستيفاؤه، والحساب يكون بين طرفين عادة، ولكن استيفاءه يكون فى العادة لمصلحة أحد الطرفين فحسب: فمناقشة أحد الطرفين للآخر فى اللغة معناها أن يستقصى محصيا ومستوعبا كل ما له على الآخر، ويستشهد صاحب أساس البلاغة هنا بقول عائشة رضى الله عنها "**من نوقش الحساب عذب**"[1] أى من أحصيت أعماله ليحاسب عليها حسابا عاديا دون أن يتداركه عفو الله وغفرانه. فلابد أن يصيبه العذاب، ولكن كثيرا من المثقفين والكتاب يستعملونها مرادفة للمحاورة وهذا الخطأ نشأ من شيوعها فى التخاطب بين الناس بهذا المعنى، وما أكثر ما تجنى العامية على الفصحى فى هذا النحو وغيره من الألفاظ والأساليب[2]

(١) أساس البلاغة - مادة (نقش) - انظر: فتح البارى ١١/٤٠٠ كتاب الرقاق.

(٢) أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم ص ١٥

طبيعة الحوار وخصائصه:

الحوار ظاهرة إنسانية بل عالمية لوجودها فى غير الأجناس البشرية كالملائكة وإبليس وقد خلق الله تعالى الإنسان ناطقا مفكرا تتوارد عليه أفكار ومعلومات يجد نفسه مدفوعا بالجبلة والطبع إلى حب الإفضاء بها والإفصاح عنها، فإن لم يجد من يقضى إليه بها أو يفصح له عنها فإنه يتجه إلى نفسه فيحادثها وتحادثه، ويحاورها وتحاوره، ويسألها وتجيبه، ويندفع وتراجعه، كل ذلك فى نطاق المشاعر الإنسانية والعوامل النفسية، لأن "النفس جبلة عجيبة من المشاعر والأحاسيس المتوافقة والمتضاربة، بل هى عناصر ممتزجة من الشهوة والإيمان والخير والشر، والطمع والقناعة، والحب والكره، والأنانية والإيثار، لذلك كان الوصف الإلهى لها ﴿**ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾ (الشمس ٧-١٠).

والنفس فى حوار دائم مع ذاتها، وكأنها نفسان أو أكثر تتحاوران، تتناقشان أو حتى تختصمان، إنه حوار دائم لا يتوقف مادامت الحياة"(١)

"وقد يكون الحوار باطنيا خفيا يجرى فى تيار الشعور النفسى، ويدركه الفرد حينما يقف وقفة عقلية ليتأمله، كما يحدث فى عملية الاستبطان أو قد يستمر بإرادة الفرد أو بغير إرادته. ومن الأفراد من يستعيض عن الحوار الباطنى بالصور العقلية المختلفة فيصبح شعوره تيارا متصلا من صور بصرية أو سمعية أو غيرها من الصور الحسية. فالإشارة والإيماءة مظهر من مظاهر الصور الحسية والحركة الباطنية، والكلام المسموع مظهر لكلام خفى باطنى، ويختلف الأشخاص فى حوارهم الظاهر والباطن حسب اختلافهم فى بناء شخصياتهم بمختلف مكوناتها"(٢)

(١) علم النفس النبوى ص ١٤ (بتصرف).

(٢) (علم اللغة النفسى ص ٢٧٢) د. عبدالمجيد سيد منصور. عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود - الرياض ط١ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

ولكن هناك أوقاتا ومواقف تشتد فيها الرغبة إلى الإفضاء بما فى النفس أو الرد على الآخرين ومحاورتهم وتبادل الأفكار معهم، تلك هى مواقف الحجاج والجدل ومناقشة الآراء واحتكاك بعضها ببعض موافقة أو مخالفة، برهنة أو معارضة، تعليما أو تعلما وما شابه ذلك، فالحوار أو الجدال لا يمكن أن يخلو منه بشر عنده بيان، لأنه يعبر عما يختلج فى نفسه من بيان بصرف النظر عن طبيعة هذا البيان وبواعثه[1] **﴿وكان الإنسان أكثر شىء جدلا﴾** (الكهف ٥٤)

وشأن الحوار ملموس فى حياتنا العملية حتى فى مجالس الناس، فالمتحدث الحصيف لا يرتضى لنفسه أن يكون هو المتحدث الوحيد، بل تراه حريصا على أن يشرك معه الحاضرين ويستثير اهتمامهم بخلق الحوار حتى يكون حديثه مقبولا ومسموعا، فإذا تحقق له ذلك استطاع أن يؤثر فيهم ويقنعهم برأيه وبخاصة إذا كان ذا مكانة فى نفوسهم.

وتبدو أهمية الحوار فى طبيعته، فهو يوظف فى جملته لنقل المعلومات لا بطريق الخبر وإنما بطريق الانشاء من خلال السؤال والجواب أو رأيين يلتقيان أو يفترقان من حول الشىء ونقيضه، مما يعطى الاطار الذى تنقل به المعلومة حيوية تفضل السرد الذى قد يشعر بالسأم والملل، فتستنفر المحاورة عناية السامع واهتمامه لمتابعة ما يطرح من معلومات، ذلك لأن طبيعة الحوار أشبه بالمباراة - تنافس بين طرفين - وهذا التنافس من شأنه أن يثير لذاته انفعال المشاهدين والمستمعين لها، وهذا شىء طبيعى فى النفس أن يشدها ويثير انتباهها التنافس بين قوتين، وهنا يبدو لنا جانب من حكمة أسلوب الحوار وهو كسب انفعال السامعين ومشاعرهم ليكون هذا جانبا من جوانب جذبهم إلى مبادىء الدعوة.

فأسلوب الحوار محبب إلى النفس بما فيه من إثارة وتشويق وتجديد لنشاط الذهن، فهو يضفى على موضوع المحاورة حيوية وانتباها، ويدفع الملل

---

(١) مناهج الجدل فى القرآن الكريم ص ٢٦ (بتصرف).

والشرود ويجعل الإقبال على متابعة الموضوع أشد، والذهن أكثر تفتحا وتجاوبا.

"وشرط الحوار الجيد أن يكون جيد المناقلة، سديد المساجلة، حسن التقطيع، مطابقا لموقف المتكلم وخلقه، متغير اللهجة والجرس تبعا لمقتضى الحال، سريع الجواب، قصير الخطاب، فلا يشبه دفاع المحامى ولا خطبة الخطيب، لأن ذلك يذهب روح الجاذبية ويبعث السأم فى النفس"(١)

الحوار - دائما - لغة الأكفاء الواثقين بأنفسهم الراغبين فى تطوير أنفسهم، الطامحين إلى توسيع آفاق معرفتهم، المؤمنين أنهم لا يملكون المعرفة المطلقة أو اليقينية بل المعرفة النسبية التى تغتنى دائما بالتفاعل. وثقة المحاور بنفسه لا تعنى أنه المالك الوحيد للحقيقة أو صاحب العلم اللدنى الذى لا يدانيه أحد ... بل تعنى ثقته بغيره كما تعنى أنه لا يمتلك القدرة - وحده - على صنع المعرفة، فالمعرفة نتاج مشترك يتجاوز الفرد، والفرد لا يتعرف شيئا إلا فى فعل جدلى، تتجاوز فيه "الأنا" نفسها إلى غيرها، حيث يقع الآخر الذى يسهم فى صنع معرفة "الأنا". هذا الفعل الجدلى يبدأ بحوار الفرد مع نفسه، ويمتد إلى حواره مع غيره.(٢)

والبداية فى الحوار هى احترام كل طرف لنظيره، وتسليمه الضمنى أن ما لديه لا يعلو ما لدى الآخر، والعكس صحيح بالقدر نفسه، لأن الحقيقة (المعرفة) موزعة دائما على الجميع فإذا تعصب شخص لرأيه على افتراض أنه على صواب وغيره الذى يخالفه على خطأ، فمن أعطاه هذا الحق؟.

ومعنى هذا أنه ليس من حق المتحاور أن يضع حكما قاطعا بصواب رأيه بل عليه أن يضع هامشا للصواب وهامشا للخطأ، لأن الإنسان يحمل بين طياته القصور، والكمال لله وحده. وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الأخذ بهذه

---

(١) فى أصول الأدب د. أحمد حسن الزيات ص ١٥٥

(٢) دفاعا عن التنوير - د. جابر عصفور (دعوة إلى الحوار) ص ١٠٥ مكتبة الشباب، كتاب التنوير (١٨) سبتمبر ١٩٩٣ الهيئة العامة لقصور الثقافة.

القاعدة إذ وجه النبى ﷺ أن يقول للمشركين فى مجادلته ﴿وإنّا أَوْ إيّاكُمْ لعلى هدًى أو فى ضلالٍ مبين﴾ (سبأ ٢٤)وهذا غاية التخلى عن التعصب لـرأى الأنا، وكمال الرغبة فى نشدان الحقيقة أنى كانت.

وديننا الإسلامى يجعل المرونة العقلية أساسا من أسس الحوار واحترام الرأى الآخر، والأخذ بالمشورة وعدم التعصب لرأى ما، وإن كان ثم جدال فليكن بالتى هى أحسن، قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾ (العنكبوت ٤٦) وقال: ﴿ادع إلى سبيلِ ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجَادِلْهُمْ بالتى هى أحسن﴾ (النحل ١٢٥) فقوله تعالى: ﴿بالتى هى أحسن﴾ يشير إلى أمور منها:

١ - "التى" أصل فى باب الموصولات، وفى ذلك إشارة إلى ضرورة أن يكون الجدل على نحو أصيل فوق سفاسف الأمور، علوا به فوق الألغاز والمغالطات ليجىء نصا فى المراد كما أن "التى" نص فى باب الموصولات.(١)

٢ - الحث على الإنصاف فى المناظرة، واتباع الحق والرفق والمداراة على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل، لا نصرة رأى وهزيمة آخر.(٢)

٣ - الحث على الطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول.(٣)

٤ - قال فى الجدال "بالتى هى أحسن" ولم يقل "بالحسن" كما قال فى الموعظة لأن الجدال فيه مدافعة والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل،

---

(١) من أجل حوار لا يفسد للود قضية . محمد عمارة ص ٣٩.

(٢) صفوة التفاسير ١٤٩/٧

(٣) تفسير النسفى ٢٣٥/٢

فما دام الرجل مستعدا للحكمة أو الموعظة الحسنة أو هما معا لم يحتج إلى مجادلة، فإذا مانع جودل بالتي هي أحسن.(١)

٥ - "لفظ أحسن" هنا لا يدل على معنى الصفة المشبهة كما يدل "أشقر" و"أبلج" و"أسمر" وإنما يدل على المقارنة بحسن الموعظة بتفضيل حسن على حسن ليكون أفضلهما هو الأحسن، مما يقي الجدال من أن يكون منبرا للعداوة أو الشحناء ومقاومة الدعوة".(٢)

وناتج الحوار - دائما - تغيير نوعي في الأطراف المتحاورة، يجعل من نقطة النهاية مخالفة لنقطة البداية حتما، ذلك لأن فعل الحوار نفسه يؤلف بين عناصره المتقابلة الواقعة بين أطرافه المتعارضة، ويصوغ منها ما يستوعب الأطراف كلها ويتجاوزها في آن صانعا بذلك بداية أخرى لحوار آخر لا يكف عن التحول والتولد.

ولعل في ذلك سمة أخرى في طبيعة الحوار، فهو فعل لا ينقطع ولا يتوقف ولا يعرف النهايات المغلقة، ولا ينتج الإجابات الجاهزة، ويرفض المسلمات المطلقة، إنه الفعل الذي ينطوي على تحول مستمر صاعد، لا يكف عن توليد السؤال من الإجابة، والانتقال من إذعان التصديق وتلبد التسليم، إلى توهج الرغبة في الاكتشاف وتوثب العقل الذي لا يكف عن السؤال، وتوتر المعرفة التي لا تعي لنفسها ضفافا تحدها.(٣)

وبديهي أنه لا حوار دون حرية؛ لأن الحوار لا يغتني إلا باغتناء الوعي بالحرية فإن ثمار الحوار لا تزدهر إلا في المجتمعات التي تنعم بالحرية بكل أشكالها، والحوار الصحيح المثمر لا يتحقق إلا بمناقشة الآراء على بساط من الحرية، والصراحة اللتين هما أقوم السبل لحل المعضلات وتوضيح المبهمات وبلورة الآراء وتوحيدها وتقويتها، لأن الحوار يمثل سياسة جدلية بيانية تعالج

(١) مناهج الجدل في القرآن ٤٦، ٤٧

(٢) البيان في روائع القرآن ص ٤٦٤

(٣) دفاعا عن التنوير ص ١٠٧

أوضاع الخصوم وتناقشهم بما يتناسب مع أحوالهم فى مقام المجادلة، وذلك باحترام الخصم والمحافظة على حقوقه وموافقته على ما لديه من قناعات والسير معه فى اتجاه الخط الذى يؤمن به من أجل جذبه إلى ساحة الحوار - وهذا ما يسمى بمجاراة الخصم - وهنا يكون النجاح حيث حطم الحاجز الذى يمنع الخصم المعاند من الاقتراب من ساحة الحوار، فعند مجاراته فيما يدعى هذا يجعله يطمئن إلى الحوار ويسير معه إلى النهاية حيث يفاجأ بالدليل على بطلان ما لديه من أدلة ومعلومات وصدق ما لدى محاوره من قناعات فلا يجد مفرا من الإذعان للحق والرجوع إلى الصواب.

والحوار فى دلالته الواقعية يمثل موقف المحاور ورأيه وحجته، وفوق ذلك فإنه يمثل شخصيته ومقدار عقله وتفكيره وثقافته.

فأما شخصيته، فتبدو من خلال طريقته فى الحوار ومدى حرصه على بلوغ هدفه ومدى مقدرته على محاصرة منافسه أو خصمه.

وأما عقله وتفكيره فيبدو من خلال حجته التى يسوقها، ومن خلال ترتيب أفكاره وتسلسل المقدمات والنتائج فى حديثه.

وأما ثقافته، فتبدو فى تخير الكلمات والأساليب التى تستميل بها محاوره، ويؤثر بها فى وجدانه، لذلك كان النبى ﷺ فى حواره مع خصومه مثلا يحتذى، فنراه يحاول تهيئة الجو المناسب للحوار، فيعمل أولا على تفريغ الموقف من الأفكار المسبقة التى تحول الموقف إلى عقدة تفرض نفسها على مواطن الحوار، أو تشكل حاجزا يمنع المتحاورين من الإحساس بحرية الحركة والفكر فيما يقبلون وفيما يرفضون، يتمثل ذلك فى اعتبار الشك فى الفكرة موقفا مشتركا بين الطرفين، يوحى لكل منهما بضرورة إعادة النظر فى القضية ومحاولة مواجهتها من جديد، وهنا يسير الحوار فى جو طبيعى خال من التعصب لفكر سابق، فيصل إلى نتائج طيبة.

كذلك ركز الرسول ﷺ - حواره - على الطريقة السلمية التى تعتمد على اللين والتسامح والمرونة وحماية الخصم مهما بلغ من الضعف فى رأيه أو فى كيانه، مع تقديم الأدلة والبراهين المقنعة مؤثرا على محاوره بكل الوسائل

من مخاطبة العقل إلى مخاطبة المشاعر والوجدان بالحجة القوية أو بالاستفهام التقريرى، أو بقياس التمثيل، أو بالاستدلال القصصى، وغير ذلك من الطرق والوسائل التى يتسطيع أن يؤثر بها على محاوريه خصوما أو غير خصوم، يضاف إلى ذلك كله بلاغة العبارة النبوية بما تحمله من إيجاز وتركيز وتصوير وتمثيل وحسن تقطيع، مما يكون له أثره وسحره فى النفوس، فكم من معاندين اجتذبهم بأسلوبه الأدبى إلى ساحة الإسلام، وتحولوا من أعداء إلى أصدقاء يعملون بالإسلام وللإسلام. ﴿ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولى حميم﴾ (فصلت ٣٤).

ولم يكن النبى ﷺ بالداعية المهادن دائما مع خصمه، وإنما كان هناك الوقت الذى يجب أن يشعر خصمه أنه قوى، لأن هذا الإحساس له أهميته فى التأثير النفسى، فنراه يردف الترغيب بالترهيب والوعد بالوعيد تسكينا لنفوس المؤمنين ليطمئنوا إلى رضاء الله ورحمته، وإزعاجا للملاحدة المعاندين ليثوبوا إلى رشدهم، فيطرقوا أبواب النظر اتقاء عذاب الله وسخطه.

هكذا كان النبى ﷺ يجمع فى حواره مع خصومه بين الأمرين (الرفق والقوة)، لأن موادعة الخصم والرفق به تهدف إلى كسب الخصم إلى الدعوة ومبادئها، أو على الأقل عدم الإسهام فى تنفيره، وإعلان القوة لهذا الخصم عامل آخر فى كسبه، وبهذا يجمع النبى ﷺ بين جانبى القياد، فبعض الناس يؤثر فيه اللين وبعضهم تؤثر فيه القوة والشدة، فإذا اجتمع الأمران لدى الداعية تضاعف تأثيرهما، ولكن الجمع بينهما يحتاج إلى حكمة بالغة، ومن أولى بهذه الحكمة من رسول الله ﷺ الذى اختاره الله أمينا على رسالته ليبلغها للناس على بصيرة وهدى ﴿الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَته﴾. (الأنعام ١٢٤).

أهداف الحوار النبوي:

١ - تعليم الناس أدب النقاش والمحاورة عن علم وفهم من أجل الوصول إلى الحق دون خصومة أو غوغائية، لذلك ذم القرآن كل من يجادل بغير علم **﴿ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** (الحج٨، ولقمان ٢٠) وما أكثر الذين يتحاورون ويتجادلون فى قضايا دينية خطيرة بكل جرأة دون أن يلموا بشيء من الثقافة الدينية أو القدرة على صوغ العبارة الصحيحة المؤثرة، وهذه - فى نظرى - بعض أدوات الحوار أو الجدال.(١)

أن الجدال بالحق لإقامة الحجة على أهل الإلحاد والبدع من الجهاد فى سبيل الله، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: "**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**" [سنن النسائى] وإنما يكون الجهاد باللسان بتبيان الحق بالحجة والبرهان لا بالشغب والهذيان.

وكما أن الجدال بالحق من الجهاد فى سبيل الله فهو أيضا من النصح فى الدين، ألا ترى إلى قوم نوح عليه السلام قالوا له: **﴿يا نوحُ قد جادلتنا فأكثرت جِدالنا﴾** فكان جوابه لهم: **﴿ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصحَ لكم إنْ كان اللهُ يُريدُ أن يُغْوِيَكُم﴾** (هود ٣٤) أى وماذا ينفعكم نصحى إن أراد الله شقاوتكم؟

٢ - تعليم الدعاه إلى الحق الصبر على الخصم ومحاولة إقناعه بالحق إما بمجاراته أو باستدراجه أو بوضعه موضع الاحتكام إلى النفس وذلك عن طريق مخاطبة كل جوانبه (العقل والنفس والوجدان).

---

(١) ذكر قدامة فى باب أدب الجدل "... وأن يجتهد فى تعلم اللغة ويتمهر فى العلم بأقسام العبارة، فإنه إنما يتهيأ له بلوغ ما يقتضى الجدل بلوغه من قسمة الإنسان الأشياء الى ما تنقسم إليه، واعطاء كل قسم منها ما يجب له ..." نقد النثر ١٣١.

٣ - تأكيد مبدأ التوحيد فإنه أساس ثابت فى العقيدة لا يتبدل ولا يتطور بتغير الرسل أو الأزمان، هذا وراء توحيد اللفظ الصادر عن أكثر الرسل فى هذا الأمر الجليل **﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾** (الأعراف ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود ٥٠، ٦١، ٨٤، والمؤمنون ٢٣) نجدها حكاية عن رسل كثيرين[١]، وهذا ما قرره القرآن الكريم فى رسالة رسول الله ﷺ فى قوله تعالى: **﴿كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾** (البقرة ٢٨٥).

٤ - رد العقل إلى التفكير المنظم الهادىء، وبيان فساد موقف الخصم بالحجة والمنطق العقلى.

وإن تعجب فاعجب للمنطق العقلى النبوى، يبدو بسيطا قريب المأخذ لكل العقول، بحيث لا يلتوى فهم هذا المنطق على عقل مهما يكن يسير الإدراك، ولكن وراء هذه البساطة عمقا كبيرا، ووراء قرب المأخذ دقة شديدة فى التعبير وفى الإشارات، وفى التنسيق والترتيب المنطقى، وفى الجوانب النفسية الواسعة الآفاق، وغير ذلك من أصول المحاورة وأسلحة الجدال.

٥ - قسر انتباه المخاطب وإثارة نشاطه الذهنى لتلقى العلم النافع، وتصحيح ما لديه من مفاهيم وسلوكيات خاطئة، فقد كان النبى ﷺ يسأل

---

(١) **﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾** (الأعراف ٥٩).

﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ (الأعراف ٦٥)، و(هود ٥٠).

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ (الأعراف ٧٣) و(هود ٦١).

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ (الأعراف ٨٥) و(هود ٨٤).

﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ (المؤمنون ٢٣).

فيجيب، لعل فى سؤال السائل أو إجابة النبى ﷺ رفع الحرج عن حاضر فى المجلس، أو غافل فيتنبه، أو جاهل فيتعلم، أو مستح فيأنس بالسائل.

٦ - تعليم الناس المرونة العقلية فى الحوار واحترام الرأى الآخر والأخذ بالشورى وعدم التعصب لرأى "الأنا" فلعل الرأى المقابل صواب كل الصواب.

والنبى ﷺ يقصد بذلك أن يؤصل مبدأ الشورى، لأنه يرى أن الشورى ليست منة من الحاكم أو تفضلا، وإنما هى واجب أساسى فى الحكم، وجزء أصيل فى السياسة عملا بقول الله تعالى: ﴿**وشاورهم فى الأمر**﴾ (آل عمران ١٥٩) ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ (الشورى ٣٨) ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

يحدثنا ابن إسحاق فيما نقله عنه ابن كثير: "فأقام رسول الله ﷺ مرابطا وأقام المشركون يحاصرونه بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر و لم يكن بينهم حرب إلا الرميا بالنبل، فلما اشتد على الناس البلاء، بعث رسول الله إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان أن يعيدا ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب، و لم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين(١) فذكر لهما ذلك، واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله: أمرا تحبه فنصنعه أم شيئا أمرك الله به، لابد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ فقال: بل شىء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال

(١) سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وكان ذلك فى غزوة الأحزاب.

رسول الله ﷺ أنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا"(١)

يتضح لنا من خلال هذا الحوار أدب الصحابيين الجليلين فى مراجعة رسول الله ﷺ وتقديم المشورة إذ قالا "يا رسول الله: أمرا تحبه فنصنعه ...؟" فلو قال لهم: بل أمر الله بهذا، لقالوا: سمعنا وأطعنا والرسول الكريم ﷺ لم ينكر عليهم هذه المراجعة ما دام المقصد منها حسنا.

عن أبى هريرة ﷺ قال: "لما كان يوم غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أَذِنْتَ لنا فننحر نَوَاضِحنا فأكلنا وَادَّهَنَّا.
فقال ﷺ : افعلوا، فجاء عمر ﷺ
فقال: يا رسول الله، إن فعلتَ قَلَّ الظهرُ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع اللهَ لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل لهم فى ذلك البركة،
فقال ﷺ : نعم، فدعا بِنِطَعٍ فبَسَطَهُ، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكِسْرة، حتى اجتمع على النِّطَعِ من ذلك شيءٌ يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: خذوا فى أوعيتكم فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملئوه وأكلوا حتى شبعوا، وفَضَلَ فضلةٌ فقال رسول الله ﷺ: أشهد ألا إله إلا الله، وأنى رسول الله، لا يَلْقَى الله بهما عبدٌ غيرُ شَاكٍّ فَيُحْجَبُ عن الجنة"(٢).

ونلحظ فى الحديث أدب الصحابة ﷺ فى طلبهم من رسول الله ﷺ "لو أذنت لنا" فهذا من أحسن الأدب فى مخاطبة العظماء والسؤال منهم، وفى ذلك إشارة إلى أنه لا ينبغى للعسكر أن يضيعوا دوابهم التى يستعينون بها فى القتال دون إذن إمامهم وقائدهم، فأذن لهم النبى ﷺ مراعاة لمصلحتهم

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/٢٠١، ٢٠٢.

(٢) صحيح مسلم - الإيمان - ١/٢٢٥.

وارتكاب أخف الضررين، وهنا جاء عمر بن الخطاب ﷺ فراجع النبى ﷺ فى أدب معللا رؤيته فقال: يا رسول الله: (إن فعلت قل الظهر) ونحن فى حاجة ماسة إلى الدواب لنستعين بها فى الحرب، وأرى أن تدعهم إلى أن يأتوا بفضل أزوادهم وادع الله لهم عليها بالبركة، فأخذ النبى ﷺ برأى عمر، فما تركوا فى العسكر وعاء إلى ملئوه وأكلوا حتى شبعوا وفضل فضلة.

هنا تتجلى مرونة الإسلام فى احترام آراء الآخرين مادامت صائبة وهادفة، فلا يمنع المشورة على الأئمة والرؤساء والقواد، ويجيز للمفضول أن يشير عليهم بخلاف ما رأوه ما دام فيه المصلحة العامة.

وهدف الرسول الكريم من هذا الحوار ونظيره أن يعلمنا ضرورة المرونة العقلية فى الحوار، وضرورة الشورى فى الوصول إلى النتائج الطيبة، وأن على الحاكم أو ولى الأمر مهما بلغ من الرأى والنفوذ ألا يستبد برأيه، فلا ندم من استشار ولا خاب من استخار، والمشورة فى اختيار الأمور قبل الإقدام عليها من شأن العقلاء.

والحوار يهدف إلى إثارة العقل والوجدان، إذ يأتى بالفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا، والرسول الكريم ﷺ أعطاه الله القدرة على التأثير فى قومه أو محاوريه منهم أو مجادليه فجمع له قوة الإقناع بالحجة والبرهان إلى قوة التأثير فى الوجدان، فأتى كلامه فى الحقيقة البرهانية بما يرضى ويقنع العقلانيين، ومن المتعة الوجدانية بما يرضى الخياليين وهذا ما نجده فى كلامه ﷺ فقد أوتى جوامع الكلم "فهو لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة، ولا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير وتهويل وتعجيب"(١)

(١) النبأ العظيم ١٠٩ (بتصرف).

صلة البلاغة بالحوار:

إن الحديث عن صلة البلاغة بالحوار يقتضينا أن نتعرض لصلة البلاغة بالدعوة؛ لأن الحوار أداة من أدوات الداعية، ووسيلة من وسائله فى نشر الدعوة، والبلاغة هى أداة الدعوة وسلاحها الذى به تذود عن حماها وتحقق أهدافها.

ماذا يريد الداعية؟

إنه يريد تغيير واقع لا يرضى عنه، ونقطة البداية فى كل تغيير هى النفس الإنسانية، وتغيير النفوس ليس سهلا، بل يحتاج إلى ترويض وصبر، لأن تقليب القلوب والأفكار أعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال .. إنه تغيير فى الإنسان ذاته من عقلية إلى أخرى، إنه ليس تغييرا فى الملبس أو المأكل أو المسكن، إنه تغيير لوجهة مشاعره وأفكاره وأهدافه، ومجرى حياته، إنه تغيير ينفذ إلى الروح وأعماقها، والنفس وجوهرها، ويستتبعه تغيير فى المظهر والغلاف إذا استلزم الأمر.

وهذا يستوجب من الداعية أن يتعامل مع النفوس من جميع جوانبها وملكاتها الفكرية والوجدانية والإرادية.

والبلاغة هى المؤهلة للقيام بهذا الدور.لماذا؟ لأن بلاغة الكلام هى تأثير نفس فى نفس، وفكر فى فكر، والأثر الحاصل من ذلك التأثير هو التغلب على مقاومة فى هوى المخاطب أو فى رأيه، وهذه المقاومة قد تكون فاعلة كسبق الإصرار أو الميل أو العزم أو تكون منفعلة، كالجهل أو الشك أو التردد وقد يكون مع الجهل زيف العلم، واعتساف الحكم، وخطل الرأى الثابت باستمرار العادة .. وحينئذ لابد أن تتناصر قوى العقل جمعاء على كسر هذه المقاومة من طريق البرهان وتقديم الدليل والإقناع بالحجة المنطقية، وذلك عمل الحوار، والحوار عصب البلاغة، وقد تكون المقاومة ضعيفة أو معدومة من جهة العقل، ولكنها تكون قوية عارمة من جهة النفس فقد لا يمارى الخصم فى أن هذا حق - مثلا - ولكنه يستثقله، أو أنه هو النفع ولكنه يرى أن فيه جهدا لنفسه وبهرا لقواه، أو هو العدل ولكنه يتعارض مع نفعه ويصادم

هواه فدور الداعية البليغ هنا أن يوجه أساليبه المؤثرة إلى النفس لا إلى العقل؛ لأن البلوغ إلى قرارة النفوس أخص بأعمال الداعية (المحاور اللبق) فالوظيفة الأولى للبلاغة هى الإقناع من طريق التأثير، والإمتاع من طريق التشويق، ولذلك كان اتجاهها إلى تحريك النفس أكثر.(١)

إن الكلام البليغ "إذا علا فى نفسه كان له من الوقع فى القلوب والتمكن فى النفوس ما يذهل ويبهج، ويقلق، ويؤنس، ويطمح ويؤيس، ويضحك ويبكى ... ويهز الأعطاف، ويستميل الأسماع، ويورث الأريحية والعزة ... وله مسالك فى النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة"(٢)

فعلى قدر ما يتمتع به الداعية من آفاق البلاغة يكون نجاحه فى أداء مهمته "فلا يكفى أن يعلم ما ينبغى أن يقول، بل يجب أن يقوله كما ينبغى"(٣) مستعينا بكل ألوان الأساليب المؤثرة والتى تخاطب الإنسان فى كل ملكاته، من حجة عقلية، ودليل وجدانى، وأسلوب تصويرى، وضرب أمثال وقصص، وترغيب وترهيب، حتى ينفذ إلى عقل المستمع ووجدانه.

وقديما أحس سيدنا موسى - عليه السلام - بحاجته إلى ذلك فسأل ربه قائلا: ﴿وأخي هارونُ هو أفصحُ مِنّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي، إنّي أَخَافُ أنْ يُكَذِّبُونِ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص ٣٤، ٣٥).

فالنص الكريم يؤكد حاجة الداعية - وكذلك المحاور أو المجادل - إلى الفصاحة والبيان، ويلاحظ إسناد التصديق إلى ضمير هارون مع أن المقصود تصديق قومه له، بدليل قوله: ﴿إنى أَخَافُ أنْ يَكَذِّبُونِ﴾ لأنه لما كان هارون سببا فى تصديق قومه لفصاحته وقدرته على المحاجة، وعرض الدعوة عرضا يصل إلى القلوب، أسند الفعل إليه على سبيل المجاز العقلى، وسر العدول بيان

(١) دفاع عن البلاغة ٢٠ - ٢٤ (بتصرف).

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ٤١٩.

(٣) الخطابة لأرسطو ص ١٤٠٣. تحقيق عبدالرحمن بدوى القاهرة. مكتبة النهضة ١٩٥٩.

أهمية السبب فى تحقيق التصديق، وإشارة واضحة إلى قيمة البلاغة وقوة البيان فى نجاح الداعية أو المحاور.

وحديثا كان الشاعر أحمد شوقى وهو - أمير عصره - يستعين بشخص آخر ليلقى شعره فى المحافل نيابة عنه وفى حضوره، وما ذاك إلا لأن صوت هذا الملقى وطريقة إلقائه يضفيان على الكلام جمالا وتأثيرا.

وعلى كل، فليس فى استعانة موسى بأخيه هارون ما يدل على عجز أو عيب فيما يتعلق به رسولا ونبيا، كما أنه ليس فى استعانة شوقى بشخص آخر لإلقاء قصائده له ما يدل على نقص فيه باعتباره شاعرا مجيدا.

هذه الشواهد تضيف تأكيدا لإظهار أهمية الفصاحة والبلاغة لمن يتصدى موقف المحاورة أو المناظرة .. فطلاقة اللسان وفصاحته لها من سحر التأثير ما يفعل الأعاجيب.

إن الفصاحة لا يحتاج إليها لمجرد إلقاء المعنى ليصل السامع إلى فهمه، فيقول للمتكلم صدقت أو كذبت، فهذا القدر يستوى فيه من يضرب به المثل فى البلاغة وهو سحبان، ومن يضرب به المثل فى العى وهو باقل، وإنما يحتاج إلى الفصاحة لشيء فوق فهم المعنى، وهو التأثير فى السامع وكسب مشاعره(١)

وإذا نجح الداعية فى السيطرة على أنفس المدعوين كانت ثمرته تحريك هممهم وتوجيه إرادتهم للعمل وفق ما حصلوه من اقتناع عقلى، وترسب فى أعماقهم من انطباعات نفسية، "إن الاقتناع لا يكون بغير السيطرة على النفس، والسيطرة على النفس لا تتم بغير البلاغة، والبلاغة وحدها هى التى تعتد بالعقل فى إدراك الحق، وبالشعور فى إدراك الخير، وبالذوق فى إدراك الجمال، وهى وحدها التى تنفذ إلى القلب بسلطان غير ملحوظ، وتؤثر فى

---

(١) الكشاف ٣/١٧٦ انظر تفسير آية القصص ٣٤ (بتصرف).

الذهن ببرهان غير ملفوظ، وتذهب فى تصوير الواقع وتقرير الحـــق مذهـــب الوحى الإلهى الخالد"(١)

ولقد سبق الطيبى إلى هذا المعنى فقال فى "التبيان" :"إن الكلام متى وقع فى فنى البلاغة والفصاحة موقعه، استهش الأنفس، وآنـــق الأسمـــاع، ونشـــط الأذهان، وربما نقل السامع من خلقه الطبيعى، حتى أنه ليسمح بـــه البخيـــل ويشجع به الجبان، ويحلم به الطائش، ومن ثم قال رسول الله ﷺ : **"إن مـــن البيان لسحرا"**(٢).

ومن المعلوم أن السيف واللسان كلاهما ســـلاح فى الخصومـــة، ولكـــن اللسان أكثر انتصارا من السيف؛ لأنه يخاطب العقل والوجدان فيكون تأثـــيره فى السلوك أشد إقناعا،

قال حسان بن ثابت ﷺ:

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ∴ ويبلغ ما لا يبلغ السيف مـــذودى(٣)

لذلك كان الرسل - رضوان الله عليهم - من أصحاب اللسان يدعـــون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن، فعملوا على نشـــر الدين بالحجة والاقناع وباللسان والدليل، وبما أيدهم الله به مـــن معجـــزات وصدق.

والرسول الكريم الداعية الواعى يتخذ الحوار طريقا إلى الإقنـــاع، مســـتعينا بالحجة القوية والبرهان الواضح فى تقرير الحق ودفع الباطل، ويأتى من ذلـــك بالمبدع العجيب مصوغا فى أسلوب يجمع بين إقناع العقل ومخاطبة الحـــواس وسائر الملكات الإنسانية، بعيدا عن جفاف المنطق وبرودة الفكـــر، فيـــأتى أسلوبه فى الحوار أو الجدل جامعا خصائص الأسلوب المؤثر فى شكله وقالبـــه

(١) دفاع عن البلاغة ٢٤، ٢٥

(٢) التبيان للطيبى ٥٢١، والحديث فى فتح البارى كتاب النكاح ٢٠١/٩

(٣) شرح ديوان حسان. عبدالرحمن البرقوقى ص ١٨٠ - دار الكتاب العربى - لبنـــان سنة ١٩٩٠ وانظر نقد النثر لقدامة ص ١٣٢.

التعبيرى، متسما بالإيجاز والتركيز، متغير اللهجة والجرس، تبعا لمقتضى الحال، سريع الجواب، قصير الخطاب على نحو يغرى المخاطب بتتبعه، والوقوع تحت تأثير معين هو المغزى من الحوار، لأنه فى غمرة التتبع والتيقظ وتفتح المشاعر يلقى إليه بما ينص على الغرض أو يوحى به، فيقع فى نفسه موقع الرضا والقبول، ولهذا كان الحوار من أبرز أساليب الدعوة لما فيه من دواعى التشويق وجذب الانتباه وتجديد نشاط السامع، ومن خلاله يستطيع الداعية أن يواجه النفوس بنقائصها فيذكر وينبه بالخبر المشوق، ويرشد ويحذر بالأمر والنهى، ويقرر بالاستفهام، ويؤكد بالقسم، ويحسم بالقصر، ويوضح بالتصوير، ويشوق بالقصة والمثل، كل ذلك من خلال الحوار الذى يثرى الحدث ويعمق الإحساس به، ويظهر المغزى ويثبته، ويكشف عن الهدف ويقرره.

هذا التلوين فى الخطاب يتناسب مع تلوين الحوادث وتنويع الأخبار واختلاف الأشخاص والمنازع والأهواء لتتلقاه العقول السليمة يقظة متدبرة، والنفوس المريضة والعقول العنيدة مرتدعة متأثرة.

وعلى كل حال: ليس الخبر كالمعاينة فهذه بعض الشواهد نقدمها لتكون دليلا على بلاغة الحوار النبوى.

١- بين الرسول والأنصار

كان الأنصار من أهم أسباب نصر المسلمين يوم حنين، وبعد انتهاء المعركة قسم النبى ﷺ الغنائم بين المسلمين، فإذا الأنصار أقل الناس حظا فى حين أنهم كانوا يتوقعون أن يكونوا أكثر حظا من غيرهم لما أبلوه ولما تسببوا فيه من نصر، فترك ذلك فى نفوسهم شيئا وأسروا الموجدة، وقد زاد من تحريك ذلك فى نفوسهم أن كان بين المسلمين منافقون يندسون فى خفاء، يثيرون الفتنة وبخاصة فى مثل هذه الأوقات العصيبة - أوقات الحروب - حيث تكون النفوس قلقة يسهل غزوها بالوساوس والشائعات، فأخذ هؤلاء يشيعون الوساوس بين الأنصار من تفضيل النبى لقبائل كثيرة حديثى عهد بالإسلام عليهم، ومن أنه سيترك المدينة ويقيم بين أهله فى مكة، ونحو ذلك مما ملأ نفوسهم قلقا وخوفا وحقدا.

ولما أحس النبى ﷺ - وهو الكيس الفطن - بما يدور فى نفوس كثير من الأنصار بادر إلى إخماد الفتنة فى مهدها واستئصال جذورها، فعمل على راحة الأنصار - بعد أن قرأ ما فى نفوسهم - وذلك بتفريغ ما فى نفوسهم من غضب أو وساوس كاذبة، فامتص غضبهم وأراحهم من ظن وآمنهم من خوف. وكان سبيله إلى ذلك الحوار الهادف الذى نقرأه فى السطور الآتية وهو بعض خطبته فيهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"يا معشر الأنصار: ما قَالَةٌ بلغتنى عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟

قالُوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل.

ثم قال: "ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار"؟

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل.

قال ﷺ : " أَمَا والله لو شئتم لَقُلْتُم فَلَصَدَقْتُمْ، وَلَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك. أوجِدتم

يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعَاعَةٍ من الدنيا تَأَلَّفتُ بها قوما لِيُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟
أَلاَ تَرضَوْنَ يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجِعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبا وسلكت الأنصار شِعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار".
فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْمًا وحظا.(١)

من براعة رسول الله ﷺ فى هذا الحوار أن بدأه بهذا النداء "**يا معشر الأنصار**" وهو نداء فيه تلطف واستمالة وإشعار لهم بأنهم معشره وهو منهم ومن شأن ذلك أن يستميلهم ويفتح قلوبهم "**ما قالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم**"؟ استفهام فيه عتاب رقيق حان يشعرهم بقرب النبى منهم وحبه لهم وحرصه على رضاهم.

"**ألم آتكم ضلالا فهداكم الله....**؟ استفهام تقريرى اشتمل على عدة متقابلات ليتميز بعضها ببعض وليتأكد حكم الضد بضد الحكم، فإذا انكشف للعقل هذان المتقابلان وجد طريقه إلى المقارنة فلا ينخدع ولا يسوف، وهذا ما أراد الرسول ﷺ أن يلفت نظرهم إليه مقدما، فمهما كان من جهدهم وتضحيتهم فى سبيل الإسلام، فإن فضله عليهم أعظم وأسبق، وليس هذا التذكير من باب المن والتفضل، وإنما هو سرد حقائق واضحة دعت إليها ضرورة الموقف وهنا لم يجدوا إلا الإجابة بالإثبات، فقالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

---

(١) فتح البارى - المغازى - ٤٧/٨، مسند أحمد - باقى مسند المكثرين من حديث رقم ١١٣٠٥، سيرة ابن هشام القسم الثانى ص ٤٩٩، ٥٠٠ بتحقيق مصطفى السقا وآخرين- الحلبى - ط ٢ ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

وهنا يكون الرسول قد أقام عليهم الحجة وأقروا بأنفسهم بفضل الله ورسوله، وهذا من شأنه أن ينبههم ويخنع من ثورتهم فتهدأ نفوسهم بعض الشيء.

"ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار"؟ استفهام صدر بأداة العرض للتنبيه والتسجيل عليهم.

فقالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل. ولكن حكمة الرسول ونفاذ بصيرته تعلم أن هذه إجابة الإيمان، وإجابة العقل والمنطق، ثم تبقى بعد ذلك فى النفس الأمارة بالسوء وساوسها، فلابد أن يخرج ما فى نفوسهم من موجدة، ويستل ما فى صدورهم من ضغينة، فآثر أن ينهج معهم منهج مجاراة الخصم، وعرض وجهة نظرهم كاملة فقال: **"أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم ... فآسيناك"**

لقد كانت هذه العبارة من رسول الله ﷺ بمثابة الماء الذى أطفأ النار أو بمثابة الغيث الدافق على المحل الظامى، فهم لو وقفوا من رسول الله موقف الخصم ما استطاعوا أن يقولوا ذلك، وهذا ما لم تتحدث به ألسنتهم، وإن كان أقصى أمانيهم أن يشعروا بأن لهم هذا الفضل. وبهذا طيب الرسول نفوسهم وأخرج ما فى صدورهم من موجدة وما فى أوهامهم من ظنون، وهنا تفتحت قلوبهم وهشت وجوههم وتشوقت نفوسهم لحديث رسول الله ﷺ ، وهنا ألقى عليهم سؤالا **"أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟**

استفهام فيه لوم وعتاب وإنكار لعدم إدراكهم ما يرمى إليه ﷺ وتصوير للمعنى بالألفاظ تصويرا مؤثرا، إذ ساق لهم فى هذا السؤال ثلاثة معان:

الأول: شبه الغنائم والأموال التى كانوا يرغبون فيها باللعاعة (البقل أول ما يبدو وهو ناعم رقيق) مشيرا بذلك إلى تفاهة متاع الدنيا وأن ما عند الله خير وأبقى.

الثانى: إن كثرة العطاء ليست دليلا على علو الشأن بل على العكس؛ لأن العطاء لأجل تأليف القلوب وتثبيتها على الإيمان.

الثالث: اطمئنان النبي ﷺ إلى إسلامهم، لذلك لم يكن بحاجة إلى أن يتألف قلوبهم، وهذا دليل على ثقته فيهم.(١)

ثم يقول بعد ذلك: **"ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم"؟**

استفهام غرضه التشويق واستحضار نفس المخاطب وعقله، بدء بأداة العرض "ألا" عرض لسؤال مهم، به يتميز الضدان مع ما لأداة العرض فيه من استنهاض قوى النفس وإثارة نشاطها، إنها مقابلة جيدة (يذهب الناس بالشاة والبعير، ويرجع الأنصار برسول الله ﷺ) تجسد المعنى وتبرز مقارنة حقيقية واقعية.

وقد تكرر النداء - يا معشر الأنصار - من خلال هذا الاستفهام مبالغة فى استمالتهم وكسب عواطفهم وإظهارا لمعزتهم وبيانا لقدرهم، ومن شأن ذلك أن يطهر قلوبهم ويسكن نفوسهم.

يبقى بعد ذلك هاجسا آخر فى نفوس الأنصار يخشاه النبى ﷺ وهو أن يظنوا أن موقفهم هذا ربما يقلل من حبه لهم، فيؤكد لهم بأكثر من وسيلة أنه لم يغير رأيه فيهم، بل يكشف لهم عن جوانب حبه لهم بقوله: "**فوالذى نفس محمد بيده ... الأنصار**" فماذا يتمنون بعد ذلك؟ وأى حلم يراود أمانيهم أعظم من تمنى الرسول أن يكون واحدا منهم لولا أن الهجرة فى سبيل الله منزلة رفعها الله تعالى وهو فيها؟ وأى خيال من الأمانى والأحلام يراود نفوسهم أعظم من أنهم لو كانوا فى طريق والناس فى طريق آخر لاختار النبى طريقهم؟ بل يعمد النبى ﷺ إلى كسب قلوبهم بأكثر من ذلك فيدعو لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم **"اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار"**.

وعندئذ خجل الأنصار لما أحسوا بخطئهم، وازدادوا خجلا من كرم رسول الله ﷺ ولهذا كان أبلغ ما أجابوا به رسول الله ﷺ دموع غزيرة تدفقت من

---

(١) جاء فى رواية البخارى قوله ﷺ: "والله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل، والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى، ولكنى أعطى أقواما لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما فى قلوبهم من الغنى والخير" فتح البارى - كتاب الجمعة - ٤٠٣/٢، ودليل الفالحين ٥٢٥/٢.

قلوب أسيرة ملأها الحب والإيمان، وهزها الندم والتأثر، وإذا هذه الدمـــوع تبلل لحاهم وتلهج ألسنتهم يقولون "**رضينا برسول الله قَسْمًا وحظا**".

ومما يجب أن نشير إليه من بلاغة الرسول ﷺ فى هذا الحديث [جملة الحـوار] الصورة الموحية أو الأسلوب التصويرى الذى يحـدث فى النفـس انطباعـا وجدانيا، هذا الانطباع يوقظ فى النفس جذوة من الأحاسيس مناسبة لــه ... ويظل هذا الانطباع يؤدى وظيفته فى توجيه قوى النفس وإيقـاظ المشـاعر، وتفجير القوى اللازمة لتحويل هذا الشعور إلى عمل وترجمة إلى سلوك.

وتكمن قدرة الألفاظ النبوية على التصوير فى أن لكل لفظ إلى جـانب دلالته اللغوية دلالة أخرى شعورية، تتمثل فيما يوحى به اللفظ من الصـور والظلال، وما يبثه من موسيقى خاصة وإيقاع متميز.. وتأثير الألفاظ والصيغ مرتبط بما تثيره من الصور وما تبثه من إيحاء وهو شىء مستقل عـن معناهـا اللغوى زائد عليه، فالمعنى اللغوى ثابت لا يتغير أما المعنى الشعورى فمتغـير لأنه يكتسب من كل استخدام ملابسة شعورية جديدة تضاف إلى رصيده.

ومن هنا كان الأسلوب التصويرى متفردا بالقدرة على التأثير فى المشـاعر، والوصول إلى أعماق النفس البشرية محركا لكل منها مؤججا لقواها.

فقد صور النبى الأنصار فى جانب والناس فى جانب، وقـد أخـذوا جميعـا أنصبتهم فأما الأنصار فكان نصيبهم شخص النبى نفسه ﷺ فأخذوه ورجعـوا إلى رحالهم، وأما أنصبة الناس فكانت شياها وبعرانا .. ولنا أن نتصـور مـا تثيره هذه المقارنة من تأثير عاطفى فى نفوس الأنصار، حين يتصورون هـذه المقابلة بين نصيبهم العظيم وتفاهة أى نصيب آخر مهما عظم.

ومن التصوير المؤثر أيضا تعبيره ﷺ عن ميله للأنصار وإيثاره لصحبتهم علـى صحبة سائر الناس .. فالأنصار وحدهم فى طريق .. والنـاس فى طريـق .. والنبى ﷺ يؤثر طريق الأنصار على أى طريق آخر .. إنها مقابلة تؤكد المعـنى وتبرزه مجسما فى نفوس الأنصار حين يتمثلون أنفسهم فى طريق خاصة بهـم وقد انحاز إليهم النبى ﷺ مؤثرا طريقهم على غيره من الطرق.

ويلاحظ أيضا ما فى بعض جمل الحوار من توافق موسيقى مع ما فيها من مقابلات مما يزيد جمال المبنى والمعنى. كما فى قوله ﷺ : "**ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله .. الخ**"

هذه صورة مشرقة من بلاغة الحوار النبوى، تمثل لنا ما منحه الله لرسوله ﷺ من فصاحة القول وإعجاز البيان وإصابة الرأى وسلاسة الحوار وقوة الحجة وبراعة الحجاج، والقوة النفسة القادرة على النفاذ إلى القلوب، والإحاطة بدخائل النفوس واستلال ما فيها من قلق أو خوف أو ضغينة أو موجدة، ليعود لها صفاء الإيمان وبرد اليقين.

٣- بين الرسول وسائل من الأنصار

ما أكثر المواقف التى تحدث فى حياة الناس، وما أكثر الدواعى المثيرة فى كل موقف والنبى ﷺ لا يدع موقفا يستحق التوجيه إلا قدم له ما يناسبه من قول أو فعل أو توجيه أو تقويم، ليهدى حائرا أو يرشد ضالا أو يعلم جاهلا أو يقرر حكما أو يصحح سلوكا معيبا، لأنه حريص على أبناء أمته، لهم ناصح أمين.

ومن أهداف النبى ﷺ أن يرتفع بالنفس عن المذلة وهوان الاستجداء وذل السؤال، ولو "أين الطريق"؟ لذلك نجده حريصا على سلامة المجتمع كله من داء البطالة أو فراغ الوقت،لأن المجتمع الذى تنتشر فيه البطالة تنتشر فيه الرذيلة، والفراغ غير الهادف يدفع بالعاطلين إلى الانحراف الاجتماعى والخلقى والأمراض النفسية، وتكون النتيجة إهمال أهليهم وضياع أولادهم، لذلك يقول ﷺ: "**:كفى بالمرء إثما أن يُضَيِّع من يقوت**"(١) ويقول: "**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أَعْطَوْهُ أو منعوه**".(٢)

ومن حرص النبى ﷺ على نقاوة سلوك المجتمع أنه يصحح سلوك الأفراد أولا بأول ما وجدت الفرصة أو دعا إليها الموقف، فيعالجه بحكمة بالغة وسياسة رشيدة وسلوك عملى، ليكون أشد تأثيرا وإقناعا.

فمن مثل هذه المواقف التى استغلها النبى ﷺ فرصة لعلاج البطالة والقضاء على المسألة المذلة ما نراه فى هذا الحوار مع رجل من الأنصار.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أتى رجل من الأنصار يسأل رسول الله ﷺ،

فقال : أَمَا فى بيتك شىء؟

قال: بلى. حِلْسٌ نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقَعْبٌ نشرب فيه الماء.

---

(١) دليل الفالحين ٢/١٢٠، سنن أبى داود كتاب الزكاة، ١/٣١٧.

(٢) فتح البارى - كتاب الزكاة - ٣/٣٣٥، (طبعة بيروت)، ٣/٣٩٣ (طبعة الريان).

فقال: ائتنى بهما، فأتاه بهما، فأخذهما ﷺ بيده.
وقال: من يشترى هذين؟
فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم.
فقال ﷺ: من يزيد على درهم ؟ (قالها مرتين أو ثلاثا).
فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصارى وقال: اشترِ بأحدهما طعاما فَانْبِذْهُ إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدُومًا فائتنى به، فأتاه به، فشدّ فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال: "اذهب واحتطب وبع ولا أَرَيَنَّكَ خمسةَ عشرَ يوما". ففعل الرجل ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما.
فقال ﷺ: "هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مُدقع، أو لذى غُرم مفظع، أو لذى دم موجع"(١).

يبدو أن الرجل الأنصارى السائل من ذوى الصحة والقدرة على العمل والكسب، لذلك عظم من عين النبى ﷺ أن يكون عاطلا لا يعمل ويدور يسأل الناس .. إنها مشكلة اجتماعية كبرى .. لابد - إذن - أن يضع لها حلا جذريا، وإلا سيستفحل خطر البطالة فى المجتمع.

سأل النبى الرجل: **أما فى بيتك شيء؟** استفهام فيه إيناس للرجل، ويدل على مدى اهتمام النبى ﷺ بأبناء أمته، وبحث مشاكلهم والعمل على حلها بما يصلح شأنهم ويحقق كرامتهم. وتنكير كلمة (شيء) تبين استفهام النبى عن كل ذى قيمة مهما صغر قدرها.

فأجاب الرجل مدلا على ما عنده (**حلس نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء**) وواضح أنه متاع قليل بسيط.

فقال له النبى ﷺ: ائتنى بهما، فأتاه بهما، فأخذهما ﷺ بيده ... العطف بالفاء يفيد تتابع الأحداث سريعا وهذا يدل على رغبة الرسول فى معالجة المشكلة معالجة حاسمة وسريعة.

---

(١) المنهل العذب المورود شرح سنن أبى داود ٢٧٧/٩ (كتاب الزكاة)

قال النبى ﷺ: من يشترى هذين؟ حث للحاضرين، وتشجيع لهم على الشراء ودفع الخجل من الإقبال على شراء متاع صاحب أو جار محتاج ما دام فى البيع فائدة له.

واستفهام النبى ﷺ: **من يزيد على درهم؟** يؤكد رغبة الرسول ﷺ فى دفع أصحابه لمساعدة أخيهم فى التغلب على الشدة التى يعيشها.

باع النبى ﷺ متاع الرجل بدرهمين، فأعطاهما له وقال - موجها مصرفهما -: "اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك - وفى ذلك مراعاة من الرسول لحق أهل الرجل، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به، ففعل الرجل وجاء بالقدوم، فأخذه النبى ﷺ وشد فيه عودا بيده، وأعطاه للرجل وقال له: "**اذهب واحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما**" هنا درس عملى يقوم به النبى ﷺ أمام الصحابة يؤكد فيه أن العمل شرف، واجب على كل إنسان أن يعمل ليعف نفسه عن المسألة ويحقق ذاته ويشعر بكرامته.

أما قول النبى ﷺ "**ولا أرينك خمسة عشر يوما**" فهى فرصة أعطاها النبى ﷺ للرجل ليعمل ويكتسب، ليحصل على أكبر عائد ممكن من العمل فيدرك قيمة العمل ويظهر عليه التغيير إلى الأحسن، فيكون درسا له ولغيره ما تعاقبت الأجيال على ظهر البسيطة.

عاد الرجل بعد المدة التى قررها النبى ﷺ وقد أصاب عشرة دراهم .. إنها ثمرة العمل ثمرة ملموسة واضحة أمام العيان، من رآها آمن بفضل العمل وقيمته فى حياة الفرد والمجتمع.

وهنا ينتهز النبى الفرصة ليؤكد قيمة العمل وأهميته، وينفر من المسألة وما تجره على صاحبها من وبال، فيقول للرجل: "**هذا خير من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة**" أى لأن تجىء على هذه الحال من العمل والكسب المشروع خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة.

إنها موازنة بين حال الرجل قبل العمل وما يترتب عليه من مغبة، وحاله بعد العمل وما ترتب عليه من كرامة، ليدرك ويدرك الجميع - عن قرب - قيمة العمل وأهميته، وهوان المسألة وقبحها، وفيها تعظيم بالإشارة القريبة أن حالته الآن أفضل، وهذا من أثر العمل ونتائجه.

ونظرة أخرى إلى هذا التركيب الذى ذكره النبى ﷺ لينفر من المسألة نجده تعبيرا فى منتهى القوة والبلاغة، فهو يجسم القبح المركب - إن جاز التعبير - للمسألة، إذ صورها نكتة سوداء حتى ترى مجسمة محسوسة، وخصها بالوجه لتكون أشد إيجاعا حسا، لشدة إحساس الوجه لجمعه الكرائم التى هى مواطن الإحساس ومنافذ الإدراك، ولأنه محل القوى العليا التى تدبر مملكة السلوك فى الإنسان، ولتكون أشد إيجاعا نفسيا، لانكشاف الوجه عن ساتر يستره، فتكون تحت بصر كل من يقابل فيكون الخزى أشمل والهوان أعم.

وجعل ذلك يوم القيامة ليصل التهديد والترهيب إلى أقصاه، إذ يكون ذلك الخزى وذاك الهوان أمام الخلائق كلها فى يوم لا يملك فيه أحد لأحد شيئا.

إنه تعبير دقيق يصور منتهى التصعيد فى التنفير من المسألة، لأنها هى مدار التحذير فصورها بهذه الصورة المزدراة تصعيدا فى التنفير وترهيبا لكل من تسول له نفسه أن يسأل الناس، وهو قادر على العمل والكسب.

بعد ذلك الحوار المقنع يقرر الرسول ﷺ الهدف منه وهو أن المسألة لا تجوز إلا لثلاث فئات من الناس: ذى الفقير الشديد مع عجزه عن العمل والكسب، ومن عليه دين ثقيل ولا يستطيع سداده، ومن عليه دية يعجز عن أدائها. نجد ذلك فى قوله: "**إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع، أو لذى دم موجع**" هكذا بأسلوب القصر ليؤكد المعنى مع إيجازه، ويفيد قصر إباحة المسألة على هذه الفئات الثلاثة، ناهيك عن التأكيد بإن واسمية الجملة، ثم ألا تسمع جمال الإيقاع فى العبارة يوقعه ذلك السجع الجيد (فقر مدقع، غرم مفظع، دم موجع).

لقد عالج النبى ﷺ المشكلة علاجا حاسما، ووضع أسسا تربوية عظيمة تصاحب الناس فى حياتهم ما امتدت بهم الحياة، فما أن انتهى النبى من حواره مع الرجل حتى صار العمل أحب شىء إلى نفوس صحابته، والمسألة أبغض شىء إلى نفوسهم.

ومن إكرام النبى ﷺ للرجل أن عالج مشكلته بماله - أى بمال الرجل - حتى لا يكون لأحد عليه من، وباع متاعه بأكبر ثمن ممكن لا بخس فيه ولا انتهازية، وسلك به مسلكا عمليا راعى فيه مصلحته ومصلحة أهله، ومصلحة الصحابة، بله مصلحة البشرية كلها.

إن حرص النبى ﷺ على تقويم سلوك المؤمنين ونجاح مصيرهم عامل نفسى يتحرك به بيانه الشريف، مع هذا النحو على أحكم ما يكون البيان دقة فى النسق، وإحكاما للربط، وموافقة للداعى المثير تأثيرا فى القلوب.

٣- بين الرسول وعتبة بن ربيعة

جاء عتبة بن ربيعة إلى النبى ﷺ نائبا عن قريش، يعرض عليه عروضا من شأنها أن تكسر أقوى إرادة.

قال: يا ابن أخى: إنك منا حيث قد علمت من الشرف والعلا فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها.

قال ﷺ: "قل يا أبا الوليد .. اسمع".

قال: يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثر مالا، وإن كنت تريد به شرفا سَوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رِئْيا - من الجن - طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئَكَ منه.

قال ﷺ: "أو قد فرغت يا أبا الوليد؟"

قال: نعم.

قال ﷺ: فاسمع منى، بسم الله الرحمن الرحيم . حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فُصِّلت آياتُه قرآنا عربيا لقوم يعلمون. بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. (فصلت ١ - ٤).

وكان "عتبة" ينصت، فلما انتهى الرسول إلى آية السجدة سجد ثم قال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، وأنت وذاك"(١)

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٦٢

"إن المكابرة فى الأمور النفسية لا تتجاوز أطراف الألسنة، فإن اللسان وحده هو الذى يستطيع أن يتبرأ من الشعور ويكابر فيه، إذ هو أداة مغلبة تتعاورها الألفاظ، والألفاظ كما يرمى بها فى حق أو باطل تتمنع على من أرادها لأحدهما أو لهما جميعا"(١)

إن عتبة – ومن روائه الملأ من قريش – يعرض أمورا من شأنها أن تذل رقاب الرجال الراغبين فى الملك والترف والزعامة، ولكن الرسول ﷺ يحسم الموقف لحساب المبادىء الشريفة بالقلب الودود والبرهان القاطع.

فعلى رغم بطلان الدعوى قبلا إلا أنه ﷺ يعطى عتبة حقه فى عرض وجهة نظره كاملة وهنا يعلمنا النبى ﷺ أدب الحوار مع الخصوم، ومن ذلك احترام الخصم والاستماع إليه وعدم مقاطعته مهما بلغ من الضعف فى رأيه أو كيانه، وإعلان المساواة له، وهذا أقصى ما يمكن من عدالة تمنح للخصوم، فيقول له النبى ﷺ **"قل يا أبا الوليد أسمع"** وهذا ما يسمونه **"مجاراة الخصم"** وهو مسلك ذكى من المحاور إذ يجر خصمه إلى ساحة الحوار مستسلما دون أن يدرى.

ولما انتهى عتبة من بسط دعواه لم يعط الرسول نفسه حق الرد إلا بعد أن تأكد منه أنه قد قال كل ما يريد، فيقول له: **أو قد فرغت يا أبا الوليد؟"** يناديه بأحب الأسماء إليه: يا أبا الوليد وهذا المسلك الأسلوبى من رسول الله ﷺ هو ما يسمى **"بإنصاف الخصم"**، إذ انتظر واستمع و لم يقاطعه فى دعواه، ثم يقدم بين يدى ندائه أحب الأسماء إليه (يا أبا الوليد) وهذا المسلك الأسلوبى له تأثير المخدر – إن جاز هذا التعبير – على الخصم، ومن شأن ذلك أن يطمع عتبة فى أن الرسول ﷺ سيستجيب لعروضه، ولكن النبى ﷺ حذر وقاف، لقد تجاهل ذلك المدخل "الدبلوماسى" الناعم فى قول عتبة: **يا ابن أخى: إنك منا حيث قد علمت من الشرف والعلا فى النسب**، ثم تجاوز العروض المغرية

(١) إعجاز القرآن للرافعى ١٦٠.

ليواجه خصمه بالحق من خلال آيات بينات من سورة فصلت، والتى أفزعتــه بالحقائق الآتية كما يفهم من الآيات:

١ - إن على قريش منذ اليوم أن ترتفع مدركاتها فوق هذه العروض التافهــة لتعايش القرآن فى أفقه العالى **"تتريل من الرحمن الرحيم"**.

٢ - ومن مظاهر هذه الرحمة أن جاءهم ذلك الكتاب مفصلا، بلسان عــربى مبين بشيرا ونذيرا، ليزيل الغشاوة التى رانت على العيون والقلــــوب، وليخرج الناس من وبال التخبط فى الظلمات إلى نعمة الهداية فى النور.

٣ - فإذا لم تستجب تلك القلوب لهتاف الرائد الذى لا يكذب أهله، فقـــد حكمت على نفسها بالهلاك، فى الوقت الذى ينعم المستجيبون بــالأجر الدائم الوفير.

٤ - وعلى المعاندين أن يدركوا حجم الكفران هنا، إنه الكفران بمن خلــــق الكون الهائل والذى جعل أرضه مائدة مبسوطة بعطائـــه، وجعــل فى سمائه مصابيح تهدى الحيارى.

٥ - ومعنى الإعراض بعد البينات أن يضع الجاحدون أنفسهم حيث وضـــع الجاحدون من مثل "عاد" و"ثمود" فقد دمر الله عليــــهم وللكـــافرين أمثالها.

٦ - ثم يجيء مسك الختام، حديث عن المؤمنين الرافلين فى حلل النعيــــم فى جنات وعيون.

لقد آثر الرسول أن يخلى بين (عتبة) وبين الحقيقة القرآنية التى انقضــــت عليه كالصاعقة ثم أفاق على دقات الحقيقة ليقول لقومه بعد أن عاد إليــــهم: **"لقد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالســـحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش: أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم"**

إن هذا الاعتراف كان ضربة قوية موجهة إلى القوم فى داخلهم ومن ثم كانت موجعة، وأحسب أن هذه الضربة رد فعل للضربة التى نالته من جواب رسول الله ﷺ ، وإنى أفسر ذلك بأن النبى ﷺ عندما جاراه فى الاستماع إلى حديثه، وقال له: قل أسمع، وانتظر عليه حتى أتم كلامه، ثم يقول له: أفرغت؟ ثم يناديه بأحب الأسماء إليه، إن من شأن هذا الأسلوب أن يطمع عتبة فى النبى ﷺ ويتصور أنه سيجيبه إلى عروضه المغرية كما يظن فإذا بالنبى يفاجئه بالرد الحاسم من القرآن الكريم، بكلام معجز وملجم، وكأنى بأبى الوليد كالظمآن الذى رأى سرابا بقيعة فحسبه ماء فلما جاءه لم يجده شيئا، ووجد رسول الله عنده فوفاه جوابه.. إن عنصر المفاجأة فى مثل هذه المواقف له أثر نفسى موجع أشد إيجاع.

هكذا نجح النبى ﷺ فى إحداث ربكة داخل نفوس الأعداء فشغلوا عنه بما قاله وافدهم إليه(١).

نجح أولا فى إعارة الباطل سمعه رغم تفاهته.

قل يا أبال الوليد .. اسمع.

ثم نجح ثانيا فى التخلص من براثن المساومة، ونابت الآيات الحاسمة فى الرد عن رسول الله ﷺ ، فكان تأثيرها كالخلخلة التى جعلت بأس القوم بينهم شديدا، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، كل ذلك فى عرض معجز يأخذ بمجامع القلوب، ويتسلل إلى النفوس رضيت أم أبت بما تضمنه من رد حاسم بأسلوب يفوق أساليب البشر، فيه لمسات مؤثرة، وصور موحية، ولفتات عميقة حتى أوفى بكل ما يلزم بالحق، ويكشف الزيف والباطل، فلا عذر لمعتذر، ولا حجة لمجادل: ﴿**كذلك يضرب الله الحق والباطل أمّا الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض**﴾ (الرعد ١٧).

لو لم يكن النبى ﷺ خبيرا بالنفوس، لما استطاع أن ينهض بدعوته بين قوم متنافرين فيرأب الصدع ويلم الشمل، رغم اختلاف المنازع وتضارب

---

(١) لما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش قالوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. - ثلاث رسائل فى الإعجاز (من رسالة الخطابى ص ٧٣).

الأهواء، ولكنه أوتى من الحكمة وفصل الخطاب ما يجعله يواجه كل ذلك برباطة جأش، وطلاقة لسان، فقد جمع أسلوبه بين عوامل التأثير من عمق المعنى، ودقة التصوير، ووضوح التعبير، وسلامة التراكيب، وعوامل الإقناع من استعانة بالحجة الكاشفة، والبرهان الواضح، والتأكيد المقرر للمعانى، وحسبك به سفيرا عن ربه، داعيا لا يصمت، محاورا لا يغلب، معلما لا يمل، يحس إحساس أمته، ويجد وجدان جماعته لارتباط قلوبهم بقلبه، وشعورهم بوجدانه، ولولا هذا ما بقيت رسالته وعمت، رعاها الله ومدها مد عرشه.

الفصل الثانى

طرق الحوار ووسائل التشويق

طرق الحوار ووسائل التشويق

إن لرسول الله ﷺ طرقا متعددة فى إدارة الحوار، تتفق كلها فى بدئه بعنصر من عناصر التشويق وجذب الانتباه، ولأن عنصر التشويق ذو أهمية كبيرة فى إضفاء الحيوية على الحوار، وضمان استمرار المتلقى فى متابعة الموضوع، وإثارة ترقبه وتوقعاته لنتائج الحوار، وذلك ما يجعل الحوار ثريا مثمرا.

والحوار النبوى حافل بوسائل التشويق والإيقاظ لأن النبى ﷺ خبير بالنفوس، حريص على الوصول إلى تقرير ما يريد فى رفق رحيم وحرص هادف.

وغالبا ما يجعل الرسول ﷺ عنصر التشويق فى بداية الحوار، كأن يبدأ حواره بلفظ غريب يثير التساؤل والاستيضاح، أو بتقديم خبر عجيب تشرئب إليه القلوب وتلتفت إليه الأذهان، أو بتقديم لافتة قصيرة تعجل بالحكم، مما يثير فضول السامعين إلى متابعة الحوار وترقب النتائج، أو بتقديم الألفاظ الدالة على العدد ينسب إليها حكم يثير السامع إغراء به أو تحذيرا منه، ثم يعقبه البيان والتفصيل .. وبغير ذلك مما سنوضحه فيما يلى.

أولا: تقديم جملة تبدو لأول وهلة غريبة المفهوم لدى المخاطب حتى يلفت ذهنه، ويثير اهتمامه بالشأن أو تضمين الجملة جزءا غريبا على السامع فيشده إلى التأمل وطلب الاستيضاح:

ومن شواهد ذلك ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى،

قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟

قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى". (١)

(١) فتح البارى – الاعتصام – ٢٦٣/١٣ (الريان).

قول النبي ﷺ "**إلا من أبى**" استثناء يثير انتباه المخاطبين، فيدهشون ويتعجبون، لأنهم لا يدركون دلالة العبارة التي قالها النبي ﷺ ، ويرون أن ذلك غريبا بالنسبة إليهم، فهم يعرفون أن كل واحد يجب أن يدخل الجنة، ولا يمكن أن يأبى ذلك، وهنا يسألون النبي ﷺ طلبا للاستيضاح والفهم (ومن يأبى يا رسول الله؟) ويجيبهم النبي ﷺ بما يزيل الإبهام لديهم "**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**" فبين لهم أن "إسناد الامتناع إليهم عن الدخول مجاز عن الامتناع عن الإتيان بسببه"(١)

ومن شواهد ما تضمن جزءا غريبا ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ:

قال: "تعوذوا بالله من جُبِّ الحَزَن".

فقالوا:: يا رسول الله: وما جب الحزن؟

قال: وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم في اليوم مائة مرة.

قيل: يا رسول الله: ومن يدخله؟

قال: القراء المراءون بأعمالهم".(٢)

ونلاحظ في الحديث تعمد النبي ﷺ تصعيد المعنى بطريق الحوار، فبدأ ﷺ حواره بأمر غريب استوجب تساؤلا ثم أجاب عنه بما يثير تساولا آخر، حتى ينتهي إلى ما يريد تقريره وغرسه في النفوس من حب الشيء وإجلاله، أو مهابته والنفور منه. يفاجئ الرسول ﷺ أصحابه بذلك الأمر الغريب بالنسبة إليهم - لأنه غيب - فهم لا يعرفون "**جب الحزن**" وذلك من شأنه أن يثير انتباههم ويدفعهم إلى طلب المعرفة والاستيضاح، فيسألون النبي ﷺ وما جب الحزن؟ فيجيبهم بما يصعد انتباههم، ويزيدهم إشفاقا على أنفسهم "**واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة**"

(١) دليل الفالحين ٤١٧/١، ومن مثل هذا الحديث قول النبي ﷺ إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ... وقوله ﷺ: انصر أخاك ظالما أو مظلوما ... وقوله ﷺ : إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه ...

(٢) صحيح الترمذي (الزهد) ٥٩٣/٤، ٥٩٤ (ط الحلبي).

هذا التصعيد فى الترهيب يصعد شعور المخاطبين، ويدفعهم إلى التساؤل ليطمئنوا على أنفسهم، فيقولون: - وكأنهم يستغيثون برسول الله ﷺ - يا رسول الله، ومن يدخله؟

فيجيبهم بما يريد أن يقرره ليتأكد لديهم، ويقر فى نفوسهم **"القراءون المراءون بأعمالهم"**. هل نرى بعد هذا التصعيد فى الترهيب من يرائى بعمله؟

اللهم عصمة بك من الزلل والمراءاة بالعمل.

ثانيا: تقديم الخبر العجيب عند السامع، لعدم جريه على المألوف العام من القواعد والعادات، فتشرئب إليه القلوب متمثلة فى الأسماع، لتدرك ما وراءه طلبا منه عليه السلام لتقرير المعنى:

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

"سبق درهم مائة ألف درهم"؟

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال: كان لرجل درهمان فتصدق بأحدهما، وانطلق آخر إلى عَرَضِ ماله فأخرج منه مائة ألف درهم فتصدق بها"(١).

إن سبق درهم مائة ألف درهم من الأمور العجيبة لعدم جريه على المألوف وقد بدأ الرسول به حديثه ليستثير انتباه صحابته ويستحضر فى نفوسهم العجب فيسألونه عن موطن العجب فيجيبهم بما لا يجعل لمستفسر مطلب.

ومثل ذلك أيضا ما رواه ابن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ:

قال: "إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه"

قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟

---

(١) النسائى - الزكاة - ٤٩

قال: نعم، يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه.(١)

إن العبارة التى قدم الرسول بها حديثه لهى موطن استثارة العجب وهز العواطف، لما تحمل من غرابة. لما نص فى الكتاب والسنة من وجوب حقوقهما، ولما كان مغروسا فى الفطر السليمة أن عاقلا لا يشتم والديه، استفهم السامعون استفهاما إنكاريا مستعظمين أن يحدث ذلك، ولكن الرسول ﷺ أكد لهم حصوله فى صورة غير مقصودة، لا تنقص عن غيرها إثما، فالرجل لم يشتم أبويه، وإنما سب من شتمهما قصاصا وعقوبة، فكان شتمه غيرهما سببا فى شتمهما.

وإذا نظرنا فى تركيب الجملة وجدناها مكونة من جزأين الأول منهما - إن من الكبائر - خولف به عن مكانه، لأنه مسند مقدم وقد أعقب حرف التأكيد "إن" فضلا عما يصوره اللفظ من التحذير، والجزء الثانى وهو المسند إليه (أن يشتم ...) مصدر مؤول من "أن" وما دخلت عليه، وهو محل المجاز الذى يخيل إلى الرجل أنه شتم والديه وما شتمهما، ويصور له شتم آباء الآخرين صورة شتم أبويه، فيعدل عن خطيئته ويصرف عن كبيرته.

ولقد آثر الرسول ﷺ التعبير بالمضارع، ليستحضر الصورة غير الحاضرة فى الأذهان كأنها ماثلة وقت النطق به، ولذلك فزع الصحابة واستنكروا، لتصورهم هذه الصورة القبيحة واقعة فى الحال.(٢)

ثالثا: تقديم الألفاظ الدالة على العدد ينسب إليها حكم يثير السامع إغواء به أو تحذيرا منه ،ثم يعقبه البيان والتفصيل:

ومن شواهد ذلك فى البيان النبوى الشريف قوله ﷺ:

"ثِنْتَانِ مُوجِبَتَانِ"

فقال رجل: يا رسول الله ما، الموجبتان؟

---

(١) فتح البارى ٤٠٣/١٠ (ط بيروت).

(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ٢٠٠ - ٢٠٢ (بتصرف).

قال: من مات يشرك بالله شيئا دخل النار، ومن مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة[١].

ففى البدء بالنكرة المثناة تحيير يدير ذهن السامع، ويستثير انتباهه، فيتطلع متشوقا إلى معرفة ذلك المجهول الذى يحيره، لذلك قال رجل مستفسرا: ما الموجبتان؟ فأجابه الرسول ﷺ بالبيان المفصل "**من مات يشرك بالله شيئا دخل النار، ومن مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة**"

ومن جمال العبارة فى الحديث تقرير المعنى بالمقابلة، وقد أتت فى الحديث طبيعية، فاستوعبت الحكم للمتقابلات إظهارا وإيضاحا لكل من المقامين ترغيبا بأحدهما وترهيبا بالآخر، وهنا يتأكد حكم الضد بضد الحكم، وهذا شأن اقتران كل مرغوب فيه بمقابله - على سبيل المقارنة - حيث يتضح الحسن بقبح القبيح زيادة فى تأكده، فإذا كان هذا طريق التقرير للمعنى بعد ما سبقه من تشويق وإيقاظ، وجد طريقه إلى نفوس المخاطبين وأثر فيها تأثير السحر فى النفوس.

عن أبى ذر ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم،

قلت: خابوا وخسروا يا رسول الله، من هم؟

قال : المسبل، والمنان والمروّج سلعته بالحلف الكاذب".[٢]

ثلاثة ... نكرة منونة مبدوء بها الكلام، لا يعلم معنى تنكيرها لما هى عليه من إبهام، (وبدون شك) إن ذلك الإبهام يثير فضول السامعين إلى معرفة من هم هؤلاء الثلاثة الذين حرموا كل خير، ويزيد من أثر التشويق ما صحبه من التكرار المقرر للإنذار فى مقام الترهيب، لذلك لم يصبر أبو ذر وبادر بالإخبار

---

(١) صحيح مسلم ٩٣/٢.

(٢) صحيح مسلم - اللباس والزينة - ١١٤/٢

عنهم بالخيبة والخسران تصديقا للنبى ﷺ ثم سأل: من هم؟ فأجابه النبى ﷺ ببيان ما أبهم من خبر هؤلاء الثلاثة وهم:

المسبل: يكنى به عن المتكبر المتعالى الذى ينازع الله رداء العظمة.

والمنان : الذى يعطى ما استخلفه الله فيه من الرزق، فينسى أنه وماله ملك لله، ويفسد ما أنفق بالمن والأذى.

والمروج سلعته بالحلف الكاذب، ليقتطع عرضا فانيا ويخسر دينه، لأنه غش أولا، ويروجها باسم الله ثانيا.

ولا يخفى ما فى الإيضاح بعد الإبهام من تقرير المعنى، وتمكينه من نفس المخاطب. ذلك هو التأثير الجاذب لسطوة العدد النكرة يلقى فى أول الحديث، فهو بمثابة المثير الذى يتولد عنه الحوار.

والرسول ﷺ متأثر بأسلوب القرآن الكريم، فقوله: "**لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم**" **مقتبس من قوله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خَلَاقَ لهم فى الآخرة، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾** (آل عمران ٧٧) فهو يوضح معنى الإهمال لا بألفاظ الإهمال ولكن برسم الحركات الدالة عليه، لا كلام ولا نظر ولا تزكية وإنما عذاب أليم. ومتى؟ يوم القيامة!

رابعا: اتخاذ الاستفهام وسيلة لتقرير المعانى:

كأن يطرح الرسول ﷺ سؤالا على المخاطبين قصدا إلى تصحيح بعض المفاهيم، وتقريرا للنافع من القيم والمثل، والابتعاد عن المشين والمعيب. وسواء أجاب المخاطب أم التزم الأدب والحذر، تأتى إجابة النبى ﷺ لتنير العقول، وتطمئن القلوب، وتقنع العقول بمضمون الحوار.

١ - ومن شواهد ذلك قوله ﷺ: "أتدرون من المفلس؟

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وضرب هذا، وأكل مال هذا ..."(١)

ألقى النبى ﷺ هذا السؤال على الصحابة، وهو - لا شك - يعلم الإجابة، ولكنه أراد أن يستثير فضولهم إلى المعرفة، ولو أنه ألقى عليهم المعنى الصحيح للمفلس دون أن يمهد للحوار بهذا السؤال لمر على آذانهم مرورا مؤقتا سرعان ما ينسونه بعد ذلك. وقد استمع النبى ﷺ إلى جواب الصحابة - ويفهم من إجابتهم أنهم شركاء فى هذا المفهوم - دون أن يشير إلى خطأ مفهومهم، وأدلى هو بالإجابة الصحيحة، فكان ذلك مفاجأة لهم ينشط لها الفكر، وينتبه لها الوجدان، مما يجعلهم أكثر تمسكا بمضمون ما تعلموا من نبيهم الكريم، ولاسيما بعد أن تبين لهم من هذا الحوار أن المفلس غير ما كانوا يفهمون، وهذا العرض التمهيدى مطلع موفق، ومدخل سلس الولوج إلى النفوس، إذ يربط السامعين بمضمون الحوار منذ اللحظة الأولى حتى يقر فى نفوسهم، ويصبح سلوكا لهم.

وقد يلقى السؤال أحد الصحابة إلى النبى ﷺ مستفهما عن شىء يجهله أو يرغب فى معرفته - وهنا الرسول مسئول - فيجيبه النبى ﷺ إجابة تثير لديه غرابة وتعجبا، فيتولد عن غرابة الجواب سؤال آخر، ثم يجيب سائله بما يزيل الغرابة والإبهام بعد تشويقه إلى المعرفة، فيقع المضمون من قلبه موقع الرضا والقبول، ومن سلوكه موضع العمل والتطبيق.

من ذلك وقد سُئل ﷺ : أى الأعمال أحب إلى الله تعالى؟

قال: الحالُّ المرتحل.

قيل: وما الحال المرتحل؟

قال: الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل"(٢)

---

(١) صحيح مسلم باب تحريم الظلم ١٣٥/١٦، والترمذى ٣(صفة القيامة) ٦١٣/٤ (الحلبى).

(٢) سنن الترمذى - كتاب القراءات - ٢٨٧٢ وسنن الدارمى - فضائل القرآن - ٣٣٤١

فى هذا الحديث يتعمد النبى ﷺ تصعيد الحوار تشويقا للمخاطبين، فعندما سأله أحد الصحابة عن أحب الأعمال، أجاب بقوله: "الحال المرتحل" وهم لا يعرفون "الحال المرتحل" فاستدعى ذلك منهم انتباها وطلبا للإيضاح، فسألوا: وما الحال المرتحل؟

فأجابهم بقوله: **"الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل"**

أراد الرسول ﷺ أن يرسم صورة للمداوم على تلاوة القرآن (يختتمه ويفتتحه ويتمه ويستأنفه) فشبهه بالمسافر المجد بينما يترل حتى يرتحل، وبينما يسير حتى يترل ... وهكذا دواليك، فهو مستمر على هذه الطريقة، لا يرمى إلى غاية، ولا يقف عند نهاية.

والرسول ﷺ يجعل ذلك العمل من أحب الأعمال إلى الله تعالى، ليغرس حبه فى نفوس المخاطبين.

خامسا: تقديم صيغة التفضيل دالة على عظم العمل أو الثواب أو العقاب ليعرف المخاطب أين تكون مترلته من الخبر:

ومن أمثلة ذلك فى الحديث النبوى ما رواه أبو هريرة إذ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتى به فعرفه نعمه ، فَعَرَفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء، فقد قيل، ثم أُمر بِه فسُحب على وجهه حتى أُلقِىَ فى النار..."**[(١)].

صدر الحديث تفضيل عام، يستحضر قوى النفس المؤمنة لترى من هو ذلك الأول؟ فإذا جاء الخبر والنفس متطلعة إلى معرفته استقر عندها وتأكد، والعبارة مؤكدة بإن، وذلك يجعل النفس تمد البصر، وتقيس أعمالها بمقياسه، حتى تجانب ما عساها أن تكون قد لابسته من صفته.

(١) صحيح مسلم بشرح النووى - الإمارة - باب من قاتل للرياء أو السمعة ١٣/٥٠

وفى قوله ﷺ **"أول الناس"** هذه الأولية أمر ملفت للنظر، مثير للتطلـــع، لأن الأوليات فى أى شأن ذات طبيعة غير عادية فى الغالب.(١)

"يقضى يوم القيامة عليه" حدث خطير رهيب، فى يوم خطير رهيب، يثير فى النفوس شتى الايحاءات الباعثة على الرهبة والترقب(٢).

عن جابر رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

"إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقـا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشـــدقون والمتفيهقون.

قالوا يا رسول الله: ما المتفيهقون؟

قال: المتكبرون"(٣).

يقرر الرسول بالخبر الأول (من أحبكم) منزلة حسن الخلق فى الإســلام، مبينا مكان أحاسن الناس اخلاقا يوم المجازاة، والخبر مؤكد "بإن" وحرف الجر الزائد "من" لأن الأحاسن أخلاقا هم وحدهم الأحب والأقرب جزاء تفضيـل بتفضيل، فإذا لوحظ تقديم المسند على المسند إليه فى العبـــارة زادت طاقـة التأكيد، واشرأبت الأعناق، وانتفضت الروح اشتياقا إلى المحكوم لـــه بهـــذا الشرف، وبتلك السعادة، التى يزيدها امتنانا متعلق أفعل التفضيل "إلى، مـــنى" والعكس بالعكس فى جزاء الفريق المقابل، وهم الاساوىء اخلاقا، فلم يكتف الرسول المعلم ﷺ بالتصريح بالطائفة الأولى عن الثانية، لأن المقام مقام تقريـر وإيضاح وتأكيد للقيم، وهذا يقتضى مع كل هذه المؤكدات الجزئية تـأكيدا معنويا، يفهم من أن معنى الخبر الأول هو لازم الخبر الثانى، وبأن معنى الخـــبر

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ٩٨.

(٢) نفسه ٩٨.

(٣) سنن الترمذى - البر والصلة - ٢/١٩٦، ١٩٧، ومسند أحمد ٤/١٩٤، ودليـل الفالحين ٣/٨٤، ٨٥

الثانى هو لازم الخبر الأول، والتصريح بهما معا كذكر المعنى مرتين، أحداهما لفظا والأخرى لزوما، لزيادة الترغيب والترهيب، وكأنما الرسول ﷺ أراد أن يفتح بابا للحوار، ليزيد من جذب انتباه صحابته الكرام، ويشوقهم إلى المزيد من المعرفة، ليعرف كل واحد مكانه من إمامه وقدوته ﷺ.(١)

سادسا: تقديم صيغة التحذير أو صيغة الإغراء، فإن السامع إذا طرقت سمعه "إياكم" أو "عليكم" انتفض من شواغله، وألقى انتباهه، وبخاصة إذا عرف فى محذره أو مغريه حرص الناصح الأمين:

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

"إياكم والجلوسَ فى الطرقات"

قالوا: يا رسول الله ما لنا بُدّ من مجالسنا نتحدث فيها،

فقال: إذا أبيتم إلى المجلس فأعطوا الطريق حقه.

قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟

قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر"(٢).

"إياكم والجلوس على الطرقات" جمله تحذيرية صدرت بصيغة التحذير "إياكم" تعجيلا بالانذار وإعلان الخطورة، ليتلفت السامع بكل ما يملك إلى المحذر منه.

• "والتعجيل فى هذه الصيغة مستفاد من بنائها على الإيجاز، بحذف الفعل والفاعل لتكون علما بذاتها على الخطر، فإذا روعى أن المحذوف مكرر الحذف، مرة مع الضمير، وأخرى مع (الجلوس) الظاهر المعطوف، تبين حرص المتكلم على السامع بسرعة المبادرة"(٣)

(١) الحديث النبوى ٢٣٤ (بتصرف).

(٢) فتح البارى - المظالم ١٣٤/٥

(٣) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ١٦٥.

والنهى هنا للتنزيه، لئلا يضعف الجالس عن أداء الحق الذى عليه، فقالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس - أى الجلوس فى الطرقات - فأعطوا الطريق حقه، وهنا لابد أن يستوضح الصحابة من رسول الله ﷺ حق الطريق، فقالوا: وما حق الطريق؟ فقال ﷺ: **"غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف النهى عن المنكر"**

"غض البصر" خبر لمبتدأ محذوف للعلم به من الكلام، أى حق الطريق غض البصر، "ليسلم من التعرض للفتنة بمن يمر به من امرأة ونحوها، وكف الأذى أى الامتناع عن إيذاء المارة بقول أو فعل ليسلم المرء من وبال الاحتقار أو الغيبة، ورد السلام إكراما للمارة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إشارة إلى استعمال جميع ما يشرع"(١) من إرشاد وتوجيه، أو نصح أو تنبيه لخطر، أو ترغيب فى خير ... الخ.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ : اتقوا اللّعّانين.

قالوا: وما اللعانان؟

قال: الذى يَتَخَلّى(٢) فى طريق الناس أو فى ظلهم.(٣)

فى هذا الحوار الموجز يهدف النبى ﷺ إلى التحذير من قضاء الحاجة - غائطا أو بولا - فى طريق الناس، أو فى ظلهم، نظرا لما يترتب على ذلك من مضرة وإيذاء صحى ونفسى.

ولكى يقرر النبى ﷺ ذلك الهدف، فلابد أن يهيىء العقول ويفتح القلوب لاستقبال النصح واستيعاب الدرس، فقدم الحوار بجملة تثير الانتباه وتنشط الفكر، فقال: "**اتقوا اللعانين**" عبارة موجزة لكنها أشبهت النغمة العالية

---

(١) دليل الفالحين ٤٧٦/١.

(٢) يتخلى: التخلى هو التفرد لقضاء الحاجة غائطا أو بولا. مختصر مسلم ص ٣٨.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى - الوضوء ١٦١/٣.

المفاجئة فى الاستارة والإيقاظ، ناهيك عما يصوره اللفظ من التحذير تصوير اللافتات والانذارات وزمارات الخطر، وهنا يتساءل الصحابة وكلهم انتباه وتشوق لمعرفة مقصد النبى ﷺ فقالوا: وما اللعانان؟ وكونهم يتساءلون فمعنى ذلك أن التطلع والانتباه بلغ لديهم أقصى درجة، فإذا جاء الجواب تمكن من قلوبهم، فلا ينسونه أبدا، وقد عبر به النبى ﷺ عن السبب، فهو من المجاز المرسل، وفضل التعبير بالمجاز بين، فلو أنه قيل: (إن مما يجلب اللعن التخلى فى طريق الناس أو ظلهم) لما كان للعبارة أى نوع من الإثارة، ولما هزت عواطف المخاطبين فاستفهموا راغبين فى معرفة ما يجهلونه، وربما مر الخبر مرورا عابرا سرعان ما ينسى، لكن حكمة النبى ﷺ وفهمه لطبائع البشر ونفوسهم، تجعله خبيرا بكيفية إصابة الهدف.

"**اتقوا اللعانين**" عبارة تصويرية يصحبها التخييل الذى هو مناط الاهتزازات النفسية تحدث فى النفوس الاثارة والتطلع والرغبة الشديدة فى الأخذ عن رسول الله ﷺ وما يأخذون عنه إلا كل خير.

سابعا: تقديم الوعد الأكيد بالثواب أو الوعيد الشديد بالعقاب، لتقدر النفس قيمة الفعل، فتندفع إليه طلبا، أو تنفر منه هربا:

فمن الأول، ما روته السيدة عائشة – رضوان الله عليها – عن النبى ﷺ.

قال: "طوبى للسابقين إلى ظل الله تعالى".

قيل: من هم يا رسول الله؟

قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوا بذلوه، والذين يحكمون للناس بحكمهم لأنفسهم"(١).

فى هذا الحديث قدم الرسول ﷺ لافتة قصيرة تعجل بثواب السابقين إلى ظل الله، وذلك على سنة البيان الكريم من بعث همة السامع وتشويقه إلى الخير، وهذا من شأنه أن يثير نفوس المخاطبين إلى التطلع إلى معرفة من هم السابقون إلى ظل الله؟

---

(١) الأمثال فى الكتاب والسنة للحكيم الترمذى ٣٠٣.

ويعمد الرسول الكريم إلى ذلك فى مقام التعليم والتهذيب، لأن المسوق بعد الطلب والترقب تتلقاه النفس بشوق شديد، فيثبت فى الذهن، ويتقور فى النفس، وذلك أجدر بألا يتفلت منها.

وقد جاء المهم المراد بيانه بعد أن نشطت له الأذهان، واشرأبت له الأعناق، وصفا يكشف سبب سبقهم إلى ظل الله.

قال الحكيم الترمذى "صاحب هذه الصفة قلبه حى بالله، ونفسه سخية منقادة لله، قد ذلت بحدة الحياء لله، واقفا عقله بعدل الله، يحكم لخلقه بحكمه لنفسه ،فمركبه من أعلى المراكب وأجود الحيوان"(١)

عن عقبة بن عامر الجهنى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ (ونحن فى الصفة) فقال:

"أيكم يحب أن يغدوَ كل يوم إلى بُطحان – أو إلى العقيق(٢) – فيأتى منه بناقتين كَوْمَاوَيْن(٣) فى غير إثم ولا قطع رحم؟"

فقلنا: كلنا يا رسول الله نحب ذلك.

قال: "فلأن يغدوَ أحدُكم إلى المسجد فيتعلم – أو يقرأ – آيتين من كتاب الله – عز وجل – خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل"(٤)

فى هذا الحديث يوجه النبى ﷺ أنظار صحابته إلى فضل تعلم القرآن وتلاوته، فقدم المعنى فى ثوب جديد من المطارحة، ليكون أدعى إلى القبول

---

(١) الأمثال فى الكتاب والسنة ص ٣٠٣ لأبى عبدالله محمد بن على الحكيم الترمذى تحقيق على البجاوى. دار التراث.

(٢) بطحان والعقيق موضعان.

(٣) الناقة الكوماء: العظيمة السنام.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى ٨٩/٦، وسنن أبى داود ٩٦/٢.

والتأثر به، فنراه يعقد موازنة بين أمر واضح نفعه للناس، وأمر آخر لا يعـرف نفعه وقدره إلا الخاصة.

وعلى عادة النبى ﷺ إذا أراد أن يقرر شيئا، يمهد له بحوار شيق، ويبـدأ الحوار بما يثير شوق المستمع، ويستدعى تطلعه إليه، كما نرى فى هذا الحوار.

فقوله ﷺ: **"أيكم يحب أن يغدو...؟"** سؤال عن رغبة نفسية من حـب الخير للذات، وكل نفس على ذلك حريصة، حتى إذا كان الجواب بالإيجاب، دلهم على ما يحقق لكل واحد فوق ما يحب، فقرر أن ثواب التلاوة الخالصـة لآيتين من القرآن، يفوق امتلاك المرء ناقتين كوماوين مكتنزتين باللحم مـن طريق حلال، لا إثم فيه ولا قطع رحم، وهذا أمر ثابت صحيح، لأن ثـواب تلاوة القرآن باق ينفع صاحبه فى الآخرة، أما الأموال والنوق فمتاع زائل.

واختيار النبى ﷺ الناقة الكوماء السمينة للملك اختيار للأعلى من أنـواع ما يمتلكه المخاطبون، يعرفونه من حال بيئتهم وكرائم أموالها.

وأدق من ذلك تصعيدا لقيمة المشوق إليه، احتراسه ﷺ فى وصف الناقتين بقوله (**كوماوين فى غير إثم ولا قطع رحم**) لأن الامتلاك دون إثم أو قطـع رحم من تمام الأمن فى حياة المالك، وكمال النعمة فى امتاع صاحبها.(١)

وتصعيد الثواب واضح فى قوله ﷺ: **"وثلاث خير له من ثلاث، وأربـع خير له من أربع...الخ.**

ومن الثانى: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ.

قال: "رغم أنفه. رغم أنفه. رغم أنفه!

قيل: من يا رسول الله؟

قال: "من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة".(٢)

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ٣٦٧ (بتصرف).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى - البر والصلة - ١٦/١٠٩.

قدم الرسول ﷺ حديثه بجملة دعائية بالفعل الماضى تأكيدا للوقوع، ولـو لم يكررها الرسول ﷺ لكفى بصاحبها خيبة وخسارا ... وقد أبهم النبى ﷺ بيانه فأضمره غائبا قبل الذكر، حتى يستثير النفس بالانتباه إلى البيان، من يكون ذلك الراغم؟ وهو يزيد ذلك توكيدا من قبل اللزوم، فيجعل إدخاله الجنة أو عدم إدخاله مرتبطا بالوالدين، وكأنهما يملكانه.

ثامنا: استخدامه الإشارة أو الفعل مصاحبة للقول لما فى ذلك من دلالة عميقة فى إيضاح المعانى:

وهذه الوسيلة من وسائل التشويق فى أداء الحديث، نخصها بشىء من التفصيل لما للإشارات والحركات والأفعال والانفعالات من دلالة عميقة فى إيضاح المعانى وترسيخها فى نفس المخاطب، لأن فى الإشارة أو الفعل لفتا للأنظار، وتنبيها للغافل، وعونا على الحفظ والتذكر، فالإشارة أحد شقى الكلام، ومصاحبتها للتعبير إبانة للفكرة، وتحديد للمقصود، ومزيد تعيين له.

والنبى ﷺ له اهتمامه البالغ بشغل الحواس مع العقل فى لباقة تحول المتلقى عنه بكل ما فيه إليه.

وقد يكون الفعل قبل العبارة لافتا ومشوقا، فإذا تبعه البيان ازداد الغرض تقررا لا يسهل فى العادة نسيانه، لارتباط الإشارة أو الفعل بالقول بالمناسبة بالموقف.

وتفسير ذلك أن الفعل أو الإشارة توجه التأثير إلى العيون، والعبارة توجه التأثير إلى القلوب، فإذا صاحبت الدلالات المنظورة الدلالات المسموعة تضاعف التأثير وازداد الغرض تقررا.

١ - عن بريدة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ : "هل تدرون ما مَثَلُ هذه وهذه؟ (ورمى بحصاتين)

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هذاك الأمل، وهذا الأجل.(١)

صدر الحديث بجملة استفهام نيطت بعمل حسى مشاهد، والسؤال بها عن مجهول مقيس على هذا المتميز المعلوم، حصاتين رمى بأحداهما بعيدا، وبالأخرى قريبا.

إنها وسيلة إيضاح حسية جذبت النظر إلى فعله ﷺ تلاها السؤال عن الممثل له المجهول زيادة فى التشويق إلى طلبه.

هل ينسى المخاطب أو السامع الشاهد مكان الحصاتين قربا وبعدا؟

وهل ينسى أن المشبه بالحصاة القريبة الأجل فى قربه، وبالحصاة البعيدة الأمل فى بعده؟

"ما أدق البيان النبوى فى اختيار لفظى الإشارة مطابقين للبعد المساف (هذاك) للأمل و(هذا) للأجل، وأدق من ذلك إلحاق الأمل بكاف الخطاب لشدة وعى المخاطب له، وتمثله حاضرا دائما، وترك ذلك مع الأصل، مطابقة لعدم التنبيه إليه، لغياب صورته فى زحمة الآمال".(٢)

وملاك ذلك كله، مطابقة البعد الزمانى للبعد المسافى، نلحظه عند النطق بالكلمتين (هذاك) تستغرق زمنا أطول فى نطقها من الزمن الذى تستغرقه الكلمة الأخرى (هذا)، وفى ذلك إشعار بالبعد الزمانى الذى يطابق البعد المسافى، وكلاهما يطابق المعنى والواقع، أليس هذا من مطابقة المبنى للمعنى؟ أليس هذا دليلا على دقة العبارة، واختيار الكلمة الدقيقة المناسبة فى موضعها المناسب؟

إن إيقاظ المخاطب بتلك الطرق من تصوير بالألفاظ وعرض للمعنى فى صورة مشهد حى يتضمن كل ألوان التأثير، من وسيلة إيضاح حسية مشاهدة، إلى قياس التمثيل، مع حركات ترى بالعين، وتصور المعنى بمنطوقها،

---

(١) الترمذى - الأمثال - ٢/٣٨٥ وابن ماجه - الزهد - ٢٧

(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ٣٦٨.

وتوحى للمستمع الدلالة بجرسها، كل ذلك من خلال حوار موجز سريع، قصير الجمل، مركز الكلمات، يبعث نشاط المخاطب على المتابعة والتعلم، وإن التعلم بتلك الطرق ليبلغ المعجزة فى البيان والإيضاح، وتقريب المعنى إلى أذهان المخاطبين وتقريره فى نفوسهم.

٢ - عن سمرة بن جندب قال: "كنا مع النبى ﷺ نتداول من قصعة من غَدْوَةٍ حتى الليلْ تقوم عشرة، وتقعد عشرة.

قلنا: فما كانت تُمَدُّ؟

قال: من أى شيء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من ههنا (وأشار بيده إلى السماء).(١)

فى هذا الحوار يستخدم النبى ﷺ الإشارة لما فيها من مزيد تعيين وتخصيص، ولفت لانتباه المخاطبين، فالصحابى الذى يسأل متعجبا عن مصدر مدد القصعة، مما يسبب عدم نفادها رغم تداول الناس عليها بكثرة عبر عنها بقوله (تقوم عشرة وتقعد عشرة) فيجيبه النبى ﷺ إجابة المؤمن الواثق بإمداد السماء **"ما كانت تمد إلا ههنا"** مشيرا بيده الشريفة إلى السماء، يكنى بذلك عن الله عز وجل، الرازق الوهاب، والعبارة التى أجاب بها النبى ﷺ موجزة مؤكدة، هى أسلوب من أساليب التوكيد (أسلوب قصر) طريقه النفى والاستثناء، فقد قصر الإمداد على كونه من السماء، وتقييد الإمداد بالظرف المكانى (ههنا) مع الإشارة إلى السماء فيه مزيد تعيين واختصاص، وقصر المدد على الله ﷻ ، وفى بناء الفعل (تمد) للمجهول تعظيم لشأن الماد ﷻ .

٣ - عن جابر بن عبدالله أن النبى ﷺ قال: "لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت، لم أَسُقِ الهَدْىَ، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فَلْيَحِلّ وَلْيَجْعَلها عمرة، فقام سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبد؟

---

(١) الترمذى/ المناقب ١٩٢/٣.

فشبك رسول الله ﷺ واحدة فى الأخرى، وقال: دخلت العمرة فى الحج، دخلت العمرة فى الحج، لا، بل لأبدٍ أبد"(١)

يريد النبى ﷺ أن يبين لصحابته جواز فعل العمرة فى أشهر الحج، خلافا لما كان شائعا أو مزعوما فى الجاهلية من امتناع العمرة فى اشهر الحج، فأراد أن يؤكد لهم ذلك ويبطل ذلك الزعم، فيقول لهم: **"فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة"** وكان ذلك فى أشهر الحج فلما سأله سراقة: ألعامنا هذا أم لأبد؟ فأجابه مؤكدا أن ذلك لأبد.

وصاحب قوله المكرر الإشارة المنظورة، بأن شبك أصابعه واحدة فى الأخرى، وقال: دخلت العمرة فى الحج، دخلت العمرة فى الحج، لأبد أبد"

كم وسيلة لتقرير المعنى اجتمعت فى قول النبى ﷺ؟

التكرار فى قوله: دخلت العمرة فى الحج، **والقصر** بطريق العطف ببل، مع **تكرار** "أبد أبد"، ويعضد هذا التقرير **بالإشارة الواضحة**، حيث شبك النبى ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى، إبانة للفكرة، وتحديدا للمقصود، ولتكون الإجابة أوقع فى نفس السائل.

ومما يلحق بالإشارة المعبرة، الحركة اللافتة، أو الانفعال المؤثر، أو غير ذلك مما يملأ نفوس السامعين إشفاقا وحذرا، فقد كانت تظهر على وجهه ﷺ حرارة إخلاصه فى إلقاء موعظة، أو التحذير من شىء خطير، أو تقرير أمر مهم، فاللجوء إلى الحركة اللافتة أو ظهور الانفعال المؤثر، كل ذلك بمثابة دق الأجراس المنبهة والباعثة على نشاط الفكر، وتيقظ المشاعر، وتفتح القلوب، فيستطيع المتحدث أن يلمس أوتار التأثير، ويصل إلى شغاف القلوب، وإذا وصل المتحدث بالمخاطبين إلى هذا الحد من تيقظ الفكر، وتفتح القلوب، هفت إليه النفوس تأخذ عنه النصح والتوجيه، أخذ المحل الظامىء من الغيث الدافق.

---

(١) فتح البارى - الحج - ٧٠٩/٣ وانظر مسلم ٢٢٧/٨ (دار الكتب العلمية).

٤ – عن أبي هريرة رضى الله عنه قال:

قال ﷺ: "ألا انبئكم بأكبر الكبائر"؟ ثلاثا.

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: الاشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وكان متكئـــا فجلس.

فقال: ألا وقولُ الزور وشهادةُ الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.(١)

فى هذا الحوار يريد النبى ﷺ أن يظهر ما يعنيه من تشديد النكير على المزورين، "لسهولة وقوع الناس فيه وتهاونهم به، والحوامل عليه كثيرة جدا كالعداوة والحسد، فاحتيج إلى الاهتمام بشأنه، لأن مفسدته متعدية إلى الغير(٢)

ولكى يحقق النبى ﷺ هدفه اتخذ الحوار وسيلة إلى غايته، فمهد بســـؤال لافت للأذهان، مصدر بأداة الاستفتاح "ألا" التى يؤتى بها فيما يهتم بـــأمره، فكيف وقد كرر السؤال ثلاث مرات؟ إن فى ذلك تهيئة للأذهان، واستيجاشا للأحاسيس، وقسرا لانتباه الخاطبين، ليتوجه كل بأحاسيسه كلـــها لرؤيـــة وسماع ما يلقى إليه.

"ولما كانت الكبائر (الاشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس...) مقررة بالكتاب، مقررة بالسنة، فقد اكتفى ﷺ بالعطف بينها، لأنها ليست كل المقصود، ولا أهم المقصود لظهورها، فجعلت كالتمهيد لما يليها."(٣)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٨١/٢، ٨٢ ، فتح البارى ٤١١/١٠ (ط بيروت).

(٢) دليل الفالحين ١٨١/٢.

(٣) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ٨٣.

يقول الصحابى (وكان متكئا فجلس) ثم قال: "ألا وقـــول الـــزور ألا وشهادة الزور..."

إن اعتدال النبى ﷺ من الاتكاء إلى الجلوس لمما يعبر عن اهتمام مفـــرط، أغنت فيه الحركة عن أفصح التعبيرات، وأشد ما تكون الحركات قوة وظهورا حين تثور النفس وتضطرم العواطف، فتنفجر من اللسان والجوارح والملامـــح، حتى لنتصور مدى ما صعد إليه اهتمام النبى ﷺ ، نتصوره غاضبـــا، جـــاهرا بالصوت، محمر الوجه، كأنه نذير بين يدى عذاب شديد.

"وإن تكرار النهى عن قول الزور وشهادة الزور عقب هذه الانتفاضة، لمما يدل على أنها كبيرة فارقت الكبائر الأولى، مع ما فيها من الشرك بالله، فارقتها بأنها سبقت بحركة تفسر الانتباه، وبأداة تساوق العمل فى مغزاه وهى "ألا"(١)

إن تكرار النهى عن قول الزور على هذه الحال، لمما يجعل المزور يـــذوب خجلا، وكأن ألفاظ الحديث تنهال عليه كالقذائف المروعة.

إن الصحابى وإخوانه ﷺ أجمعين قد أخذوا من حالة النبى ﷺ غاضبـــا، فتمنوا لو سكت شفقة منهم على رسول الله ﷺ، وكراهيـــة لمـــا يزعجـــه، وخشية على أنفسهم من غضب النبى ﷺ أو أن يجرى على لسانه ما يوجـــب نزول البلاء عليهم.

أترى الناس يعرفون هذا التأكيد البالغ، وهذا التقرير العجيـــب، بهـــذه الصورة العجيبة التى جعلت الزور فوق الشرك؟

اللهم عصمة بك من الزور والشرك وعقوق الوالدين.

ويلحق بهذا سكتاته ﷺ بين أجزاء القول بوجه ملحوظ.

نقل ابن حجر عن القرطبى قوله ﷺ فى خطبة حجة الوداع: أى يوم هذا؟ .. الخ.

---

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ٨٣.

قال القرطبى: "سؤاله ﷺ عن الثلاثة[١]، وسكوته بعد كل سؤال منها، كان لاستحضار فهومهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرون عنه، ولذلك قال بعد هذا: "فإن دماءكم .. إلى آخره" مبالغة فى بيان تحريم هذه الأشياء.[٢]

وأكبر ظنى أن المخاطب فى مثل هذه التجربة يصل إلى أعلى ما لديه من الإشفاق والانتظار والتوجس، حيث يرتبط بكل قواه بالمتكلم المسيطر على حسه، ولاسيما أن المتكلم رسول الله ﷺ وكلهم يعلم أنه الناصح الأمين.

وهنا نلحظ بلاغة سكوته ﷺ فقد يكون السكوت رغبة فى استحضار قلب المخاطب وعقله، وقد يكون رغبة فى الإيجاز، أو غير ذلك. ولقد جعل ابن المقفع من السكوت بلاغة، فعندما سئل : ما البلاغة؟ فقال: اسم لمعان تجرى على وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع .. الخ[٣]

تاسعا: ومن دواعى التشويق واسترعاء انتباه المخاطب فى حوار النبى ﷺ ضحكه المفاجىء أو بكاؤه دون أن يعلموا سببه:

- عن أنس رضى الله عنه قال: ضحك رسول الله ﷺ

فقال: "هل تدرون مما أضحك؟"

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: من مخاطبة العبد ربه، فيقول: يارب: ألم تجرْنى من الظلم؟

فيقول: بلى.

فيقول: إنى لا أُجيز اليوم على نفسى شاهدا إلا منى.

---

(١) يقصد بالثلاثة اليوم والشهر والبلد التى وردت فى الحديث مسئولا عنها.

(٢) فتح البارى ١٦٨/١ - انظر الحديث النبوى ٧٨، ٧٩.

(٣) العمدة ٢٤٣/١.

فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، والكرام الكاتبين عليك شهودا.

قال فَيُخْتَم على فِيه، ويقال لأركانه انطقى، فتنطق بعمله، ثم يُخَلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْدًا لَكُنّ وسُحْقًا، فَعنْكُنّ كنت أُنَاضِل"(١)

إن من دواعى التشويق فى هذا الحوار ضحك النبى ﷺ ضحكا مفاجئا دون أن يعلموا سببه، والمعروف أن ضحكه ﷺ كان تبسما - وبعد أن انتبهوا سألهم عن أمر يجهلونه، هل تدرون مما أضحك؟ زيادة فى التشويق واستحضارا للقلوب، وهم أعقل من أن يجيبوا بما لم يعلموا، فقالوا: الله ورسوله أعلم.

وهذه الإجابة منهم مع ما فيها من نفى علمهم، إقرار لعلم الله ورسوله، وإظهار لحاجتهم إليه ليعرفوا منه ما يجهلونه، وذلك تأدب مع رسول الله ﷺ حثنا القرآن عليه.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يَدَيِ الله ورسوله**﴾ (الحجرات ١).

والحديث يتناول قصة الغيب المرتقب، وهى قصة كل البشر، لأنها مصير كل حى، وينبغى الإعداد له قبل المباغتة، لذلك فتنبيه المخاطب إليها بتلك الطريق دقة تبلغ المعجزة فى طريق التعليم.

فإذا وضعنا فى الاعتبار أنها قصة الغيب المرتقب، فمن الأولى أن يمهد لها هذا التمهيد المؤنس للنفس لتترل من النفس مترلة العظة والعبرة.

وليعلم الإنسان أن أعضاءه ستشهد عليه بما عمل يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**يوم تشهد عليهم ألسنتُهم وأيدِيهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون**﴾ (النور ٢٤).

---

(١) صحيح مسلم - الزهد - ١٨/١٠٤، ١٠٥

وقال أيضا: ﴿**ويوم يُحْشَرُ أعداءُ الله إلى النار فهم يُوزَعون. حتى إذا مـــا جاءوها شَهِدَ عليهم سمعهم وأبصاراهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كـــلَّ شـــىءٍ وهـــو خلقكم أولَ مرة وإليه ترجعون**﴾ (فصلت ١٩-٢١).

- عن على ﷺ قال: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلـــع علينا مصعب بن عمير - رضى الله عنه - ما عليه إلا بُردة مرقوعة بفـــرو، فلما رآه ﷺ بكى للذى كان فيه من النعمة، ثم قال:

كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حُلَّة، وراح فى أخرى، ووضعت بـــين يديه صفحة ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟

قالوا: يا رسول الله، نحن يومئذ خير منا اليوم، نكفى المؤنـــة ونتفـــرغ لعبادة الله.

فقال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ".[١]

إن من دواعى التشويق فى هذا الحديث بكاء النـــبى ﷺ دون أن يعلـــم الصحابة سبب بكائه، ثم يبتدئهم بهذا الاستفهام المشوق "كيف بكـــم...؟" يزيد من عنصر التشويق فيه التصوير بالوصف، وذلك يصعد انتباه الصحابـــة، فتتعلق أنفاسهم بقول رسول الله ﷺ. ويجيب الصحابة: **نحن يومئذ خير منـــا اليوم.** ولكن الرسول يفاجئهم بقوله: "**بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ**".

إن عنصر المفاجأة هنا له تأثيره على زيادة التشويق لدى الصحابة، ويزيـــد من عنصر التشويق، تركيب العبارة وبلاغتها، حيث استخدم الرسول الكـــريم أفعل التفضيل (خير) مسندا فى الجملة تصعيدا للمعنى، وزيادة فى قسر انتبـــاه المخاطبين، وذكر المفضل عليه مع كل منهما -وهو أمر يبلغ الغاية - تعجيلا لالتفات السامع وإسراعا باهتمامه، ولعل النبى ﷺ يقصد من وراء ذلـــك أن

---

(١) سنن الترمذى - صفة القيامة والرقائق والورع ٦٤٧/٤ (ط الحلبى).

يبعث المسرة والطمأنينة إلى قلب مصعب، وليقيم من الموازنة أمام الصحابة ما يجعلهم يتجهون إلى أفضل سبيل.

﴿قل هذهِ سبيل أَدْعُو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ [يوسف ١٠٨]

عاشرا: عرض بعض الأحاديث التى تضمنت قصصا قصيرا:

ولا يخفى ما للقص من أثر فى النفوس يواكب فطرتها فى مدارات الحياة، ولا تخلو قصة من حوار، فالحوار دعامة القصة، وأساس أصيل فيها، يشد انتباه السامع فى متابعة للأحداث حتى نهاية القصة، فيتقرر فى نفسه الهدف دون أن يفرض عليه.

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال:

قدم على رسول الله ﷺ بِسَبْيٍ فإذا امرأة من السبى كانت فقدت صبيها، وتضررت باجتماع اللبن فى ثدييها، فكانت تحلب ثدييها تسقى، وإذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فأرضعته ليخف عنها، فلما وجدت صبيها بعينه أخذته فالتزمته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبى ﷺ: "أَتَرَوْنَ هذه طارحةً ولدَها فى النار؟"

قلنا: لا وهى تقدر أن لا تطرحه.

فقال: "للهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها"(١).

هذا الحديث يروى قصة أم أسيرة فقدت رضيعها فى أحداث الحرب، فكان نتيجة ذلك أن امتلأ ثدياها باللبن، فتسبب لها فى الألم .. ولكى تخفف من ذلك الألم كانت تفرغ ثدييها، وإذا رأت صبيا رضيعا فى السبى أخذته فأرضعته .. وبينما هى كذلك، فإذا بها تجد رضيعها بعينه، فسارعت إليه فالتزمته وألصقته ببطنها ترضعه من ثديها، وتفرغ له حنانها.

---

(١) فتح البارى - كتاب الأدب - ١٠/٤٤٠ (ط الريان)، ومسلم - كتاب التوبة باب سعة رحمة الله - ١٧/٧٠.

انه مشهد إنسانى مؤثر، وصورة واقعية تهز النفس هزا عنيفا، يراه الناس بأعينهم، ويعيشونه بأحاسيسهم ومشاعرهم، وهنا - وقد بلغ الشعور الإنسانى أقصاه - يبادر النبى ﷺ بقوله: **"أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟"**

سؤال مثير للدهشة .. هذه التى وجدت وليدها الرضيع بعد فقدان .. والتى التزمته وألصقته ببطنها .. والتى لو استطاعت أن تفديه بنفسها لفعلت .. هل تطرحه فى النار؟

كلا .. وهكذا كان الجواب أن "لا" .. وهنا يقرر الرسول الفكرة ويلقى بالهدف من الحوار **"لله أرحم بعباده من هذه بولدها"**

انها موازنة بين أمرين: **أحدهما** يراه المشاهدون لوحة واقعية حية، تجسدت فيها الرحمة بكل معانيها، **والثانى** أمر غيبى يريد الرسول تقريره .. فكانت هذه الحادثة والتعليق عليها، أقدر فى التعبير عن هذا الأمر من لغات الدنيا.

ولابد من الإشارة إلى العامل النفسى الذى أحاط بالحدث، فجعله أكثر إثارة .. هذه الأم التى وقعت فى السبى، والتى فقدت رضيعها بسبب أحداث الحرب والفوضى، فاجتمع عليها ذل الأسر، وفقد الولد، واحتقان اللبن فى ثدييها .. إن هذا ليجعلنا نعيش فى جو نفسى متوتر، نشفق فيه على هذه المرأة ونرثى لحالها.

ويبرز العامل النفسى فى إقبال هذه المرأة على أى وليد تعوض به نفسها عن وليدها، وتطفىء لوعتها، وتلقمه ثديها، لتخفف عن نفسها وعن ثدييها .. وفى هذه اللحظة تقع عيناها على وليدها بعينه فتسرع متلهفة إليه تضمه إلى صدرها، وتلصقه ببطنها، وترضعه ثديها، وتفرغ له حنانها.(١)

هذا التصوير المقطوع النظير، المجسم للرحمة فى أعلى درجاتها، والذى يظن المرء معه أن رحمة الدنيا قد جمعت فيه، كان أداة فنية رسخت الفكرة، وقررت المعنى فى نفوس الصحابة **"لله أرحم بعباده من هذه بولدها"**.

---

(١) التصوير الفنى فى الحديث النبوى ٨٦ - ٨٨ (بتصرف).

قول بليغ موجز، مفعم بالرحمة، كما هو مفعم بالبلاغة، شديد الإقناع والوصول إلى القلوب، كما هو شديد التقرير والتوكيد .. وإن لذلك عندى إيضاحا:

أراد الرسول الكريم ﷺ أن يقرر أمرا عظيما، وهو أن رحمة الله بعباده تفوق أى رحمة، فاستغل فرصة هذه الواقعة التى تعد فى معرضها صورة تمثيلية عجيبة، لما اشتملت عليه عناصرها من غرابة، ولهذه الغرابة، كان الخبر محتاجا إلى تأكيده، فكان منه أن يسبق بلام الابتداء، تعجيلا لالتفات السامع، وإسراعا باهتمامه، وقد استخدم النبى ﷺ أفعل التفضيل مسندا فى الجملة الابتدائية، تصعيدا للمعنى وزيادة فى قسر السامع على الانتباه.

ومن المقرر فى البلاغة أن ذكر المفضل عليه بعد اسم التفضيل مع المفضل – وهو أمر يبلغ الغاية فى جنسه – إعلاء لشأن المفضل السابق، وهو المسند إليه المرتكز على اللام، فالخبر كله طردا وعكسا من جهة التقرير والتأكيد كالحلقة المفرغة، وهذه بعض أسرار البيان النبوى فى هذه العبارة الموجزة.

إن تعليق الرسول ﷺ على الموقف رسخ الحكم فى أذهان الصحابة، وما كان له أن يرسخ ويتقرر لو ألقى فكرة مجردة، كذلك لم يكن التعليق تقريرا مباشرا، بل كان فى صورة حوار حيوى هادف .. وناهيك عما للحوار من أثر فى تشويق النفوس، وتنشيط الأذهان.

الفصل الثالث

التركيب في الحوار النبوى

- التعريف والتنكير.
- التقديم والتأخير.
- الفصل والوصل.
- من صور خروج الكلام على مقتضى الظاهر.
  أولا: وضع المظهر موضع المضمر.
  ثانيا: وضع المضمر موضع المظهر.
  ثالثا: التعبير بلفظ المضارع وإرادة الماضى.
  رابعا: التعبير بلفظ الماضى وإرادة المضارع.
  خامسا: استعمال صيغة الماضى بمعنى الطلب.
  سادسا: استعمال صيغة المضارع بمعنى الطلب.
  سابعا: التعبير بالسبب عن المسبب توسعا.
  ثامنا: التعبير بالمسبب عن السبب.
  تاسعا: التغليب
  عاشرا: أسلوب الحكيم
  حادى عشر: إيثار لفظ على آخر.
- خروج الجملة على مقتضى الظاهر.
- الاستفهام فى الحوار النبوى.
- الاستفهام والمعانى المجازية فى الحوار النبوى.
- الإيجاز فى الحوار النبوى.

(إيجاز القِصَر. - إيجاز القَصْر. - إيجاز الحذف.)

- الإطناب فى الحوار النبوى.

التعريف والتنكير

أولا: التعريف:

هو التمييز، هو الإفراد، هو التخصيص بعد التعميم، هو أن يكون شىء ما محددا بين المتكلم والمخاطب، فيدور حوله الكلام.

أولا: التعريف بالضمير:

١ - من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء ..

قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟

قال: هم قوم تَحَابُّوا بِرُوحِ الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يَتَعَاطَوْن "(١)

فالضمير "هم" مبتدأ معرفة أسند إليه الخبر "قوم" نكرة خصصت بالوصف بالجملة المضارعية (تحابوا فى الله) - ما أسماه من تحاب - إنه فى الله وبالله ولله، لا لمصلحة ولا لقرابة ولا لعلاقة نفعية، لذلك احترس بقوله (على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون..."

٢ - سأل النبى الصحابة: "ما الذى تخوضون فيه؟ فأخبروه.

فقال: هم الذين لا يَرقُون ولا يَسترقُون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم.

فقال: أنت منهم..."(٢)

ثانيا: العلمية:

---

(١) سنن أبى داود - البيوع - ٣/٣٩١.

(٢) صحيح مسلم - الإيمان - ٣/٩٠ وفتح البارى - الرقاق - ١١/٤١٣

لذكر الاسم أثر كبير فى استدعاء كل ما يحمله المخاطب تجاهه من تقدير أو غيره.

١ - جاء فى حديث المرأة المخزومية قوله ﷺ: **"والذى نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يَدَهَا"**(١)

هنا يؤكد النبى ﷺ نزاهة الإسلام وعدالته التى لا يستقيم أمر المجتمع إلا بها، فلا شفاعة فى حدود الله لجاه أو شرف، وصلة النبوة بين محمد ﷺ وبين فاطمة ابنته لا تحرك رأفة النبى ﷺ فيعفيها من إقامة الحد عليها بقطع يدها، إن هى سرقت وحاشاها ذلك.

وإتباع الاسم العَلَم "فاطمة" بالبيان - بنت محمد - له قيمة كبيرة فى تقرير مضمون الكلام، فهو لا يدع مجالاً للشك فى تحديد أعلى صلة بين الحاكم والمحكوم عليه، ففيه لفظ النبوة، ثم هى مضافة - على الالتفات - إلى الاسم الظاهر "محمد" دون ضمير المتكلم، لأنه أشد تحديداً لمدلوله فى مقام الترهيب والمهابة، على العكس من نسبة فعل القطع إلى الضمير، لأن ذلك أبلغ فى الدلالة على مباشرة الفعل وأسرع فى حسم المواقف.(٢)

٢ - **من حديث معاذ بن جبل، قال معاذ للنبى ﷺ : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار، قال: لقد سألتنى عن عظيم، وإنه لَيَسِيرٌ على من يَسَّره الله عليه ..."**(٣)

ففى قول النبى ﷺ : "وإنه ليسير على من يسره الله عليه" لفظ الجلالة مشعر بعظمته سبحانه، لأن المقام مقام تعظيم، والألوهية مقتضية لأن يكون تيسير الطاعات منه سبحانه.(٤)

---

(١) فتح البارى - الحدود - ٨٧/١٢ (ط بيروت).

(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ١٠٧.

(٣) سنن الترمذى - الإيمان - ٣٢٨/٢ وابن ماجه - الفتن - ٣٥٩/٢.

(٤) التبيان ٥٢٧.

ثالثا: التعريف بالموصولية:

الأسماء الموصولة أداة من أدوات التعريف لأنها تشير إلى معهود معـــروف لدى المتكلم والمخاطب.

١ - عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس، فـــترده اللقمـــة واللقمتـــان، والتمـــرة والتمرتان.

قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟

قال: الذى لا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيه، ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يَسألُ الناسَ شيئا"(١)

يريد النبى ﷺ أن يعلم الصحابة معنى جديدا، ويكشف لهم عن حقيقـــة المسكين التى يجهلونها، فعندما قال: "ليس المسكين بهذا الطـــواف..." وهـــو المعنى الذى يتصورونه كان هذا النفى مفاجأة لهم، لذلك قالوا: فما المســـكين يا رسول الله؟

فأجابهم بقوله: "الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له ...."

فنلحظ بلاغة النبى ﷺ فى استخدام الموصول الاسمى "الذى" لأنه يتسع بـه مجال استيعاب الصفات، والإفضاء بما فى النفس من معـــانى الموصـــوف، إذ يكون وصلة إلى ما يستتبع من جملة الصلة التى قد تتعدد متعلقاتهـــا بـــأجزاء تركيبها، تربية للفائدة، وتدعيما للمضمون. فأعطى النبى ﷺ المسكين أوصافا ميزته أكمل تمييز، فهو الذى لا يجد غنى يغنيه، أو ما يسد حاجته، وفى الوقت نفسه لا يدرى الناس بحاله، ولا يفطنون له فيتصدقوا عليه، وهو متعفـــف لا يسأل الناس شيئا.

ونلحظ الصلة فى الجمل الثلاث التى استوعبت صفات المسكين، جمـــل فعلية مضارعية منفية بلا، ولا يخفى ما فى دلالـــة المضـــارع مـــن التجـــدد

---

(١) صحيح مسلم - الزكاة - ١٢٩/٧، فتح البارى - الزكاة - ٣٤١/٣.

والحدوث، وتصويره الماضى والمستقبل صورة الحاضر الماثل، وناهيك عمـــا تصوره الجمل الثلاث من تصعيد لمعنى الحرمان الذى يعيشه المسكين ويعـــانى منه، وفى ذلك دلالة على علية الاستحقاق.

يضاف إلى ذلك أن الوصف الأول للمسكين جـــاء فى ســـياق النفـــى، والوصف الثانى جاء فى سياق الاثبات، ليتميز الفرق بين المعنيين بهذه المقابلـــة الجيدة، وليتقرر المعنى فى نفوس المخاطبين، ولا يغيب عـــــن بـــالهم حقيقـــة المسكين كما بينها النبى ﷺ.

٢ - يروى أنس ﷺ كان النبى ﷺ فى سفر، فجعل القوم يرفعون أصواتهم بالدعاء، فقال لهم النبى ﷺ "... إن الذى تدعونه بينكم وبين أعناق رِكابكم"(١)

فالموصول هنا يراد به الله ﷻ ، وهو يفيد التعظيم والإجلال له ســـبحانه، وأنه قريب من عباده يجيب من دعاه. وقد عبر عن هذا القرب بقوله "بينكـــم وبين أعناق ركابكم" فهى من ألطف الكنايات النبوية الـــتى تصـــور المعـــنى بصورة من واقع البيئة.

٣ - "أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل يوم القيامة؟
قالوا: الله ورسوله أعلم.
قال: الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوا بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم"(٢)

• الموصول هنا أفاد أن "صاحب هذه الصفات قلبه حيى بالله، ونفسه سخية منقادة لله، قد ذلت بحدة الحياء لله، واقفا عقله بعدل الله، يحكم لخلقه بحكمه على نفسه، فمركبه من أعلى المراكب وأجود الحيوان"(٣)

(١) صحيح مسلم ١٧/٢٥، ٢٦سنن أبى داود ٢٦

(٢) مسند أحمد - باقى مسند الأنصار - ٢٣٢٤٣ والأمثال من الكتـــاب والســـنة ٣٠٣.

(٣) الأمثال من الكتاب والسنة ٣٠٣.

٤ – عن أبي هريرة ﷺ قال: "خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر ﷺ فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟

قال: الجوع يا رسول الله.

قال: وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ... الحديث"(١)

فالموصول وما فى حيزه من الصلة يصدق على السبب وعلى المسبب، وجاء تعبيره ﷺ بذلك ليشاركهما ظاهر حالهما، دفعا للوحشة الواقعة من ذكر لفظ "الجوع" فضلا عما فى قوله من عزاء وتسلية لهما، فهو النبى، وهو من هو، يعانى مما منه يعانيان.

وهذا من معالى أخلاق رسول الله ﷺ وكريم شيمه.

وفى إسناد الفعل "أخرج" إلى "الجوع" مجاز عقلى علاقته السببية، لأن الجوع كان سببا فى خروجهما، ولم يكن هو المخرج لهما حقيقة.

رابعا: التعريف بالإشارة:

الأصل فى أسماء الإشارة أن يشار بها إلى محس مشاهد، قريبا كان أو بعيدا، فهو يشخص المشار إليه إن كان محسوسا، ويجسمه إن كان معقولا، ويحضره إن كان غائبا.

١ – عن أبي هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: إسباغ الوضوء على المكاره ... فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط"(٢)

---

(١) مختصر مسلم ٣٥٠، ودليل الفالحين ٤٤٦/٢ وما بعدها.

(٢) صحيح مسلم – الطهارة – ١٤١/٣، الترمذى ٥٥/١ والنسائى – الطهارة – ١٤٣ والفتح الربانى ٢٠٦/١، ٢٠٧.

فاسم الإشارة "ذلكم" يدل على التفخيم والتعظيم، لما فيه من لام البعد وكاف الخطاب، وزيادة الميم زيادة فى تنبيه المخاطبين لإفادتها اختصاص الإشارة بهم وإليهم.

٢ – من قول النبى ﷺ لمعاذ بن جبل فى حواره الطويل: **"ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت : بلى يا رسول الله.**

قال ﷺ: "كُف عليك هذا" (وأشار إلى لسانه).(١)

فاسم الإشارة "ذلك" يدل على التفخيم والتعظيم لما فيه من لام البعد وكاف الخطاب، واسم الإشارة "هذا" جاء به لمزيد التعيين، والاهتمام بتمييز المشار إليه أكمل تمييز، لأن المشار إليه حاضر محس، يراه المخاطب، ولا معرفة أقوى من اسم الإشارة فى هذا الإبراز والتعيين.

خامسا: التعريف بأل:

لكل أداة من أدوات التعريف طعم ومذاق يختلف عن الآخر، والذى يحدد الاختلاف ثقل الكلمة ومكانها وقيمتها ودلالتها وشحناتها المختلفة عند المخاطب، فالضمير غير اسم الإشارة غير الاسم الموصول غير (أل).

١ – انظر إلى قول النبى ﷺ فى أحد حواراته: "أتدرون من المفلس؟

قلنا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

قال: المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وضرب هذا ... الحديث.(٢)

فلفظ "المفلس" فى تعريف الرسول ﷺ محدد المدلول، وهو الذى قام بجانب من الدين، وقصر فى جوانب أخرى بما ارتكب من خطايا وآثام، فهو ليس المفلس المعلوم لدى الصحابة، لذلك أراد النبى ﷺ أن يعلمهم معنى جديدا، فساق ذلك المعنى من خلال حوار شيق بدأه بالاستفهام "أتدرون من

(١) سنن الترمذى – الإيمان – ٢/٣٢٨، وابن ماجه – الفتن – ٢/٣٥٩.

(٢) صحيح مسلم – البر والصلة – ١٦/١٣٥، ١٣٦، ومختصر مسلم ٤٨٤، ٤٨٥.

المفلس"؟ للتشويق وجذب انتباه المخاطبين، وليكون المعنى أسرع وصولا إلى فهمهم.

٢ - عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بـ(مر الظهران) ونحن نجنى الكَبَاثَ، وإن رسول الله ﷺ قال: "عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه.

قالوا: يا رسول الله: أكنت ترعى الغنم؟

قال: وهل من نَبِيٍّ إلا وقد رعاها؟(١)

فقول النبى ﷺ "الأسود" يدل على أنه يقصد نوعا معينا ومحددا، يرى أنه أفضل من غيره من الأنواع ويعرفه هو ويعرفه الصحابة أيضا، وهو النضيج من ثمر الأَرَاك، لذلك قالوا له: أكنت ترعى الغنم؟ لأن قوله لهم: عليكم بالأسود منه فيه دِلالة على تمييزه بين أنواعه، والذى يميز بين أنواع ثمر الأراك غالبا من يلازم رعى الغنم على ما ألفوه، فالألف واللام هنا جعلت اللفظ المعرف بها جزءا من المتكلم والمخاطب، وموضوعا يحتل مكانا بارزا، وهنا لا يصلح أن يكون مكان لفظ "الأسود" ضمير أو اسم إشارة أو اسم موصول.

٣ - وقول النبى ﷺ فى حديثه عن فضل الصلوات: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات...

قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"(٢)

فالتعريف فى (الصلوات الخمس) يدل على أنها الصلوات الخمس المعهودة والمفروضة على كل مسلم ومسلمة فى اليوم، وهى نفسها التى مثل لها هذا التمثيل الهادف.

---

(١) فتح البارى ١٣٨/٦، ١٣٩ ومختصر مسلم ٣٥٤.

(٢) الترمذى - الأمثال -٣٨٠/٢، وفتح البارى - مواقيت الصلاة - ١٢ /١٤ ، ١٥

سادسا: التعريف بالإضافة:

لا يتحقق التعريف إلا بعد أن تتم الإضافة، والكلمة هنا تتكـــون مـــن عنصرين كل منهما له كيانه، وحين جمع كلاهما وصارا كالكلمة الواحـــدة صار لها معنى آخر مستقل عن معنى كل جزء من جزأيها

١ - عن أبى برك ﷺ أن النبى ﷺ قال: "... أى شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى ... (وذكر مثل ذلك فى البلد واليوم) فقال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا .. الخ[1]

فمن اللطائف الدقيقة إضافة اليوم والشهر والبلد إلى المخاطبين، إشـــعارا باختصاصهم بها، وتكريما وتشريفا يزيدها لديهم جلالا، ويزيدهم لها إجلالا، ثم تمييز كل منها أكمل التمييز باسم الإشارة (هذا) الجامع بين حرف التنبيـــه ومعنى القرب، ليقرب جلالها من قلوبهم، وكل ذلك - لا شـــك - يدفـــع المساهلة ولا يقبل التأويل أو الشك، فيتقرر المعنى لديهم، وهو حرمة دمائـــهم وأموالهم وأعراضهم.

٢ - من حديث معاذ بن جبل، جاء فى قوله النبى ﷺ: "ألا أدلـــك علـــى أبواب الخير؟ وقوله ﷺ: ألا أدلك على رأس الأمر..؟

فالإضافة فى قوله: "أبواب الخير"، وقوله: "رأس الأمر" إضافـــة مجازيـــة لإعلاء شأن الأمر وتعظيمه.

(١) فتح البارى - الحج - ٥٧٣/٣، وصحيح مسلم ١٦٧/١١ - ١٧٠

ثم قول معاذ مجيبا النبى ﷺ: "بلى يا رسول الله"، ومرة أخرى "بلى: يا نبى الله" فالإضافة هنا إضافة تعظيم وتشريف "لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه"(١)

ثانيا: التنكير:

استخدام النكرة فى الحديث النبوى شائع وكثير، وتأتى النكرة لها دلالتها التى توفى بالمعنى، وتمتع القارىء أو المستمع، يستشف ذلك من السياق ومن موقع الكلمة بين جاراتها، فقد تفيد النكرة التعظيم أو عكسه، وقد تفيد التكثير أو عكسه، وقد تفيد العموم والشمول، وقد تفيد التهويل ... وغير ذلك مما يدل عليه السياق.

١ - من حديث النبى ﷺ فى فضل الصلوات: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم ... أيبقى ذلك من درنه شيئا؟ .. الحديث(٢)

كلمة "نهرا" نكرة توحى بالرقة والصفاء والعذوبة والانسياب والجمال الطبيعى، ثم تعظيم شأن ذلك النهر.

وكلمة "شيئا" نكرة تفيد التقليل، وهى فى سياق الاستفهام الدال على النفى فتفيد عدم بقاء أى شىء من الدرن ولو قليلا.

٢ - جاء فى سياق التحذير قوله ﷺ للصحابة: **"تعوذوا بالله من جب الحزن،**

قالوا: وما جب الحزن؟

قال: واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة ... الحديث(٣)

---

(١) الكشاف ١٣٥/٣، والحديث فى صحيح الترمذى - الإيمان - ٣٢٨/٢، وابن ماجه - الفتن - ٣٥٩/٢.

(٢) الترمذى - الأمثال - ٣٨٠/٢، وفتح البارى - مواقيت الصلاة - ١٤/٢، ١٥

(٣) سنن الترمذى - الزهد - ٥٩٣/٤ (ط الحلبى) تحقيق إبراهيم عطوة.

كلمة (واد) نكرة موصوفة لفظا بالجار والمجرور (فى جهنم)، ومعنى بما يفيده التنكير من تهويل وتحذير بمعونة المقام، غير أن الجنس فى مقام الترهيب بحاجة إلى تخصيص يزيده هولا وشدة، فجاء الوصف بالجملة المضارعية "تتعوذ منه جهنم" مما يستحضر معانى الهول والترهيب والخوف والحذر، مع الإشعار بالتجدد والحدوث الدائمين.

٣ - ومما جاء فى سياق التحذير أيضا قوله ﷺ : "ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم - قالها ثلاثا - ... الحديث.(١)

فكلمة "ثلاثة" نكرة منونة مبهمة دالة على عدد، هذا العدد بصفته وموقعه، وما تبعه من صفات تحذيرية تخصصه، ثم تكرار العبارة الحاملة للصفات ثلاث مرات - كل ذلك له دلالة تأثيرية، تجعل المخاطب ينصرف ذهنه إلى تتبع من هم هؤلاء الثلاثة الذين أنذروا بهذا الوعيد - فى يقظة وحرص - محاذرا أن يكون منهم.

٤ - ومما جاء فى سياق النصح والإرشاد والتشويق حوار النبى مع أبى أمامة وقد رآه جالسا فى المسجد مهموما حزينا فقال له: **"مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة؟**

فقال: : هموم لزمتنى يا رسول الله.

فقال له النبى ﷺ: ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن أذهب الله عنك همك..."(٢)

"كلمات" توحى بالتقليل، أى أعلمك كلمات قليلة فى عددها، ولكنها عظيمة النفع، وهذا باعث على تطلع المخاطب إلى معرفة هذه الكلمات التى تخرجه من ضيقه، إذ يتصور أن ما يبذله من السبب (وهو ذكر الكلمات) هين يملكه، وما يوهب له من الفوز والثواب (وهو ذهاب الهم) عظيم يرجوه، وذلك أدعى للحرص على تكرار هذه الكلمات والمداومة عليها.

---

(١) صحيح مسلم - النووى - ١١٤/٢

(٢) سنن أبى داود ٢٣

التقديم والتأخير:

التقديم هو تبادل فى المواقع، حيث تترك الكلمة مكانها فى المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى، لتؤدى غرضا بلاغيا ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت فى مكانها الذى حكمت به القاعدة النحوية.

والتقديم يستلزم تأخيرا، فالمبتدأ الذى يترك مكانه للخبر يحدث بينهما التقديم والتأخير بالضرورة.. هذا التغيير فى المواقع يصحبه تغيير فى الأثر النفسى وفى الدلالة.

يقول **عبدالقاهر**: "ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شىء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"(١) وذلك لأن المقدم يحتل مكانا بارزا ممتازا، فهو أول ما تقع عليه العين، وأول ما تتأثر به، وأول ما تعجب به، وأول ما تقع النفس تحت أضوائه وتنشغل به، لأنه فى غير موضعه الذى تعودنا أن نراه فيه، ثم تأتى الألفاظ الأخرى فتكون الشحنة التى استحوذ عليها اللفظ المقدم قد قلت.(٢)

نأخذ لذلك مثلا قول النبى ﷺ: **"اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت"**(٣) نجد الجار والمجرور اتخذ مكان الصدارة، بالرغم من أن القاعدة تجعل الصدارة للفعل، ولكن الهدف والنكتة البلاغية فى تقديم هذه الأخبار "التخصيص" لتأكيد الثقة بالمقصود عليه سبحانه، والاعتداد به وحده، والامتداد منه وحده فالاسلام والإيمان والتوكل والإنابة والمخاصمة والمحاكمة من أفعال الرسول ﷺ مقصورة على الله وحده، مدلولا عليه تعالى بكاف الخطاب، تشرفا بعز الحضور، لا يتعداه إلى غيره شىء منها، تحقيقا لمقام ربوبيته.

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٦ بتحقيق شاكر.

(٢) بلاغة الكلمة والجملة والجمل ١٠٨.

(٣) فتح البارى - الدعوات -١١/١٢٠.

والتعبير بالماضى يشمل فى المعنى ما حضر وقت الخطاب وما يستقبل، ثقة واثقة فى ثبات العزيمة على العقيدة، وتساوى ما سيكون بما قد كان.

أولا: بلاغة تقديم الكلمة:

١ - جاء فى خطبة الوداع قوله ﷺ:

"... أى بلد هذا؟

قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

قال: أليس البلد الحرام؟

قلنا: بلى ...

قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام..."(١)

قدم ﷺ الدماء مع أن الأعراض أخطر؛ لأن الابتلاء بها أكثر، وخطرها أكبر، ومن ثم كان من أكبر الكبائر بعد الشرك القتل، وقدم الأموال على الأعراض؛ لأن ابتلاء الناس بالجناية فيها أكثر"(٢)

٢ - فى حديث الثلاثة المبتلين (أبرص وأقرع وأعمى) أتى الملكُ الأبرصَ.

فقال: أى شىء أحب إليك؟ .. فأتى الأقرع

فقال: أى شىء أحب إليك؟ الخ(٣)

"قدم الأبرص وبدأ به، ثم بالأقرع اهتماما بالتسجيل عليهما، وتعجيلا للانتقام"(٤) وقدم الأبرص أيضا، لأن داءه أقبح وأشنع ولونه أعظم، إذ يظهر فى الوجه الذى يجمع الكرائم فى الإنسان.

(١) فتح البارى - الحج - ٥٧٣/٣، وصحيح مسلم ١٦٧/١١-١٧٠.

(٢) دليل الفالحين ٥٣٢/١ (بتصرف).

(٣) صحيح مسلم ٩٧/١٨-١٠٠ وفتح البارى - الأنبياء - ٥٧٨/٦، ٥٧٩.

(٤) صحيح مسلم - الإيمان - ١٥٦/١-١٦١، والترمذى ٣٢٦/٢، ٣٢٧، ودليل الفالحين ٢٣٦/١

٣ - ومن حديث عمر بن الخطاب ﷺ: "... قال: فأخبرنى عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ... الخ[(١)]

"قدم الملائكة على الكتب مراعاة للترتيب الواقع؛ لأنه تعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسل، ولا حجة فى تفضيلهم عليهم، وإلا للزم تفضيلهم على الكتب، ولا قائل به"[(٢)]

ثانيا: تقديم المسند إليه:

١ - روى أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ قوله: "... قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض.

قال: يقول عمر بن الحمام الأنصارى ﷺ: يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض؟

قال: نعم ...

فأخرج تمرات من قَرَنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى أكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة ... الخ.[(٣)]

فى قول الصحابى "لئن أنا حييت" تقدم الضمير المنفصل على الخبر الفعلى للإختصاص، على نحو قوله تعالى: **﴿قل لو أنتم تملكون خزائنَ رحمةِ ربى﴾** (الإسراء ١٠٠) فكأنه وجد نفسه مختارة الحياة على الشهادة، فأنكر عليها، فقال ما قال استبطاء للانتداب لما ندب إليه النبى ﷺ بقوله: "قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض" فعد حياته قدر ما يأكل تلك الحبات التى هى دون العشرة - كما يؤذن به جمع القلة - حياة طويلة مسارعة إلى البر"[(٤)]

---

(١) صحيح مسلم - الإيمان - ١٥٧/١ - ١٥٩، الترمذى - الإيمان - ٣٢٦/٢.

(٢) دليل الفالحين ٢٢٠/١.

(٣) صحيح مسلم - الإمارة - ٤٥/١٣، ٤٦ مسند أحمد باقى مسند المكثرين ١١٩٤٩.

(٤) دليل الفالحين ١٢٠/٤، ١٢١

ثالثا: تقديم المسند:

١ - من حديث أبي ذر ﷺ: "... فقال ﷺ: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه وقليل ما هم..."(١)

فى قوله ﷺ "وقليل ما هم" "ما" صلة مزيدة لتأكيد القلة، ولفظ "قليل" خبر (مسند) و"هم" مبتدأ (مسند إليه) والتقدير: وهم قليل، فقدم الخبر اهتماما بمضمونه، كما يؤذن به تأكيده، ففيه تحريض لأصحاب الأموال على الإنفاق، ليندرج فى القليل الذى هو الجليل".(٢)

٢ - جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد،

فقال: أحى والداك؟

قال: نعم.

قال: ففيهما فجاهد.(٣)

قوله ﷺ "ففيهما" متعلق بالأمر "فجاهد" قدم للاختصاص، والفاء الأولى جزاء لشرط محذوف، والثانية جزائية لتضمن الكلام معنى الشرط، أى: إذا كان الأمر كما قلت، فاخصص المجاهدة بخدمتهما وبرهما - وهذا مثل قوله تعالى: **﴿فإياى فاعبدون﴾** (العنكبوت ٥٦) وقوله **﴿فإياى فارهبون﴾** (النحل ٥١) فحذف الشرط، وعوض عنه الظرف المفيد للاختصاص.

والمراد بالجهاد: فيهما التلطف بهما، وحسن صحبتهما، وطاعتهما وبرهما .. وهذا كله دليل لعظم فضيلة برهما، وأن برهما أفضل من الجهاد فى سبيل الله، ما كانا فى حاجة إلى ذلك.

---

(١) فتح البارى - الرقاق - ٢٦٨/١١ (ط الريان)، ودليل الفالحين ٣٩٩/٢.

(٢) دليل الفالحين ٣٩٩/٢، ٤٠٠.

(٣) صحيح مسلم ١٠٣/١٦،١٠٤، وفتح البارى ٤٠٣/١٠.

٣ - جاء فى حديث النبى للأنصار قوله ﷺ: "ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسله المن والفضل"[١]

ففى قولهم: "لله ورسوله المن والفضل" تقدم الجار والمجرور (الخبر) ليفيد القصر والاختصاص، وقصر المن والفضل على الله ورسوله لا يتعدى إلى غيرهما، لأن لرسول الله ﷺ فضلا سابقا عليهم، يتضح فى قوله ﷺ "ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغنكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم".

رابعا: تقديم بعض المتعلقات:

١ - من حديث لابن عمر ﷺ:

"... فقال: ألست فلان بن فلان؟

قال: بلى: فأعطاه الحمار،

فقال: اركب هذا، والعمامة،

قال: اشدد بها رأسك، فقال بعض أصحابه: غفر الله لك، أعطيت هذا الأعرابى حمارا كنت تروح عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك...الخ"[٢]

فى قول الصحابة (غفر الله لك) تقديم الدعاء بالغفران للمخاطب فيه تنبيه على أدب العتاب، وهذا على نحو قوله تعالى: **﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾** (التوبة ٤٣).

قال القاضى عياض فى "الشفا": "يجب على المسلم المجاهد نفسه، الرائض بزمام الشريعة خلقه، أن يتأدب بأدب القرآن فى قوله وفعله، ومعاطاته ومحاوراته، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة، والسؤال من رب الأرباب المنعم

---

(١) فتح البارى - المغازى - ٤٧/٨

(٢) صحيح مسلم (البر والصلة) ١١٠/١٦.

على الكل، المستغنى عن الجميع، ويتبين ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب، إن كان ثم ذنب"(١)

خامسا: التقديم فى الجمل:

ذكرنا أن التقديم تبادل أو تغيير فى مواقع الكلم يصحبه تغيير فى الأثر النفسى وفى الدلالة لأن التغيير عادة يكون لأغراض بلاغية، ما كانت لتؤدى لولا ذلك التغيير فى المواقع، فمن ذلك مثلا:

١ - تتقدم الجملة على الجملة مراعاة لما ينبغى أن يكون عليه حال المؤمن حين الابتلاء:

لما احتضر ابن زينب بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبيها أن اشهدنا، فأرسل النبى ﷺ إليها يقرىء السلام **ويقول:**

"إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى فَلْتَصْبِرْ ولتحتسب.."(٢).

قدم النبى ﷺ ذكر الأخذ (لله ما أخذ) على الإعطاء (وله ما أعطى)، وإن كان الأخذ متأخرا فى الواقع؛ اهتماما بما يقتضيه المقام من الحث على الصبر والرضا بقضاء الله، فالله - ﷻ إذا أعطى عباده شيئا، فلا يخرج بذلك الإعطاء عن ملكه، بل هو باق عليه، بخلاف إعطاء المخلوق لمثله.(٣)

٢ - وتتقدم الجملة على الجملة لأهمية مضمونها بالنسبة للغرض المسوق له الكلام:

جاء فى حوار لرسول الله ﷺ مع بعض الصحابة واعظا، "...

ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كُتِب مقعدُه من النار ومقعده من الجنة،

---

(١) نقلا عن دليل الفالحين ١٩٢/٢.

(٢) صحيح مسلم - الجنائز - ٢٢٤/٦، ٢٢٥، وفتح البارى - الجنائز - ١٨٠/٣

(٣) دليل الفالحين ١٥١/١ (بتصرف).

فقالوا: يار سول الله: أفلا نتكل على كتابنا؟
فقال: "اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له"(١)

قدم النبى ﷺ ذكر المقعد من النار على ذكر المقعد من الجنة، لأن المقام مقام وعظ وتنبيه، وذلك أنجع فى التأثير والارتداع عن المخالفات الشرعية، لأنه فى باب النذارة.(٢)

ولا ننسى ما فى التركيب النبوى من بلاغة التوكيد، حيث أكد كلامه بعدة مؤكدات: منها اللفظى [كأسلوب القصر، وحرف الجر الزائد، وقد] ومنها المعنوى: كالمقابلة بين مقعده من النار ومقعده من الجنة، وتقديم خبر "ما" على اسمها مما يفيد الحصر واختصاص ذلك المكتوب بكل واحد، لا يخرج عنه أحد.

٣ - تتقدم الجملة على الجملة لشرف الاقتران:

"جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال علمنى كلاما أقوله ... قال: قل: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.."(٣)

قدم جملة (لا إله إلا الله) على ما بعدها، لأنها أشرف قرائنها، فهى كلمة الإسلام، وكلمة التوحيد، وأول أركانه وأهمها، ومفتاح الجنة، وقد ضم إليها ما يزيد من تأكيد مدلولها من التوحيد بالحال المفردة (وحده) وبالحال الجملة (لا شريك له)، وتنكير "شريك" يفيد العموم، لأنها نكرة فى سياق النفى.

٤ - تتقدم الجملة على الجملة لكونها الأصل وما بعدها مبنى عليها:

" ... قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرُهم، قال: بلى، والذى نفسى بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصَدَّقُوا المرسلين..."(١)

---

(١) فتح البارى - الجنائز - ٢٦٧/٣

(٢) دليل الفالحين ٤٣٠/٣ (بتصرف).

(٣) صحيح مسلم ١٩/١٧

" ... قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قـــال: بلى، والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين..."(١)

قدم النبى ﷺ الإيمان بالله على التصديق بالرسل، لأنـــه الأهـــم والأعـــم والأصل، وما بعده مبنى عليه، فمن آمن بالله، صدق المرسلين من قبـــل الله، وقد سبق النبى ﷺ عبارته بالقسم تأكيدا واهتماما بالأمر، لـــيزيل تعجـــب الصحابة من بلوغ رجال منازل الأنبياء، معللا أنهم آمنوا بـــالله، وصدقـــوا المرسلين، فالرسول ﷺ لم يقسم ليجتذب القلوب لتصديقه - وحاشاه ذلـــك - والصحابة رضوان الله عليهم جازمون بصدقه فى كل قـــول يقولـــه"، إذا ينصرف وجه اليمين - فى مثل هذه الأحوال - إلى أن المحلوف عليـــه مـــن الأمور المهمة ذات البال التى ينبغى أن يستشرف السامع لها، ويتلقاها بكـــل اهتمام لما تعيه من مدلول دينى خطير فى حياة الفرد والمجتمع.

---

(١) فتح البارى - بدء الخلق - ٣٢٠/٦- (ط بيروت) صحيح مسلم ١٦٩/١٧.

الفصل والوصل

الفصل هو قطع معنى عن معنى بأداة لغرض بلاغي.

والوصل هو ربط معنى بمعنى بأداة لغرض بلاغي.(١)

الفصل والوصل وسيلة أسلوبية من وسائل إبراز الجمال مع غيره من الأساليب، مراعيا دائما إثارة عقول المخاطبين بمختلف درجات استيعابهم، وإثارة أنفسهم بمختلف نزعاتها وميولها، وكذا عواطفهم وأذواقهم.

والنبي الكريم صاحب البيان الجلي يخاطب الناس بهذه الوسيلة الأسلوبية، مراعيا مقامات الخطاب، فكان يلون العبارة مزاوجة بين فصل ووصل ثقة بفهم المخاطب، أو مراعاة لمقتضى حال المخاطبين. وهو في كل هذا يرمي إلى إبراز جمال المعنى، لتحقيق كمال الفائدة. فحين يصف مشاهد أخروية، أو يصور الثواب أو العقاب، أو يتحدث عن الأخيار أو الفجار، لا يعرض ذلك عرضا مسطحا، إنما يتخذ الحوار وسيلة لإثارة انتباه المخاطبين، وإثارة العواطف والخيال، ليصل المعنى إلى قلب المخاطب، ويتقرر لديه ويثبت في ذهنه.

وهنا يبرز جمال المعنى المقصود، حين يوجد مكتملا ناضجا موحيا، ليحقق كمال الفائدة عن طريق الإيحاء، وترابط المعاني الجزئية لتصور المعنى الكلي، ليعطي الحكمة المنشودة أو الفكرة المقصودة أو الجوهر المطلوب.

ومن شواهد ذلك في الحوار النبوي:

١ - عن جابر ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون.

قالوا: يا رسول الله: ما المتفيهقون؟

---

(١) بلاغة الكلمة والجملة والجمل ١٨٣.

قال: المتكبرون"(١)

يقرر النبي ﷺ بالخبر الأول "إن من أحبكم إليّ" منزلة حسن الخلق في الإسلام، ويبين مكان أحاسن الناس أخلاقاً يوم القيامة، فهم الأقرب منه، لأن أصحاب الخلق الحسن كانوا أحب الناس إليه في الدنيا، فهم كذلك في الآخرة.

والخبر مؤكد بأداة التوكيد "إن" وبزيادة حرف الجر "من" فالأحاسن أخلاقا هم وحدهم الأحب والأقرب جزاء تفضيل بتفضيل، بدليل عدم زيادتها في الخبر المقابل "وإن أبغضكم"، فإذا لوحظ تقديم المسند على المسند إليه في العبارة زادت طاقة التأكيد، وتطلعت النفس شوقاً إلى معرفة المحكوم له بهذا الشرف، وبتلك السعادة التي يزيدها عظمة متعلق أفعل التفضيل "إليّ" و"مني". فإذا انتهينا من ذلك انتقلنا إلى نكتة أخرى، وهي اتصال الخبر الثاني بالخبر الأول اتصال شأن بشأن، معطوف عليه بالواو، يحكم فيه عليه السلام حكما جازما بأن الطرف المقابل من الناس، وهم الأساوىء أخلاقاً - واختص منهم الثرثارين والمتشدقين والمتفيهقين - يكونون أبعد مجلسا منه يوم القيامة، ولما كان المقام مقام تقرير وتأكيد للقيم، اقتضى مع كل هذه المؤكدات الجزئية تأكيداً معنوياً، يفهم من أن معنى الخبر الأول هو لازم الخبر الثاني، وبأن معنى الخبر الثاني هو لازم الخبر الأول، فالتصريح بهما معا كذكر المعنى مرتين، إحداهما لفظا والأخرى لزوما، لزيادة الترغيب والترهيب، ولعل الفضل في هذا التماسك بين عبارتي الحديث، وسمو التعبير وبلاغته، راجع إلى تلك الواو الواصلة بين الخبرين المتقابلين.(٢)

٢ - من حديث "الحياء" عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ : " ... ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى"(٣)

---

(١) سنن الترمذي - البر والصلة - ١٩٦/٢، ١٩٧، ومسند أحمد ١٩٤/٤.

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ٢٣٣، ٢٣٤ (بتصرف).

(٣) سنن الترمذي - صفة القيامة والرقائق والورع - ٢٩٩/٢ وفي طبعة الحلبي ٦٣٧/٤.

الوصل هنا بين جملة جواب الشرط والجملة التالية لها، والجملة الثانية "وآثر الآخرة على الأولى" مقررة لمعنى سابقتها المتبوعة "ترك زينة الدنيا" لأدائها المقصود منها بوجه أخص، فالأولى ترك مطلق لزينة الدنيا، والتابعة بيان لوجه الترك، وأنه ترك إيثار، والإيثار - عادة - تفضيل مقصود مبنىٌّ على التدبر والمقارنة، وللمغايرة فى الجملة بينهما مع وجود المناسبة فى اتحاد المسند إليه، وهو الضمير العائد على "مَنْ" والمقابلة بين "ترك الدنيا" وآثر الآخرة"، لهذين ولعدم المانع كانت وجاهة العطف بالواو.(١)

٣ - عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال: "جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال: علمنى كلاما أقوله، قال: قل لا إله إلا هو، وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله رب العالمين"(٢)

فَصَلَ (الله أكبر كبيرا) عمّا قبلها إيماءً إلى استقلال كل جملة فيما سأل، ووصل (والحمد لله كثيرا) بما قبلها لمشاركتها لها فى الدلالة على اتصاف البارى سبحانه بأوصاف الكمال.(٣)

٤ - عن أبى إسحق سعد بن أبى وقاص ﷺ قال: يا رسول الله إنى قد بلغ بى من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال لا يَرِثُنِى إلا ابنةٌ لى، أَفَأَتَصَدَّقَ بثلثى مالى؟

قال: لا.

قلت: فالشطر يا رسول الله؟

فقال: لا.

قلت: فالثلث يا رسول الله؟

---

(١) الحديث النبوى ٢٣٠.

(٢) صحيح مسلم - الذكر والدعاء - ١٩/١٧.

(٣) دليل الفالحين ٤/٢١٦.

قال: الثلث، والثلث كثير أو كبير، إنك إنْ تَذَر ورثتك أغنياءَ، خيرٌ من أن تذرَهم عالةً يتكففون الناسَ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بهـــا وجهَ الله إلا أُجِرْتَ عليها.. "[١]

قوله ﷺ "وإنك لن تنفق نفقة" معطوف على قوله: "إنك أن تـــذر" إلى آخره، لأنهما علة للنهى عن الوصية بأكثر من الثلث، كأنه قـال: لا تفعـل لأنك إن مت تركت ورثتك أغنياء وهو خير لك، وإن عشـت تصدقـت وأنفقت، فالأجر حاصل لك فى الحالين.

وعلى هذا، فوجه العطف هو بيان سبب استكثار الثلث، ببيان ما يتعلـق به فى الدنيا والآخرة، فإذا أخرجه أثبت الثواب العظيم، وأبقى لورثتـه مـا يصونون به وجوههم عن ذل السؤال.[٢]

٥ - قال النبى ﷺ "إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضـت فلم تعدنى،

قال : يارب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أن عبدى فلانا مرض، فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ... الحديث[٣]

فصل جملة "أما علمت أنك لو عدته ..." عما قبلها إيماءً إلى أنه المقصود بالتنبيه عليه وما قبله كالوسيلة إليه.[٤]

ومن لطائف البلاغة فى تراكيب الحوار:

---

(١) صحيح مسلم - الوصية - ٨١/١١، ٨٢، موطأ مالك - كتـاب الأقضيـة - ١٢٥٨.

(٢) دليل الفالحين ٥٨/١.

(٣) صحيح مسلم - البر والصلة - ١٢٥/١٦، ١٢٦

(٤) دليل الفالحين ٣٧٤/٣.

١ - قوله "مرضت" مجاز عقلى حيث أسند المرض إليه تعالى لكونه عن إرادته، وفيه تشريف ذلك الإنسان.

٢ - كيف أعودك يا رب؟ استفهام بمعنى الاستبعاد، لاستبعاد إمكان لحوق المرض به تعالى المترتب عليه العبادة، أخذاً بظاهر الخطاب، وبيّن وجه الاستبعاد بقوله "وأنت رب العالمين" وهى جملة اسمية معرفة الطرفين، تفيد القصر والاختصاص، وتؤكد المعنى وتقرره.

٣ - "أمَا" أداة استفتاح لتنبيه المخاطب إلى ما بعدها، وفى إضافة "عبد" إلى ياء المتكلم - الحق سبحانه - تشريف وتكريم.

٤ - التعبير بالماضى، لأنه لما كان محقق الحصول عبّر به، على نحو قوله تعالى **﴿ونُفِخَ فى الصور﴾** (الزمر ٦٨) وقوله **﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾** (النحل ١).

٥ - أما قوله ﷺ حكاية عن ربه: "مرضت فلم تعدنى، واستطعمتك لم تطعمنى، واستسقيتك فلم تسقنى" فيحمل على حذف المضاف، تقديره: مرض عبدى فلم تعده، واستطعمك عبده لم تطعمه، واستسقاك عبدى فلم تسقه، فلما حذف المضاف الذى هو العبد انقلب الضمير الذى هو الياء المجرورة تاءً بالفاعلية التى كان يستحقها العبد، ويدل على هذا أن الملوم لما قيل له: استطعمتك فلم تطعمنى قال: استبعاداً لذلك وتعجبا منه لما لم يتفطن لحذف المضاف وإرادة الرب - كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ - حملاً للكلام على ظاهره - فأظهر الرب سبحانه وتعالى مراده من تأويل كلامه فقال: مرض عبدى فلم تعده، واستعطمك عبدى فلم تطعمه، واستسقاك عبدى فلم تسقه.

وأما قوله فى تمام الحديث: "ولو عدته لوجدتنى عنده" فمعناه لوجدتنى عنده" فمعناه لوجدتنى حاضراً عنده من جملة عائدية، وهذا حث على عيادة المؤمنين، لأن مَنْ عادَهُ الله عز وجل جدير بأن يعوده العائدون، وهذا من مجاز التشبيه، ومعناه: أنى أعامله معاملة العائد"(١)

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ٧.

من صور خروج الكلام على مقتضى الظاهر

من التفنن فى القول، والدقة فى التعبير، ووضوح المعنى وجلائه، استخدام المظهر فى موضع المضمر وعكسه، وقد يلجأ الأديب إلى ذلك إذا رآه أوقع وأنسب للمعنى، أو لتمكين المعنى عند المخاطب، أو لدفع توهم ما، وغير ذلك من النكات البلاغية التى يقتضيها المقام.

أولاً: وضع المظهر موضع المضمر:

١ - من حيث "الحياء" عن ابن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ : "... ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى"(١)

وضع المظهر وهو (الآخرة) فى الجملة التابعة موضع المضمر لسبق مرجعه، وذلك أوقع وأجمل فى مقام الترجيح، وأكمل فى المقابلة للدلالة بالنص على المتقابلات وليس كذلك الضمير.

٢ - عن عبدالله بن مغفل ﷺ قال: قال رجل للنبى ﷺ : يا رسول الله: "والله إنى لأحبك... فقال: إن كنت تحبنى فأعدّ للفقر تِجْفَافا، فإن الفقر أسرعُ إلى من يُحبنى من السيل إلى منتهاه"(٢)

أتى بالمظهر "الفقر" فى الجملة الثانية، والمقام للضمير، لزيادة تمكينه عند سامعه ليوطن نفسه على الصبر عن شهوات الدنيا، والعزوف عن متاعها الزائل، لأن المحب يجب أن يتصف بصفات المحبوب، فالمرء مع من أحب.(٣)

٣ - جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال..."(٤)

---

(١) سنن الترمذى - صفة القيامة والرقائق والورع - ٢٩٩/٢.

(٢) سنن الترمذى - الزهد - ٥٧٦/٤ (ط الحلبى)، ودليل الفالحين ٤٢٦/٢، ٤٢٨.

(٣) دليل الفالحين ٤٢٧/٢ (بتصرف).

(٤) فتح البارى - العلم -١٧١/١.

أظهر فى مقام الإضمار، دفعا لتوهم كراهة القائل لو جيىء بالضمير، لأنه لو قال: سمع ما قال فكرهه، ربما يتوهم السامع أن الكراهة للقائل ولكنها للمقول، لذلك آثر الإظهار فى مقام الإضمار.

ثانياً: وضع المضمر موضع المظهر:

١ - عن أبى بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتن القاعد فيها خير من الماشى فيها، والماشى فيها خير من الساعى إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت...

فقال رجل: يا رسول الله: أرأيت إن لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟

قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حدّه بحجر، ثم لِينجُ إنِ استطاع النجاء...."(١)

قوله ﷺ "**إنها ستكون فتنٌ**" عبارة تقوم مقام اللافتات التحذيرية، ولاسيما أنها تتحدث عن أمر غيبى، مما يقسر انتباه المخاطب، ويشوقه إلى معرفة ما سيكون، وتنكير "**فتنٌ**" للتهويل والتفظيع، والضمير الذى دخل عليه حرف التوكيد سبق مرجعه، وهو الشأن المذكور بعده، فهو من وضع المضمر موضع المظهر، لتحريك النفس بطلب ما يزيل الإبهام حتى يتمكن المعنى فضل تمكن، لظهوره فى صورتين (الإبهام أولاً، والبيان ثانيا) فإذا لوحظ هذا مع التأكيد أولاً **بإن**، وثانياً بقوله "**ألا ثم تكون فتنٌ**" تبين لنا مدى اهتمام النبى ﷺ بمضمون خبره، فيحملُ ذلك التنبيهُ المخاطبَ على الحرص الشديدِ على طلب النجاة.

٢ - عن أم سلمة ﷺ زوج النبى ﷺ أنه قال: "إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع"

---

(١) صحيح مسلم - الفتن وأشراط الساعة -٩/١٨، ١٠ والترمذى ٢٣٩/٢.

قالوا: يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟

قال: لا، ما صَلُّوا.(١)

قوله ﷺ **"إنه يستعمل عليكم أمراء"** وضع ضمير الشأن السابق فى موضع المظهر، وذلك يحدث إبهاما، فتتحرك النفس لطلب ما يزيل ذلك الإبهام، فإذا بالبيان يعقب الضمير، مما يمكّن الخبر فى أنفس المخاطبين، وقد دُعِّم الخبر بهذا الصنيع، وبالحرف الناسخ الذى يفيد التأكيد.

أما الوجه الذى سيق له الخبر بهذه الخصائص التقريرية، فهو حمل المؤمنين على طاعة الحكام والأمراء ما أطاعوا الله ورسوله.

ثالثاً: التعبير بلفظ المضارع وإرادة الماضى:

عن حارثة بن وهب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"ألا أخبركم بأهل الجنة؟

كل ضعيف متضعّف، لو يقسم على الله لأبره... الحديث.(٢)

عبر هنا بالمضارع "يقسم" بدلا من الماضى إيماء إلى استمرار عناية الله بهم كل زمن ووقت وقضاء حوائجهم، لأن المضارع يدل على التجدد والحدوث واستحضار الصورة الغائبة. والحديث فى رواية أخرى **"إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبَر قسمه"**(٣)

رابعاً: التعبير بلفظ الماضى وإرادة المضارع:

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه!

قيل من يا رسول الله؟

---

(١) صحيح مسلم - الإمارة - ١٢/٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) صحيح مسلم -كتاب الجنة وصفة نعيمها - ١٨٦/١٧، والترمذى ٣٢٤/٢..

(٣) فتح البارى - الجهاد والسير - ١٢/٦ (ط بيروت).

قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة"(١)

بالرغم من حصول التأكيد بتكرير اللفظ، جعل الدعاء ماضيا، ليكون أشد فى الترهيب والتحذير، ولإشعار النفس بأن الرغم واقع لا محالة للعاق، فإن لم يكن فهو يكاد أن يكون.

خامساً: استعمال صيغة الماضى بمعنى الطلب:

جاء فى حديث فضل الصلوات قوله ﷺ لصحابته: **"أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ... الحديث.**(٢)

فقوله ﷺ : **"أرأيتم"** بمعنى أخبرونى، فإن الرؤية سبب الإخبار.

يقول الألوسى فى تفسير قوله تعالى: **﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله...﴾** (الأنعام٤٠) تجوز به عن معنى أخبرونى، وفيه على ماقاله الكرمانى: "فيه تجوز لإطلاق الرؤية وإرادة الإخبار، لأن الرؤية سبب الإخبار، وجعل الاستفهام بمعنى الأمر بجامع الطلب".(٣)

سادساً: استعمال المضارع بمعنى الطلب:

فى حديث معاذ بن جبل ﷺ قال معاذ للنبى ﷺ: **أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار، فقال ﷺ: لقد سألتنى عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت..."**(٤)

•الأفعال (تعبد، تقيم، تؤتى، تصوم، تحج) مضارعة، ولكنها فى معنى الأمر.

---

(١) صحيح مسلم - البر والصلة والآداب - ١٦/١٠٨.

(٢) فتح البارى - مواقيت الصلاة - ٢/١١،١٤ وصحيح مسلم - كتاب المساجد - ٥/١٧٠ والترمذى - الأمثال - ٢/٣٨٠

(٣) روح المعانى للألوسى ٧/١٤٨.

(٤) سنن الترمذى - الإيمان - ٢/٣٢٨، وابن ماجة - الفتن - ٢/٣٥٩

يقول الطيبي في "التبيان": "والعدول عن الانشائي في قولـــه (تعبـــد الله) لفائدتين:

إحداهما: أن المأمور كأنه سارع إلى الامتثال، وهو يخبر عنه، إظهارا للحـرص بوقوعه.

وثانيتهما: أن لا ينسب إلى عدم الامتثال لأمره، إن قصّر المـــأمور، أو لئـــلا يكون المأمور مسخوطا عليه أن لم يمتثل"(١)

ويشير الدكتور عز الدين السيد إلى ملحظ جيد في سر العدول عن صيغة الطلب (الأمر) إلى صيغة الخبر (المضارع) وهو كمال ذوقه الشريف، وحـــدة فطنته، إذ طابق بهذا الوجه الخبري قول صاحبه (أخبرني) ولو دلّه بصيغة الأمر لكان مجيباً عن سؤاله، ولكن شتان ما بين الجوابين من الدلالة على الحاســـة البيانية المرهفة.(٢)

سابعاً: التعبير بالسبب عن المسبب توسعا:

من حديث عمر بن الخطاب ﷺ في الحوار بين جبريل ﷺ والنـــبي ﷺ قال: "... **فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك... الحديث**"(٣)

يقول ابن الأثير: "فقوله: "**تعبد الله كأنك تراه**"، من جوامع الكلم، لأنـــه ينوب مناب كلام كثير، كأنه قال: تعبد الله مخلصا في نيتك، واقفا عنـــد أدب الطاعة من الخضوع والخشوع، آخذا أهبة الحذر وأشباه ذلك، لأن العبـــد إذا خدم مولاه ناظراً إليه استقصى آداب الخدمة بكل ما يجد إليه السبيل، ومـــا ينتهي إليه الطوق"(٤)

---

(١) التبيان ٥٣٣.

(٢) الحديث النبوي ٣٥٩.

(٣) صحيح مسلم ١٥٧/١، ١٥٨ والترمذي ٣٢٦/٢، ٣٢٧.

(٤) المثل السائر ٣٢٧/٢، ٣٢٨.

تلك ثمرة معرفة الله تعالى وخشيته، ومن ثمّ عبّر بها عن العمل فى خبر "الإحسان أن تخشى الله كأنك تراه" فعبر عن المسبب باسم السبب توسعا.(١)

قال النبى ﷺ لوفد عبد القيس "هل تدرون ما الإيمان بالله؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وأن تؤدوا خُمساً من المغنم"(٢)

جعل النبى ﷺ الشهادتين وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأداء الخمس من المغنم إيمانا، لأنها مسببة عن إيمان الجنان فتجوز باسمه عنها.(٣)

ثامناً: التعبير بلفظ المسبب عن السبب:

عن عمرو بن العاص ﷺ أن النبى ﷺ قال:

"إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه"

قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟

قال: نعم: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه"(٤).

الجملة التى قدم النبى ﷺ بها حديثه هى موطن استثارة العجب، وقد قصد الرسول ﷺ إلى ذلك ليستدعى انتباه الصحابة، ويحذرهم من أن يتسببوا فى سبِّ آبائهم أو أمهاتهم، فالرجل لم يشتم والديه بصورة مباشرة أو مقصودة،

---

(١) دليل الفالحين ١/٢٢١، ٢٢٢.

(٢) صحيح مسلم - الإيمان ١/١٨٨

(٣) الإشارة إلى الإيجاز ٣٩.

(٤) فتح البارى - كتاب الادب - باب لا يسب الرجل والديه - ١٠/٤١٧، وراجع الإشارة إلى الإيجاز ٤٢.

ولكنه شتمهما بصورة غير مقصودة، لا تنقص عن غير المقصودة إثما، فقد يسب أبا شخص ما فيسب هذا الشخص أباه قصاصا، إذن فشتمه غيرهما كان سبباً فى شتمهما، وتعبير الرسول ﷺ بهذا الشكل يجعل المخاطب يعدل عن خطيئته، ولا يسب آباء الاخرين، لأنه علم أن سبَّ آباء الآخرين سبٌّ لآبائه. فشتم الوالدين مسبب، وعبر به النبى ﷺ عن السبب وهو سب آباء الآخرين. وآثر النبى ﷺ التعبير بالمضارع ليستحضر الصورة فى أذهان المخاطبين وكانها وقعت أمام أعينهم وقت النطق بها، مما أدى إلى فزعهم واستنكارهم، لتصورهم هذه الصورة القبيحة واقعة فى الحال.

تاسعاً: التغليب:

١ – جاء فى حديث الثلاثة أصحاب الغار: **"قال رجل منهم اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا..."**(١)

ففى قوله: "أبوان" تغليب الأب لشرفه على الأم، فهو نظير قوله تعالى: **﴿وكانت من القانتين﴾** (التحريم ١٢) وكـ**(العمران)** فى تثنية أبى بكر وعمر، و**(القمران)** فى تثنية الشمس والقمر.

٢ – جاء فى حديث معاذ بن جبل ﷺ قول النبى ﷺ: "الصومُ جُنّة، والصدقة تُطفِىءُ الخطيئةَ كما يطفىء الماء النارّ، وصلاة الرجل من جوفِ الليل شعارُ الصالحين..."(٢)

فقوله ﷺ: "صلاة الرجل" من باب تغليب الرجل على المرأة لشرفه وقوامته، والمعنى يقضى أنّ حكم النساء كذلك.

عاشراً: أسلوب الحكيم:

أسلوب الحكيم هو ضرب من التّفنن فى الجواب، وذلك بصرف المخاطب – فى شىء من اللباقة واللطف – عن الموضوع الذى هو فيه، إلى

---

(١) فتح البارى – الإجارة – ٥٢٥/٤، وصحيح مسلم ٥٦/٥٥/١٧ وانظر دليل الفالحين ٧٣/١، ٣٩/٣.

(٢) سنن الترمذى –الإيمان – ٣٢٨/٢ وابن ماجة – الفتن – ٣٥٩/٢.

ضرب آخر من الحديث، يراه المجيب أجدر بالمخاطب وأولى، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال آخر، وإما بحمل كلامه على غير قصده، إشارة منه إلى ما كان ينبغي عليه أن يسأله، أو يقصد إليه.

عن أنس ﷺ "أن أعرابيا قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟

قال له رسول الله ﷺ: ما أعددت لها؟

قال: حبَّ الله ورسوله.

قال: أنت مع مَنْ أحببت"(١)

قول النبى ﷺ للأعرابى: ما أعددت لها؟ من أسلوب الحكيم، لأن الأعرابى سأل عن الوقت (زمان الساعة) وكان جواب النبى ﷺ فى صورة سؤال صَرَف به المخاطب إلى ما كان ينبغى أن يسأل عنه، فكأنه يقول له: ما لك ولوقتها، إنما يهمك التزود لها، والعمل بما ينفعك فيها، وكأن الأعرابى قد تنبه إلى قول رسول الله ﷺ فطرح ذكر أعماله، لأنه لا يرى لها قدراً إلى جانب ما فى قلبه من مخصوص محبة الله سبحانه ورسوله ﷺ فقدمه بين يديه.

لذلك كافأه رسول الله ﷺ ، وسارع ببعث المسرة والطمأنينة إلى قلبه بالبشرى، وقال له: **"أنت مع من أحببت"**.

٢ - عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله: ما النجاة؟

قال: "أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك"(٢)

وهو الأسباب الموصلة إلى النجاة، لأنها الأهم والأجدر بالنسبة للسائل، فإن التزمها فاز - بإذن الله - بالنجاة، وهذا التوجيه غير المباشر إلى تحقيق مراد السائل أدعى إلى امتثاله، والمداومة على الأخذ به.

٣ - عن أنس ﷺ قال: "مرّ رسول الله ﷺ على امرأة تبكى عند قبر، فقال لها: اتقى الله واصبرى.

---

(١) صحيح مسلم - البر والصلة - ١٨٧/١٦.

(٢) الترمذى - الزهد - ٢٨٧/٢ ، الترغيب والترهيب - الترغيب فى الصمت إلا عن الخير - ٣/٤

فقالت: إليك عنى .... ولم تعرفه ...

فقالت: لم أعرفك يا رسول الله.

فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى"(١)

قول المرأة للنبى ﷺ: لم أعرفك يا رسول الله، اعتذار عن قولها "إليك عنى" ولكن الرسول أجابها بقوله: "إنما الصبر عن الصدمة الأولى" وذلك على أسلوب الحكيم، كأنه أراد أن يقول لها: دعى الاعتذار، فإنى لا أغضب لغير الله، ولكن انظرى إلى نفسك فى تفويتك الثواب الجزيل بعدم الصبر عند مفاجأة المصيبة، لأن الثواب الأكبر لمن ملك نفسه وقوى إيمانه عند مفاجأة المصيبة.

٤ - عن بهيسة الفزارية ؓ قالت: "استأذن أبى النبى ﷺ ... ثم قال: يا رسول الله ما الشىء الذى لا يحل منعه؟

قال: الملح.

قال: ما الشىء الذى لا يحل منعه؟

قال: الماء.

قال: ما الشىء الذى لا يحل منعه؟

قال: أن تفعل الخير خير لك.(٢)

هنا يسأل الصحابى رسول الله ﷺ عن الشىء الذى لا يحل منعه، فيجيبه النبى ﷺ بأمور من المنافع المشتركة التى يكثر سؤالها، ويعظم نفعها، ويخف على المانح بذلها، ولكن السائل لم يكتف، فيلح بالسؤال، فيجيبه ﷺ بقوله: **"أن تفعل الخير خير لك"** وكأنه ينبهه إلى السؤال الذى كان أولى من سؤاله، أى ينبغى أن يكون سؤالك: أى الأفعال خير لى؟ أو أى الأعمال خيرٌ لى؟

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ٢٢٧/٦، ٢٢٨ وفتح البارى - الجنائز - ١٧٧/٣.

(٢) المنهل العذب المورود فى سنن أبى داود ٣١٦/٩.

إن هذا الضرب من البلاغة ألطف فى الرد، وأكرم للمخاطب، وأدل على ذوق المجيب إذ يحمل المخاطب على الرجوع إلى نفسه، ومقارنة السؤال بالجواب، واستنباط الحكمة من المفارقة، حتى يوحى إليه التظليل أن السؤال المقدر كان هو الأجدر، والنفس إذا استشعرت الفائدة من التوجيه والنصح، وما يصحبهما من تلطف، أقبلت على فعله والتزامه، راضية غير ملولة.

حادى عشر: إيثار لفظ على آخر:

الكلمة من حيث هى دالة على معنى قد تتميز عن غيرها أحيانا، والذى يميزها أن تفى بالمعنى المراد، وأن تشيع جواً من المتعة بخصائصها الدلالية ومكانها فى الجملة.

وكلام النبى ﷺ "كلام قيل لتصير به المعانى إلى حقائقها ... كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان"(١) لذلك نراه يؤثر التعبير بلفظ معين دون غيره لما له من دلالة خاصة لا يؤديها غيره فى موضعه.

١ – ومن شواهد ذلك فى حواره ﷺ ما جاء فى حديث "الحياء" عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: "... ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى"(٢)

عبّر فى الجملة الثانية عن "الدنيا" بلفظ "الأولى"، وسميت الدنيا لدنوها، وعدل عن لفظ الدنيا إلى الأولى للدلالة على أنها ابتداء غير مقصود لذاته، ومنتقل منه، لأنه أول العدد فى الترتيب، وذلك سر العدول عن ضمير الدنيا إلى لفظ الأولى فى الجملة ذاتها. ودنو الدنيا يستلزم علو الآخرة، وكان يقتضى تهميتها الأولى إطلاق لفظ الثانية على الآخرة، لكن لفظ الثانية يدل كما دل لفظ الأولى على المنزلة التالية لها فى الترتيب العددى، فينتظر السامع ثالثا، وإذ

---

(١) وحى القلم ١٩/٣.

(٢) سنن الترمذى ٦٣٧/٤ (ط الحلبى).

لا يوجد الثالث تعين التعبير بما يدفع الوهم والانتظار، فلفظ الآخرة يدل على النهاية والثانية معا فى هذا المقام.(١)

٢ - عن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها... ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكن تعلمت ليقال: عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسّع الله عليه ... قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد..."(٢)

فى قوله ﷺ "تعلم العلم وعلمه" عدول عن قوله "آتاه الله علما" كنظيره، إيماء إلى أن طريق حصول العلم عادة التعلم، وحذف مفعول (علمه) الثانى لإفادة التعميم، وتقدُّم تعلُّم العلم ذكراً على قراءة القرآن، يومىء إلى تقديم الاشتغال بالعلم على الاشتغال بقراءة القرآن، لكثرة فرض العين منه، بخلاف ذلك من قراءة القرآن فهو الفاتحة.(٣)

وفى قوله (فعرفه نعمه) آثر صيغة الجمع - وفيما قبله بالمفرد - إيماءً إلى عظم العلم، وأن نعمة العلم بمنزلة أنعم كثيرة من غيره.

وقوله "**وقرأت ليقال هو قارىء**" أثبت المبتدأ هنا - فى هذه الجملة - وحذفه من التى قبلها تفننا فى التعبير، وتنويعا لما يقتضيه المقام.

(فقد قيل) "**قيل**" بالبناء للمجهول، لأن القائل غير معلوم، والقائلون كثير والجملة توحى بالتوبيخ والتأنيب وحقارة المراد الذى تحقق، لأنه نظير للرياء الذى صاحب العمل.

---

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ٢٣١.

(٢) صحيح مسلم الإمارة ١٣/٥٠.

(٣) دليل الفالحين ٤/٤٦٨، ٤٦٩.

وفى قوله ﷺ **"ولكنك فعلت"** عبر بـ**"فعلت"** دون **"أنفقت"** ليدل على أن ما توهمه الرجل إنفاقا ليس كذلك، لأنه على وجه الرياء وليس إخراجاً فى سبيل الخير، يبتغى به وجه الله، فهو نِفَاق لا إنفاق.

٣ - عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ

قال: "إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة،

فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير فى يديك،

فيقول: هل رَضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك،

فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟

فيقولون: وأى شىء أفضل من ذلك؟

فيقول: أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا"(١)

التعبير "بالرب" فى هذا المقام دون لفظ الجلالة، لما يتضمن معناه من التربية والإيصال إلى أوج الكمال، وذلك مدلوله، فأوثر لمناسبته لكمالهم الذى وصلوا إليه "والخير فى يديك" ذَكَرَ الخيرَ وسكت عن الشر مع أن الكل بيديه، تنبيها على الأدب فى خطابه تعالى، إذ لا يضاف إليه إلا كل جميل، كما أرشد إليه بقوله تعليما للعباد **﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم﴾** (الفاتحة٧).

"أحل عليكم رضوان فلا أسخط بعده أبدا" فى إحلال الرضوان، ونفى السخط مقابله تبعث المسرة والطمأنينة إلى قلوب أهل الجنة، لأن رضا الله تعالى سبب كل نور وسعادة، وإذا عَلِمَ العبد أن ربه راضٍ عنه كان أقرّ لعينه، وأطيب لقلبه من كل نعيم، لما فى ذلك من التعظيم والتكريم.(٢)

---

(١) صحيح مسلم ١٦٨/١٧.

(٢) دليل الفالحين ٧٦٢/٤ (بتصرف).

٤ - عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:
"ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ...
قال أبو ذر: خابوا وخَسِروا، من هم يا رسول الله؟
قال: المسبل والمنّان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب".(١)

فكلمة: "المنّان" صيغة مبالغة على وزن فعّال، تدل على تكرر ذلك منه بكثرة لدرجة أنه وصف به، والعدول إليه عن المانّ، فيه إيماء إلى عدم دخول مَنْ صدر منه المنّ مرةً مثلاً، فى هذا الوعيد الشديد، وإن كان مطلقه منهيًا عنه محرماً.(٢)

٥ - وفى حديث معاذ بن جبل ﷺ قوله للنبى ﷺ : "أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار"(٣)

فأخرج "يباعدنى" على زنة "فاعلتُ" مبالغة فى البعد، ومن بلاغة العبارة، قوله (أخبرنى) دال على التأدب والترفق فى الطلب.

وتنكير "عمل" دالّ على عظم وفخامة ذلك العمل، حيث يفهم ذلك من وصفه بعده.

وجملة الصفة (يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار).

٦ - عن بُرَيْدَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :
"هل تدرون ما مثلُ هذه وهذه؟ (ورمى بحصاتين)
قالوا: الله ورسوله أعلم.
قال: هذاك الأمل، وهذا الأجل"(٤)

---

(١) سنن أبى داود - اللباس - ٤/٥٦.
(٢) دليل الفالحين ٤/٤٣٩.
(٣) سنن الترمذى - الإيمان - ٢/٣٢٨، وابن ماجه - الفتن - ٢/٣٥٩.
(٤) سنن الترمذى - الأمثال - ٥/١٥٢ طبعة الحلبى.

ما أدق البيان النبوى فى اختيار لفظى الإشارة مطابقين للبعد المسافى (هذاك) للأمل، و(هذا) للأجل، **فالأول** يدل على البعد، **والثانى** يدل على القرب، "وأدق من ذلك، إلحاق إشارة الأمل بكاف الخطاب، لشدة وعى المخاطب له، وتمثله حاضرا دائما، وترك ذلك مع الأجل، مطابقة لعدم التنبيه إليه، لغياب صورته فى زحمة الآمال"(١).

وأكثر من ذلك دقة مطابقة البعد الزمانى للكلمة للبعد المسافى، نلحظ ذلك عند النطق بالكلمتين (هذاك) تستغرق زمنا أطول فى نطقها، لاشتمالها على مدين طويلين، أما الكلمة الأخرى (هذا) تستغرق زمنا أقل، وفى ذلك دلالة على مطابقة البعد الزمنى للبعد المسافى، فالكلمة فى الحديث النبوى دقيقة فى موضعها، معبرة على المعنى أحسن تعبير، دالة بأصوات حروفها على معناه.

خروج الجملة عن مقتضى الظاهر:

من أضرب الخبر: **خبر ابتدائى** (خالى من المؤكدات) وهذا يلقى للمخاطب الخالى الذهن من الخبر، **وخبر طلبى** (مؤكد بمؤكد واحد استحسانا) وهذا يلقى للمخاطب المتردد فى صحة الخبر، **وخبر إنكارى** (مؤكد بعدة مؤكدات) وهذا يلقى للمخاطب المنكر أو الشَّاك فى الخبر.

هذا ما يسميه البلاغيون مطابقة الخبر لمقتضى الظاهر، ولكن قد يحدث عدول عن مقتضى الظاهر فيخاطب خالى الذهن خطاب المنكر، أو يُنزّل السائل المتردد منزلة المنكر وهكذا.

ومن شواهد ذلك فى الحوار النبوى:

١ - عن أنس ﷺ قال: "عطس رجلان عند النبى ﷺ فشَمَّتَ أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال الذى لم يشمته: عطس فلان فشمته، وعطست فلم تشمتنى؟ فقال: هذا حَمِدَ الله، وإنك لم تَحمَدِ الله"(٢)

---

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ٣٦٨

(٢) صحيح مسلم - الزهد والرقائق - ٥٣٠٧ وفتح البارى - الأدب - ٥٧٥٧

الخبر فى قول النبى ﷺ "وإنك لم تحمد الله" مؤكد بإن، والرجل ليس منكراً، فكان مقتضى الظاهر أن يقول له "وأنت لم تحمد الله"، وإنماأكد - مع أنه لا إنكار من الرجل - لما قد يومىء إليه سؤاله: (عطس فلان فشمته، وعطست فلم تشمتنى؟) فلما كان سؤاله يومىء بشىء من الإنكار، نُزِّل مترلة المنكر، فألقى إليه الخبر مؤكداً.

٢ - لما اجتمعَ الناس بكُراع الغميم على النبى ﷺ بعد شهادهم الحديبية خطبهم فقرأ ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾

فقال رجل: أفتح هو؟

قال: "والذى نفس محمد بيده إنه لفتح"(١)

قول النبى ﷺ : "والذى نفس محمد بيده إنه لفتح" ردٌّ على الصحابى الذى لم يعُدَّ صلح الحديبية فتحا، فكأنه بسؤاله - أفتح هو؟ ينكر أن يكون فتحاً، فاقتضى المقام هذا التأكيد، وهو مما اجتهد فيه الرسول ﷺ بإطالة القسم - والذى نفس محمد بيده - ثم بإن ولام التأكيد الواقعة فى خبرها، نزعاً لما حاك فى صدر السائل وأمثاله. فالخبر يؤكد بأكثر من مؤكد حسب حال المخاطب من الإنكار.

٣ - ومن حديث النبى ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ "لقد سألتنى عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه"(٢)

"لما أوهم قوله **"لقد سألت عن عظيم"** امتناع ذلك وعزته، صار توهُّم يُسْرِه كالمنكر عند المخاطب أو السامع فترل مترلته"(٣) فهو من تتريل غير المنكَر مترلة المنكر، لذلك أتى بالمؤكدات لدفع ذلك فقال: "وإنه ليسير ..."

(١) سنن أبى داود - الجهاد - ٧٦/٣.

(٢) سنن الترمذى - الإيمان ٣٢٨/٢، وابن ماجة - الفتن - ٣٥٩/٢.

(٣) دليل الفالحين ٣٥٤/٤.

٤ - عن ابن عمر ﷺ عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : "إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟ الحديث(١)

قول النبى ﷺ "إن من الشجر شجرة" مخرج على خلاف مقتضى الظاهر، لأن المخاطبين فيه كانوا مستشرفين كاستشراف الطالب المتردد، فلذلك حَسُنَ تأكيده "بإن" وصوغه بالجملة الاسمية، وكذلك قوله ﷺ: "وإنها مثل المسلم" فخرج على خلاف مقتضى الظاهر كالجملة السابقة، أما قوله "لا يسقط ورقها" صفة سلبية تبين أن موصوفها (شجرة) مختص بها دون غيره.(٢)

وجملة الصفة (لا يسقط ورقها) تشعر أيضا بدوام ظلها الذى يشبه دوام خير المؤمن.

(١) فتح البارى - العلم - ١/١٧٥، ١٧٨، ٢٧٧ والترمذى (فى الأمثال) ٢/٣٨٠، وعمدة القارىء ٢/١٤.

(٢) عمدة القارىء ٢/١٤.

الاستفهام فى الحوار النبوى

غالب الحوار فى البيان النبوى قائم على السؤال والجواب، سواء بدأ النبى الحوار بالسؤال أو كان مبدوءاً هو بالسؤال، لذلك كثر الاستفهام فى الحوار النبوى، سواء على معناه الحقيقى أو على معناه المجازى، هذا إلى جانب ما يتميز به الحوار من مخاطبة الإنسان فى أكثر من جانب، جانب العقل، وجانب الوجدان، والجانب النفس. فإذا خاطب فيه جانب العقل كان الاستفهام طريقا إلى الإقناع بالحجة وإقامة الدليل العقلى، يؤيده الدليل النقلى، أو المفاجأة بالدليل المنطقى، أو قياس التمثيل، أو الموازنة بين أمرين متناقضين، مما يثير انتباه المخاطب ويستحضر عقله، ويقوده إلى سلم الاعتراف.

أولاً: الاستفهام والجانب العقلى:

١ - عن أبى هريرة ﷺ قال: **قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يقول: اقرءوا ﴿فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناسَ عليها﴾ فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جَمْعَاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعَاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟**

قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟

قال: الله أعلم بما كانوا عاملين"[١] وزاد مسلم "إذ خلقهم".

إن من الخطأ أن تُعالَج قضايا الدين بعيداً عن الواقع، أو تعالج قضايا الواقع بعيدا عن فطرة الدين، والرسول ﷺ فى هذا الحديث يأخذ دليل قضيته من الكتاب العزيز، فالقضية أن كل مولود يولد على الفطرة، والدليل من القرآن ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها﴾ (الروم ٣٠) وهذا دليل نقلى يؤكد القضية ويقررها.

فالمولود يُخْلَق سليم الفطرة، مهيأ لما يلقن من خير أو شر، وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه بما يبثان فيه من ألوان العقيدة والسلوك.

---

(١) فتح البارى - القدر - ٥٠٢/١١ - الجنائز - ٢٩٠/٣، ومسلم - القدر - ٢٠٩/١٦.

ثم يؤكد الرسول القضية بدليل آخر من قياس التمثيل، يشخص به المعنى أمام عين المخاطب تشخيصا يشهده فى بيئته، بل ويعالجه بنفسه ويصنعه بيده، ليكون الاقناع أشد بالحجة الأوقع، فيقول ﷺ : "فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء" أى مستجمعة الخلق، سليمة القرن، كاملة الأعضاء، ليس فيها عيب، فيتناولها صاحبها بالجدع أو بالوسم.. وهذا ما نراه فى الوقع ملموسا، فمن الناس من يشق أذن البهيمة أو يقطع جزءاً من أذنها، ومنهم من يقوم بخصائها أو قطع ذيلها، أو كيّها بالتأثير فيها، وغير ذلك مما يشوهها، فالرسول يأتى بالدليل المادى الملموس، ليقرب الفهم وليقنع بالدليل.

هنا أشار الرسول ﷺ بهذا التمثيل إلى الفساد الحاصل بفعل الإنسان فى الشيء الذى أحسن الله خلقه، ليحذرنا من الاعتداء على الفطرة.

والرسول ﷺ يطرح سؤالاً له موقعه فى جملة التمثيل، وهو قوله "هل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟" والرسول ﷺ يعلم أن الإجابة بالنفى، ولكنه يريد من المخاطب أن يفتش فى إحساسه، ويجيب بنفسه، ولا يجد إذن إلا الجواب بالنفى، فيكون جوابه تصديقا من جهته، وإذعانا ملزما بالاقناع، وذلك سمو البيان النبوى فى الاستفهام التقريرى.

٢ – من حديث أبي ذر فى بيان الصدقات قوله ﷺ: "... وفى بُضْعِ أحدكم صدقة،

قالوا: يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكونُ له فيها أجر؟

قال: أرأيتم لو وضعها فى حرام، أكان عليه وزر؟

قالوا: نعم.

قال: كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر".(١)

---

(١) صحيح مسلم – الزكاة – ٧/٩١، ٩٢

يتعجب الصحابة من أن يأتى الرجل شهوته ويكون له بها أجر، وهنا يطرح الرسول ﷺ سؤالا مبنيا على المفارقة، ويقرن بين الضدين: "أرأيتم لو وضعها فى حرام، أكان عليه وزر؟"

قالوا مقرين: نعم، قال: كذلك لو وضعها فى الحلال يلزمه الأجر والثواب.

وهكذا استطاع الرسول ﷺ أن يزيل تعجب الصحابة، ويؤكد لهم أهمية الحلال ليرغبهم فيه، فينفروا من الحرام .. كل ذلك بطريق الاستنباط من خلال الحوار الهادف، وذلك أدعى إلى الإقناع والفهم الصحيح، والتمسك بمضمونه والمداومة عليه.

٣ - عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق والناس كَنَفَيْهِ فمر بجَدْى أسَكَ ميّت، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: "أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟

فقالوا: ما نحب أنه لنا بشىء، وما نصنع به؟

قال: تحبون أنه لكم؟

قالوا: والله لو كان حَيًّا كان عيبا أنه أسك، فكيف وهو ميت؟

فقال: فوالله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم"(١)

يريد الرسول ﷺ أن يقرر فى نفوس الصحابة تفاهة الدنيا حتى لا ينشغلوا بها، فاتخذ الحوار المصحوب بالتمثيل القريب المحس وسيلة للوصول إلى هدفه.

وطبيعة الحوار هنا تعتمد على السؤال والجواب، وتوليد السؤال من الجواب لقسر انتباه المخاطبين، واستدراجهم إلى الحكم المراد تقريره.

وقد لجأ النبى ﷺ إلى استخدام أسلوب أشد تأثيراً وأسرع بلوغاً بالمخاطبين إلى الهدف وهو أسلوب **"الاحتكام إلى النفس"**.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب الزهد - ٩٣/١٨

فقوله ﷺ: "أيكم يحب أنّ هذا له بدرهم؟" استفهام إرشاد وتنبيه، ليلقوا السمع لما يوجه إليهم من الخطاب الخطير فى ضمن التمثيل بهذا الممثل به الحقير، ثم قوله ﷺ: "تحبون أنه لكم؟" أى من غير شىء (ولعل الرسول قال ذلك تأكيدا للمقام، إذ أنهم رفضوا ذلك فى جوابهم أولاً).

والرسول ﷺ هنا يقيم موازنة بين أمرين: أمرٍ يتنازعون عليه (الدنيا ومتاعها الزائل) وأمرٍ لا يحبون أن يكون لهم بشىء (جدى أسك ميت) - إنها صورة مزرية بشعة منفرة. وعن طريق الحوار استدرجهم حتى وصل بهم أن قرروا بأنفسهم حقارة الممثل به وتفاهته، وإذ أنهم أقروا ذلك بأنفسهم، فيلزم أن يقروا حقارة الدنيا وهوانها، وذلك أدعى إلى الاقتناع وهذا ما يسمى بأسلوب الاحتكام إلى النفس.

ومن بلاغة العبارة المقررة للحكم فى نهاية الحوار استخدام اسم التفضيل مسنداً فى الجملة الابتدائية، تصعيداً للمعنى، وزيادة فى قسر الانتباه.

وذكر المفضل عليه مع المفضل - وهو أمر يبلغ الغاية فى جنسه - تحقيرٍ لشأن المفضل السابق وهو المسند إليه المرتكز على اللام (للدنيا) تعجيلاً لالتفات السامع، وإسراعا باهتمامه، فإذا صدر الحكم أقره بنفسه، وهو أن الدنيا عند الله تعالى أذل وأحقر من هذا عندكم.

هذا وناهيك عما فى العبارة من وسائل التوكيد (القسم واللام) مما يزيد المعنى تقريرا.

٤ - عن أبى هريرة ﷺ قال: جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى ﷺ ، فقال:

إن امرأتى ولدت غلاما أسود (وهو حينئذٍ يعرّض بأن ينفيه)

فقال النبى ﷺ: هل لك من إبل؟

قال: نعم.

قال: فما لونها؟

قال: حمر.

قال: هل فيها من أَوْرَق؟

قال: إن فيها لورقا.

قال: فأنى أتاها ذلك؟

قال: عسى أن يكون نزعه عرق.

قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عرق[(١)]

هنا تتجلى حكمة النبى ﷺ فى إزالة الشك من نفس الرجل، وإقناعه بنسبة الغلام إليه، إذ جعل الحوار القائم على الاستفهام وسيلة لاستدراج الرجل، والأخذ بيده للوصول إلى الحقيقة، واتخذ المنطق المبنى على قياس التمثيل وسيلة حيوية لإحالة المخاطب إلى الدليل المحس المشاهد، وتركه يحتكم إلى نفسه، ليستخلص الحكم الصحيح الذى لا شك فيه، لئلا يشعر بأن شيئاً فُرض عليه.

هكذا كان الحوار جذابا مفحما للرجل عن طريق الاستفهام، مع الموازنة التى مثل بها النبى ﷺ ، ومن الواضح أنه اعتمد على ما هو معروف عند المخاطب من أن له إبلا. وهذه قدرة قادرة وهبها النبى ﷺ فى توظيف الحوار، وتطويع المعطيات وحسن استخدامها، للوصول إلى المطلوب.

٥ - عن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: "أيكم مالُ وارثِه أحبُّ إليه من ماله؟

قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه.

قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر"[(٢)]

غرض الرسول ﷺ من هذا الحوار، توجيه المخاطبين إلى بذل المال فى سبيل الخير، وعدم التقاعس عن إخراج الصدقة وتقديمها لمستحقيها، ولكى يمكن لهذا المعنى أن يعلق بأذهانهم، بدأ الحوار باستفهام يضع العقل من

---

(١) مسلم - اللعان - ١٠/١٣٣ وفتح البارى - الحدود - ١٢/١٨٢.

(٢) فتح البارى - الرقاق - ١١/٢٦٤، ٢٦٥.

المخاطب لسان الميزان، ليصل عن طريق النظر فى العاقبة إلى اختيار السبيل الأفضل.

ولا يخفى ما فى الحوار من التلطف فى النصح القائم على المقارنة بين ماله ومال وارثه، وذلك - بدون شك - خير من الأمر المحض فى الحث على بذل المال فى سبيل الخير، لأن السائل يحصل بالاستفهام على حكم من المخاطب يخجل لو تعداه، فهو حكم منه على نفسه، وهنا يكون الاقناع بالحكم، فيتقرر لدى المخاطب ويلتزم به، وما أبلغ قول الرسول فى نهاية الحوار مقرراً الحكم بقوله **"فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر"** عبارة دقيقة تؤكد الحكم تأكيد معنويا بطريق المقابلة التى تكسب الحكم قوة وتثبيتا، لأن المرء إذا علم أن ما يقدمه من ماله يكون له ثوابه فى الآخرة، وأن ما يؤخره من ماله لا يكون له من شيء فى الآخرة، بل سيكون لوارثه من بعده، ولا يدرى ما يفعل به وارثه، لَسَارع إلى الإنفاق.

إذن فما تضمنته العبارة من شِحنة دَافقة للإنفاق بعدما سبقها من حوار، انتهى بحكم المخاطب على نفسه بأن ماله أحبّ إليه من مال وارثه، ليجعله يسارع إلى الانفاق فى سبيل الله عن طيب خاطر، ورضا بما يصنع.

ثانياً: الاستفهام والجانب الوجدانى:

وإذا خاطب النبى ﷺ الوجدان كان الحوار طريقا إلى امتلاك المشاعر والعواطف، وغزو مناطق الشعور، للتخلص من داء خطير، أو معالجة مشكلة اجتماعية أو دينية، ليسلم المجتمع ويتعايش أفراده آمنين.

وللنبى ﷺ قدرة عجيبة فى توظيف الاستفهام فى تعميق مبادىء الدين، وتوجيه الشباب المسلم من الرعيل الأول إلى استلهام هذا الدين عقيدة فى الفكر والتصور، وطريقة فى السلوك وواقع الحياة.

١ - عن أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه "أن فتى شابا أتى النبى ﷺ

فقال : يا رسول الله، ائذن لى بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه.

فقال ﷺ : ادْنُهْ(١)

فدنا منه قريبا فجلس، فقال ﷺ له: أتحبه لأمك؟

قال: لا والله يا رسول الله، جعلنى الله فِداك.

قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم.

قال: أفتحبه لابنتك؟

قال: لا والله يار سول الله، جعلنى الله فداك.

قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم ... ثم ذكر له الأخت والعمة والخالة والشاب يجيب بإجابته نفسها، فوضع الرسول ﷺ يده عليه وقال "اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه"(٢)

لقد كان الزنا شائعا فى الجاهلية، وعندما جاء الإسلام حرّمه، وفى أوقات التغيير يحتاج بعض الناس وقتا كافيا لاستيعاب الأمر والتخلص من إلف العادة، فعلمنا النبى ﷺ أن الأمر يحتاج إلى وسيلة مناسبة، وأسلوب من التوجيه والشرح والإيضاح مناسب لجلاء الأمر للناس، على نحو تتقبله عقليتهم وطريقة تفكيرهم، ويلائم أسلوبهم فى الحياة.

ومنطق الرسول ﷺ هنا وأسلوبه فى الاقناع مع رفقه بالشاب ولينه، كان أشد امتلاكا لقلب الفتى وعقله من زجر الصحابة، لأن كلام الرسول ﷺ للفتى يلمس كرامته فى أزكى وتر، وكبرياءه فى أغلى ما يُصَان.

ثم ترديده على هذا الوجه من الاستفهام التقريرى، هدم لنزوة الفتى واستئصال لحسه بالاشتهاء.

وفعل الرسول ﷺ من وضع يده على الفتى، ودعائه له بالخير مكافأة له، وإعانة على التمسك بأصول دينه، وحكمة من الرسول ﷺ وسداد.

---

(١) هو فعل أمر من الدنو، وهو القرب، والهاء فيه للسكت، جيء بها لبيان الحركة [النهاية لابن الاثير ٣٣/٢].

(٢) مسند أحمد - باقى مسند الأنصار - ٢١١٨٥

هكذا يلمس الرسول ﷺ أوتار القلوب، ويحرك كامن الوجدان، ويجـوس خلال النفوس، ويثير الحاكم العاطفى من الحاكم العقلى، ويقيـــم الحـــاكم الوجدانى للفصل فى قضايا الحِلّ والحرمة، حفاظا على الخلق وتقديسا للفطرة.

إن تعمد الاقناع يدفع صاحبه إلى أن يجرى القول فى نســق متسلســل، يأخذ بعضه بحُجُزِ بعض، ويُسْلِم أوله إلى آخره فى غير مشقة، وأقوى الكـلام ما طرق العقل طرقا يعيه المخاطب بتأمله، حتى إذا بلغ موضعه من فكره انتقل تأثيره إلى وجدانه، فيقتنع به اقتناع الواثق.

لقد أدى الحوار النبوى دوره الأدبى، إذ تدرج مع المخـــاطب بالســؤال والجواب تدرجا متسلسلاً يأخذ بمجامع قلبه، ويصعّـــد فى نفســه الشــعور بخطورة مطلبه، حتى يصل فى النهاية إلى الهدف الدينى، وهو كراهـــة ذلـــك الفعل وبغضه، فقد قام الشاب من بين يدى النبى ﷺ وليس شىء أبغض إليــه من الزنى.

لقد كان ﷺ أول الناس شعوراً بالكرامة، وأصدق الناس حساً بـــالعرف، لا أنفة فارغة بالحق، ولا حمية جاهلية بالضلال، بل إباءً لله الحق وحفاظا على حدوده وحماه.

٢ - عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: دخـــل رســول الله ﷺ ذات يــوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أُمامة.

فقال: يا أبا أمامة، مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة؟

قال: همومٌ لزمتنى وديونٌ يا رسول الله.

فقال ﷺ : "ألا أعلمك كلماتٍ إذا قلتهن أذهب الله عنك همـــك وقضى دينك"؟

قال: قلت: بلى يا رسول الله.

قال: "قل إذا أصبحت وإذا أمسيت، اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن، وأعوذ بك من العجزِ والكَسَل، وأعوذ بك من

الجبن والبخل، وأعوذ بك من غَلَبَةِ الدَّيْنِ وقهر الرجال" فقلت ذلك، فأذهب الله عنى غمى، وقضى دينى(١).

إن معالجة الرسول لحالة أبى أمامة معالجة حكيمة، بدأ العلاج بالنداء الرفيق (يا أبا أمامة) يناديه بكنيته تلطفا وإشفاقا وإيناساً، ثم يسأله فى رفق رفيق: "مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة؟ استفهام يدل على اهتمام الرسول بأبى أمامة، ومشاركته له فيما أهمّه، ويستدرجه بالسؤال إلى معرفة موطن الداء ليصف له الدواء.

فما أن عرف الرسول ﷺ السبب حتى بادر بتقديم العلاج، ولكن للرسول ﷺ حكمة فى العرض، فيقول لأبى أمامة: **"ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن أذهب الله عنك همك وقضى دينك؟"** استفهام تشويقى لاستحضار نفس المخاطب وعقله، وتنكير "كلمات" يدل على قلة لفظها وقيمة مضمونها، وأثرها الطيب فى علاج نفسية أبى أمامة.

فالسياق بهذا الترتيب من عرض السؤال مفتتحا بأداة العرض "ألا"، ثم تعقيبه بالجواب، يقرر مضمون العلاج، ويسوقه إلى أعماق النفس، لوقوعه موقع المنتظر المطموح إلى عمله.

لذلك كانت إجابة الصحابى "بلىَ يا رسول الله" إجابة توحى بالتلهف والتشوق إلى العلاج، والتعلق برسول الله ﷺ والطمع فى رحمة الله.

وعندئذ يقدم له الرسول العلاج، فيقول له "قل إذا أصبحت وإذا أمسيت اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن..." ينبهه الرسول أن يستعيذ بالله من هذه العوائق السلبية التى تفسد على المسلم دينه ودنياه.

يقول الصحابى الجليل: فقلت ذلك - والإشارة بذلك تعظيم لقول رسول الله ﷺ - فأذهب الله عنى غمى، وقضى دينى.

لقد لزم الصحابى الجليل المسجد فى غير وقت صلاة، هاربا بالهم والدَّيْنِ من ميدان الجهاد، والهرب ضعف نفسى لا يسد ديناً ولا يحقق رجاء، إذن

(١) سنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب فى الاستعاذة - ٢/٩٤، ٩٥.

فعلاجه أن يُعلّم فى رفق أن العلاج ليس فى الجلوس فى المسجد وترك الأخذ بالأسباب، بل عليه أن يخرج إلى السوق نشيطا تاركا الهم والحزن والعجز والكسل، يعمل فى جدٍّ ويسعى فى نشاط، ليسُدَّ الدين ويخرج من الهم، مع ملازمة الدعاء والتوجه إلى الله، طالبا منه وحده أن يصرف عنه ما ألّم به من الهم والحزن.

٣ - عن أبى هريرة ﷺ قال:

أتت امرأة النبى ﷺ بصبى لها فقالت:

فقالت: يا نبى الله! ادع الله له، فلقد دفنت ثلاثة.

قال: "دفنت ثلاثة"؟

قالت: نعم.

قال: "لقد احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ شديد من النار"(١)

هذه امرأة تأتى النبى ﷺ ومعها وليدها تخاف عليه - لأنها فقدت ثلاثة قبله - وتطلب من النبى ﷺ أن يدعو الله له بخير وطول سلامة.

ويسألها النبى ﷺ "دفنت ثلاثة"؟

استفهام فى موضعه أو فى محله، أراد النبى به ﷺ مواساة المرأة واستدراجها إلى راحة نفسية لبث الشكوى، فالطريق إلى ذلك أن يستفرغ ما فى قلبها من خوف وقلق ويشعرها بالأمن والاطمئنان .. إنه علاج الطبيب الحكيم الخبير بالنفوس، ثم نراه يفاجئها بالبشرى الكبرى والجزاء الأعظم، فيقول لها: "لقد احتضرت بحظار من النار" أىُّ تعزيةٍ أكرم من هذه التعزية لهذه المرأة الثكلى؟ وأى ثواب أعظم من حظار يقى المرء من النار؟ وأى جمال بلاغى فى هذه العبارة التصويرية التى تجعل الأبناء المفقودين حظارا واقيا من النار؟

ومما يزيد التشبيه قوة، سقوط حرف التشبيه، وهذا لا يجعل الأبناء المفقودين شيئا والحظار شيئا آخر فيهز الثقة فى الحظار ويضعف الأمل فى الثواب، بل يجعلهما شيئا واحدا.

---

(١) مسلم - البر والصلة - ١٦/١٨٣.

هذا فضلا عن تأكيد المعنى **باللام وقد** الداخلتين على الفعل الماضى المسند إلى تاء الفاعل، وفى هذا الإسناد **مجاز عقلى علاقته المسببية.**

لقد شارك النبى المرأة فى مصيبتها، وخفف عنها آلامها، وصرف عنها الخوف والقلق، وواساها بالطمأنينة إلى روح الله ورحمته، وبشرها بالأجر العظيم والثواب الحسن الذى ينتظرها، ليعطيها طاقة من الأمل فى جزاء الصبر على قضاء الله بما يصيب المؤمن من مرض أو فقد عزيز أو ما أشبه ذلك.

أليس هو القائل: "**ما من مسلم يصيبه أذىً من مرضٍ مما سواه إلا حطّ الله له عنه سيئاته كما تحطُّ الشجرةُ ورقَها**"(١)

ثالثاً: الاستفهام والجانب النفسي:

للنبى ﷺ عناية كبيرة واهتمام شديد بمعالجة النفوس من أمراضها، وهو يتخذ الحوار والاستفهام طريقا إلى الإيناس والتلطف، وتفريغ النفوس مما يثقلها من أغراض أو أحقاد، ومحاولة تأمينها بالعلاج المناسب.

والشاهد على ذلك موقف الرسول ﷺ من الأنصار بعد توزيع الغنائم فى غزوة "حنين" - وقد ذكرت ذلك الموقف مفصلاً بجميع أبعاده (أسبابه ودوافعه ومعالجته)، لذلك لست أرى مبرراً من إعادة ذلك فليراجع فى موضعه.(٢)

---

(١) مسلم - البر والصلة - ١٦/١٢٧.

(٢) انظر حوار الرسول مع الأنصار ص .

الاستفهام والمعانى المجازية

الاستفهام من الأساليب الانشائية العجيبة فى مرونتها، فهو لا يقف عند معناه الحقيقى بل يتعداه إلى معان أخرى عديدة.(١)

ويستطيع القائل البليغ أن يتصرف به فى فنون التعبير المصورة لما يرتسم فى نفسه من انطباعات، فتراه أداة لتصوير الإعجاب أو التعجب، أو التقريــو، أو النفى، والإنكار أو التشويق، أو غير ذلك من المعانى الناشئة فى النفس بفعــل الدواعى، حتى يمكن للرسام أن يعطى لوجه المستفهم فى كل منها صورة مــن وحى تعبيره.

ويشغل الاستفهام مساحة كبيرة فى البيان النبوى، وبخاصة التى تضمنــت حواراً، لأن طبيعة الحوار قائمة على تبادل الحديث ومراجعة الكلام، قصــداً إلى الإقناع، فهو أميل إلى الاستفهام لما فيه من جاذبيــة خاصــة فى تنبيــه المخاطب، أو تشويقه، أو الإنكار عليه، أو إيناسه، أو تبكيته ... الخ.

أولاً: الاستفهام التشويقى:

١ - جاء فى حوار معاذ بن جبل ﷺ مع النبى ﷺ قوله : ألا أدلك على أبواب الخير؟ ... ثم قال: ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ ... ثم قوله: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟(٢)

فالمخبر به أشياء عظيمة تحقق لمعاذ مطلبه، وفوق مطلبه، لذلك عــزز الرسول ﷺ مطلب معاذ بقوله: "لقد سألتنى عن عظيم" ثم بدأ يشــوقه إلى معرفة المزيد من خيرى الدنيا والآخرة.

---

(١) الاستفهام الحقيقى: طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل، وله أدواته المعروفة. والاستفهام المجازى وهو ما خرج عن معناه الحقيقى فلا يطلب به العلم بشــىء وإنما يفيد معانى كثيرة يدل عليها بمعونة السياق كالنفى والتعجب والتشــويق ... الخ.

(٢) سنن الترمذى - الإيمان - ٣٢٨/٢ وابن ماجه - الفتن - ٣٥٩/٢.

٢ - وعن أبى هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: "ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ (ثلاث مرات)

قالوا: بلى

قال: خيركم من يُرْجَى خيره، ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره"(١)

صدر الحديث سؤال مهم به يتميز الضدان، بدء بأداة العرض "ألا" التى تدل على أهمية ما بعدها، فإذا ما تكرر الاستفهام مع الأداة ثلاث مرات، زاد بذلك من تشويق المخاطب إلى الجواب، ليطمئن إلى نفسه من أى الفريقين هو؟

ثانياً: التلطف والإيناس:

وقد يفيد الاستفهام معنى التلطف والإيناس كما فى هذا الحوار.

دخل النبى ﷺ على أم السائب (وهى مريضة بالحمى)

فقال لها: مالك يا أم السائب تزفزفين؟

فقالت: الحمى، لا بارك الله فيها ... الحديث.(٢)

قول الرسول ﷺ: "مالك يا أم السائب تزفزفين؟" استفهام فيه تلطف وإيناس لأم السَّائب المريضة، وهو يعرف من الأعراض مرض أم السائب، ولكنه تلطف سائلاً ليؤنسها بحديثه أولاً، وليستدرجها إلى راحة نفسية ببث الشكوى ثانيا، ثم ليعطيها طاقة من الأمل فى جزاء الصبر على قضاء الله ثالثا.

ثالثاً: اللوم والعتاب:

وقد يفيد الاستفهام معنى اللوم والعتاب كما فى قول الرسول ﷺ من حواره مع الأنصار لما أحسّ بما فى نفوسهم من موجدة، لأنه ميّز غيرهم عليهم فى الأنصبة - يقول لهم:

(١) الترمذى - الفتن - ٢/٢٥٦، طبعة مكتب التربية العربى لدول الخليج.

(٢) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - ١٣١/١٦

"أَوجِدْتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعَاعَةٍ من الدنيا تَألَّفْتُ بها قلوب قوم ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟

فالرسول ﷺ يوقع عليهم اللوم والعتاب، وينكر عليهم عدم إدراكهم ما يرمى إليه من تصرفه فى توزيع الغنائم، وتمييز فئات حديثى عهد بالإسلام بالأنصبة الكبيرة، وهو لم يفعل ذلك إلا ليؤلف قلوبهم، وليثبتها على الإسلام، أما هم فقد اطمأن إلى إسلامهم.

ما أجمل العبارة الاستفهامية وما أبلغها! إنها تصور المعانى بالألفاظ تصويرا مؤثرا فقد اشتمل السؤال على ثلاثة معان:

الأول: تشبيه الغنائم والأموال التى كانوا يرغبون فيها باللعاعة (البقل أول ما يبدو وهو ناعم رقيق) مشيرا بذلك إلى تفاهة متاع الدنيا، وأن ما عند الله خير وأبقى.

الثانى: إن كثرة العطاء ليست دليلا على التمييز وعلو الشأن، بل على العكس، لأن العطاء لأجل تأليف القلوب وتثبيتها على الإيمان.

الثالث: اطمئنان النبى ﷺ إلى إسلامهم، لذلك لم يكن بحاجة إلى أن يتألف قلوبهم، وهذا دليل على ثقته فيهم وتقديره المعنوى لهم.

رابعا: النفى:

وقد يفيد الاستفهام معنى النفى، كما فى حديث النبى ﷺ عن فضل الصلوات:

١ - يقول النبى ﷺ: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، أيبقى ذلك من دَرَنِه شيئا؟.. الحديث[1]

والنبى ﷺ لا يطلب جوابا عن سؤاله، وإنما يريد أن يقرر لأبناء أمته فضيلة الصلاة ويؤكد لهم أجرها وثوابها، فجعل التمثيل وسيلة إيضاح للتقرير، والغرض من الاستفهام "النفى" أى نفى أن يبقى الاغتسال من النهر

---

(١) فتح البارى ١٤/٢، ١٥ وصحيح مسلم ١٧٠/٥ والترمذى - الأمثال - ٣٨٠/٢

- كل يوم خمس مرات - من درن الإنسان شيئاً. وهذا أحسن وأفضل فى تقرير المعنى من سياق المعنى بالنفى الصريح المباشر.

٢ - عن جابر ﷺ قال: "... ونِمْنَا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونك وإذا عنده أعرابى

فقال: إن هذا اخترط علىّ سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صَلتا.

قال: من يمنعك منى؟

قلت: الله (ثلاثا) ولم يعاقبه وجلس".(١)

قول الأعرابى للنبى ﷺ من يمنعك منى؟ استفهام يتضمن معنى النفى، أى لا أحد يوجد الآن يمنعك منى، فظن لقصور نظره وعدم إيمانه أن السيف هو القاتل، ولم يدر أن الفاعل الحقيقى هو الله، وأنه يحول بين المرء وقلبه.

خامساً: الإنكـــار:

ومن المعانى المجازية للاستفهام أنه يفيد معنى الإنكار:

١ - عن عبدالله بن جعفر ﷺ قال: " ... مَنْ رَبُّ هذا الجمل؟

فقال فتى من الأنصار: هو لى يا رسول الله.

فقال: أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها؟ إنه شكا إلىّ أنك تُجيعه وتُدئبه."(٢)

هذا الاستفهام الأخير من النبى ﷺ يحمل معنى الإنكار واللوم والتأنيب لصاحب الجمل، وقد جعله بعيداً عن التقوى، وهذا أبلغ فى الأمر بالتقوى من نحو "اتق الله" أمراً مباشراً.

---

(١) فتح البارى - الجهاد - ٦/١١٣ والمغازى ٧/٤٩٠/ ٤٩١.

(٢) سنن أبى داود - الجهاد - ٣/٢٣

٢ - عن ابن مسعود ﷺ قال: "لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسا فى القسمة... فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عُدِل فيها .." فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك تغير وجهه وقال: "فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟".. الحديث(١)

غضب رسول الله ﷺ من الرجل الذى اتهمه بعدم العدل، وتغير وجهه، وقال منكراً على الرجل بقوله: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ فهو فى معنى (ما يعدل أحد إذا لم يعدل الله ورسوله)، ففيه نفى وإنكار، ومع ذلك قال النبى ﷺ مبينا أن الصفح عن عثرات اللئام سنة قديمة فى الأنبياء ﷺ "يرحم الله أخى موسى قد أوذى بأكثر من ذلك فصبر"

سادساً: التوبيخ وتشديد النكير:

ومن معانى الاستفهام التوبيخ وتشديد النكير.

وقد يصحب الاستفهام الإنكارى نوعا من التوبيخ وتشديد النكير، كما نحسه من سياق هذا الحوار:

عن جندب بن عبدالله ﷺ أن رسول الله ﷺ بعث بعثا من المسلمين إلى قوم من المشركين ... فقال يا رسول الله: أوجع فى المسلمين، وقتل فلانا وفلانا، وإنى حملت عليه، فلما رأى السيف، قال: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: أقتلته؟

قال: نعم.

قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ فجعل لا يَزيد على أن يقول: كيف تصنع...؟ (٢)

---

(١) فتح البارى ٥٠٣/٦ (الريان).

(٢) صحيح مسلم - الإيمان - ١٠١/٢.

هذا الاستفهام الأخير فيه معنى التوبيخ والإنكار والتحذير من الوقوع فى ذلك، مع تكريره مرة بعد مرة اهتماما بالأمر، واعتناءً به، وتصعيداً لمعنى الإنكار ليحذر غيره الوقوع فى مثل هذا الفعل الشنيع.

جاء فى (دليل الفالحين): كرر الاستفهام مرة بعد مرة اهتماما بالأمر واعتناءً به، ودفعا لما يقوم عنده من شبهة استصحاب كفره المجوز لقتله، بحمل لفظه بالشهادتين على الخوف لا على الحقيقة.(١)

ولنا أن نتصور رسول الله ﷺ ، تظهر على وجهه علامات الإنكار، وفى نبرات صوته شدة تدل على التوبيخ للقاتل، مع تشديد النكير عليه، يظهر ذلك فى تكرار الاستفهام بعبارته التصويرية التى تشخص المعنى، وتضفى عليه هالة قوية من التأثير.

سابعاً: التعجب:

ومن المعانى المجازية للاستفهام فى الحوار النبوى معنى التعجب:

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم ﷺ (وهو يجود بنَفْسِهِ) فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان،

فقال له عبدالرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟

فقال: يا ابن عوف إنها رحمة ... الحديث"(٢)

فقول عبدالرحمن بن عوف: "وأنت يا رسول الله"؟ استفهام فيه معنى التعجب، يعنى وأنت يا رسول الله تبكى كما يبكى الناس؟ أو بمعنى العطف على مقدر كأنه قال: الناس لا يصبرون وأنت تفعل مثلهم؟ كأنه تعجب من بكاء النبى ﷺ على ولده مع عهده به أنه يحث على الصبر، وينهى عن الجزع، فردّ عليه النبى ﷺ مصححا تصوره وتوهمه: "إنها رحمة" أى الحال التى تشهدها منى رحمة على الولد، لا كما توهمت من الجزع أو عدم الصبر.

---

(١) دليل الفالحين ٢/٢٨٤.

(٢) فتح البارى - الجنائز - ٣/٢٠٦

ثامناً: الاستبعـــاد:

١ - جاء فى حديث الصدقات قول بعض الصحابة: يا رسول الله: أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟[١]

استبعد الصحابة ﷺ أن يكتب لهم الأجر على فِعل يأتونه برغبتهم، حيث يستمتعون بنسائهم ويشبعون شهواتهم، وهم يعتقدون أن الأجر إنما يحصـــل غالباً فى عبادة شاقة على النفس مخالفة لهواها، لذلك جاء سؤالهم فيه معـــنى الاستبعاد والتعجب. ولكن الرسول الكريم ﷺ يزيل هذا التعجب من نفوسهم فقايس لهم مقايسة عقلية، "أرأيتم لو وضعها فى حرام، أكـــان عليـــه وزر؟ والإجابة قطعا بالإثبات، فكأنهم قالوا: نعم، قال: فكذلـــك إذا وضعـــها فى الحلال كان له أجر.

وبهذا اتضح الحكم لديهم، وفهموا أن مثل هذا الاستمتاع المشـــروع يكون به للمرء أجر، لما يترتب عليه من الآثار الحسنة.

٢ - عن عمرو بن العاص ﷺ عن النبى ﷺ قال: "إن من أكـــبر الكبـــائر شتم الرجل والديه، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ ... الحديث.[٢]

فقول الصحابة "وهل يشتم الرجل والديه؟" فيه معنى الاســـتبعاد، فـــهم يستبعدون أن يصدر ذلك (شتم الوالدين) من ذى عقل، لأن العاقل يعـــرف حق الوالدين من الاحترام والتقدير والبرِّ بهما لا سبهما أو شتمهما.

تاسعاً: التقـــريـــر:

والاستفهام بهذا المعنى كثير فى الحوار النبوى، لأنه يتلاءم مع طبيعة الحوار من حرص على إقناع الخصوم واستدراجهم وإلزامهم بالحجة.

---

(١) صحيح مسلم - الزكاة - ٩٣/٧.

(٢) فتح البارى - الأدب - ٤١٧/١٠ (الريان)

والاستفهام التقريرى غالبا ما يكون عن أشياء واضحة لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يجحدها، فهو يتضمن من الخصائص الزائدة على المعنى المراد الإخبار به، ما يجعله أشد إثارة للاهتمام، وتأثيرا فى النفوس، متضمنا فى الوقت نفسه الإلزام بالحجة التى لا تدفع.

ومرجع ذلك إلى أن الاستفهام فى أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب فى موقعه، وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه إلى ما يلقى إليه، ليتمكن من فهمه ثم الإجابة عنه، فإذا كان الاستفهام تقريريا، فمعنى ذلك أنه يحمل المخاطب على الاعتراف، وينتزع منه الإجابة بعد التدبر والأناة التى يقتضيها أسلوب الاستفهام، وهذا الاعتراف هو ما يريده المستفهم، لأنه يؤكد حجته، ويبطل حجة خصمه، ولا شك أن هذا أبلغ من الأسلوب الخبرى لما يتضمنه من هذه الخصائص.(١)

١ - ففى حديث الرسول ﷺ مع الأنصار يقول: "يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتنى عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟ قالوا: بلى. الله ورسوله أمنُّ وأفضل ... الحديث.(٢)

فقوله ﷺ: ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ... الخ استفهام تقريرى اشتمل على عدة متقابلات ليتميز بعضها ببعضها الآخر، وليتأكد حكم الضد بضد الحكم، هذا ما أراد الرسول ﷺ أن يلفت أنظارهم إليه مقدما، فمهما كان من جهدهم وتضحيتهم فى سبيل الإسلام، فإن فضله عليهم أعظم وأسبق، وليس هذا التذكير من باب المنّ والتفضل، وإنما هو سرد حقائق واقعة دعت إليها ضرورة الموقف، فهو يريد أن يستدرجهم ليلزمهم بالحجة، وهنا لم يجدوا بُدّاً من الإجابة بالإثبات، فقالوا: بلى. الله ورسوله أمن وأفضل.

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية ١٧٢.

(٢) فتح البارى - المغازى - ٤٧/٨مسند أحمد رقم ١١٣٠٥.

٢ - وفى حوار النبى ﷺ مع معاذ بن جبل ﷺ جاء قوله ﷺ : "وهل يكُبُّ الناسَ على وجوههم فى النار إلا حصائدُ ألسنتهم؟"(١)

استفهام تقريرى مسوق فى عبارة تفيد القصر، أى لا يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم، ومن بلاغة القصر التقرير والتأكيد، وبالتالى لا يجد المخاطب جوابا غير الإقرار بما تضمنه السؤال.

ويشير النظر إلى أمور من بلاغة العبارة، ففيها القصر، وفيها التشبيه، وفيها الاستعارة، وفيها المجاز العقلى .. إلى غير ذلك مما يمكن استجلاؤه بالنظر.

عاشراً: وقد يفيد الاستفهام أكثر من معنى:

١ - يقول النبى ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ : "كف عليك هذا (وأشار إلى لسانه) فقال معاذ: يانبى الله، أو انا لمؤاخذون بما نتكلم به؟(٢)

ففى قول معاذ: أو إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ معنى التعجب والاستبعاد، ولعل الداعى إلى هذا عند معاذ أنه لا يدرك خطر ما يتعجب منه، بينما النبى ﷺ يدرك تماما خطر هذا العضو، فبه النجاة، وبه العثرة والعطب، لذلك كان جواب رسول الله ﷺ فيه مزيد إنكار على تعجب معاذ، فقال: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم؟"

فقوله: "ثكلتك أمك يا معاذ" دعاء على سبيل الإخبار، كأنه تنبيه وقرع عصا.

واستفهام النبى بعده يحمل مزيد إنكار وتعجب على تعجب معاذ ﷺ واستبعاده أن يكون الحساب على ما يتكلم به المرء. وقد كشف الرسول التقرير فى تعليقه على استفهام معاذ، فساق الجواب فى صورة استفهام تقريرى، وبصيغة القصر للايجاز والتقرير، فاقتران الاستفهام التقريرى بصيغة

(١) الترمذى - كتاب الإيمان - ٣٢٨/٢، وابن ماجه - الفتن - ٣٥٩/٢.

(٢) الموضعان السابقان.

القصر يضاعف من تقرير المعنى وتأكيده لدى المخاطب، فيرعوى ويتنبـــه إلى خطورة هذا العضو، ويحرص على ألا يتزلق به إلى المهاوى.

الإيجاز فى الحوار النبوى

أولاً: وجازة المنطق النبوى:

يذكر أن رجلاً تكلم عند رسول الله ﷺ وأكثر الكلام، فقال لـه عليه الصلاة والسلام: "كم دون لسانك من حجاب"؟ فقال: شفتاى وأسنانى. فقال ﷺ: إن الله يكره الانبعاق فى الكلام، فنضر الله وجه امرىء أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته"(١)

يتضح لنا من خلال هذا الحوار أن النبى ﷺ يذم الانبعاق فى الكلام، ويمدح الإيجاز فيه وكان ﷺ يكره الثرثرة وفضول الكلام، فهو القائل:

"وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة أساوئكم أخلاقا، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون"

قيل: وما المتفيهقون يا رسول الله؟

قال: المتكبرون.(٢)

وقد كان النبى ﷺ يطرب للقول الموجز لما فيه من البلاغة، فقد سمع أعرابيا يدعو ويقول فى دعائه **"اللهم هب لى حقك، وأرضى عنى خلقك"** **فقال ﷺ "هذا هو البلاغة"**(٣)

لذلك كان يوصى بالإيجاز فى الكلام ويرغب فيه، ومن ذلك قوله لجرير بن عبدالله البجلى: **"يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف"**(٤)

---

(١) دفاع عن البلاغة ٩٦ - العمدة ١/٢٤١ والانبعاق: الاندفاع فى الكلام بشدة والإكثار منه.

(٢) سنن الترمذى - كتاب البر والصلة - ٢/١٩٦.

(٣) المثل السائل ٢/٣٣٦ والصناعتين ١٩٨.

(٤) الكامل للمبرد بتحقيق الدالى ١/١٠

ومن وصف على بن أبي طالب منطق النبى ﷺ قوله: "... **ويتكلم بجوامع الكلم فَضْلا لا فُضُولَ فيه ولا تقصير**"(١).

"والكلام الطويل إن حوى كلُّ جزء فيه فائدة تمس الحاجة إليها، ولا يسهل أداء تلك الفائدة بأقل منه، كان هو عين الإيجاز المطلوب، وإن أمكن أداء الأغراض فيه كاملة بحذف شيء أو بإبداله بعبارة أخصر منه، كان حشوا أو تطويلا معيبا، والكلام القصير إن وفّى بالمقاصد الأصلية والتكميلية المناسبة لمقتضى الحال، كان هو التوسط المطلوب، وإلا كان بتراً أو تقصيراً معيباً"(٢).

وكلام النبى ﷺ فضل لا فضول فيه ولا تقصير، وكأنما قيل لتصير به المعانى إلى حقائقها.

ولما كان هذا فضل الإيجاز مجمعا عليه(٣)، ورسول الله ﷺ أفضل البشر، اختصه الله بأفضل البيان لتبلغ دعوته من أقرب السبل وآمنها من السأم، فكان الإيجاز خصيصة لبيانه الكريم، حتى لا نرى إطنابا استدعاه مقام التقرير لم يمازجه ضرب من ضروب الإيجاز أو أكثر، وقد لحظ تلك الخصيصة صاحب كتاب (الإشارة إلى الإيجاز) فقال فى أول سطور الكتاب: "الحمد لله الذى بعث نبينا ﷺ بجوامع الكلم، واختصر له الحديث اختصارا، ليكون أسرع إلى

(١) الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ٢/٤٥٤

(٢) النبأ العظيم ١٢٤.

(٣) أجمع البلاغيون والنقاد على أن للإيجاز فضلا عظيما فى قوة التعبير، وهو خصيصة واضحة امتاز بها بيان النبى ﷺ - انظر الصناعتين: ١٨٧، والعمدة ١/٢٢٤، والمثل السائر ٢/٢٢٥ وسر الفصاحة ٢٠٠، دفاع عن البلاغة ٩٦ وإعجاز القرآن والبلاغة النبوة ص ٣٠٠ - ٣٠٣، ٣٣٨ - ٣٤٢، وكذلك احتفل المحدثون بموضوع الإيجاز فى البيان النبوى من مثل ابن رجب الحنبلى فى كتابه (جامع العلوم والحكم) وأبى بكر السنى فى (الإيجاز وجوامع الكلم من السنن المأثورة) وأبى عبدالله القضاعى فى (الشهاب فى الحكم والآداب) وكذلك فعل شراح الحديث من مثل الإمام العينى فى (عمدة القارىء) وابن حجر فى (فتح البارى).

فهم الفاهمين، وضبط الضابطين، وتناول المتناولين، فكل كلمة يسيرة جمعت معانى كثيرة فهى من جوامع الكلم"(١)

وقال الرافعى عن "الحديث النبوى" : "إنه كلام كلما زدته فكرا، زادك معنى"(٢) وقد عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى فقال "... وهذا عجيب، حتى ما يمكن أن يعطيه امرؤ حظه من التأمل إلا أعطاه حظ نفسه من العجب"(٣)

ويقول الزيات: "والإيجاز فى البليغ قوة وروية وجهد، لأن الإيجاز غربلة ونخل وتنقية وتصفية وتصعيد وتركيز، وذلك لا يتهيأ إلا بدوام النظر وطول التعهد، وان للكلمة الموجزة سحرا يأخذ بالقلوب وشعرا يجرى فى الشعور، وقد قال فيها سيد البلغاء محمد بن عبدالله **(إن من البيان لسحرا)** وقال فى مقام الفخر والشكر **(أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا)**(٤)

ثانيا: الإيجاز فى الحوار النبوى:

وإذا كنا بصدد الحديث عن الإيجاز فى الحوار النبوى فيبدو لى أن الحوار النبوى - فى معظمه - قائم على الإيجاز لأن الحوار الجيد هو الذى يحتوى على صفتين أساسيتين هما (التركيز والإيجاز) لأن طول العبارة الحوارية يميت حيوية الحوار، فإذا كان الحوار جيد المناقلة، سديد المساجلة، سريع الجواب، قصير الخطاب، كان أدعى إلى التأثير وبلوغ القصد.

وطبيعة الحوار تعتمد على المراجعة - كما سبق أن بينا - لذلك فالحوار يكمل بعضه بعضا، فما ورد فى كلام أحد المتحاورين، يبنى الآخر عليه كلامه، مستعينا بقرائن الأحوال وبمعونة السياق عن ذكر كلام كثير، ومن هنا يجب أن تكون العبارة قصيرة مركزة موجزة، لها حظها من البلاغة لتكون

(١) الإشارة ص ٢.

(٢) وحى القلم ٩/٣

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

(٤) افتتاحية مجلة الأزهر عدد صفر سنة ١٣٨٤هـ.

أشد تأثيرا، لأن العبارة البليغة أملك للنفس بما فيها من إقناع للعقل وإمتاع للوجدان.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكى على صبى لها.

قال لها: "اتقى الله واصبرى".

فقالت: وما تبالى بمصيبتى، فلما ذهب، قيل لها: إنه رسول الله ﷺ

فأخذها مِثْلُ الموت، فأتت بابَهُ، فلم تجد على بابه بَوّابين.

فقالت: يا رسول الله ، لم أعرفك.

فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى. (١)

الحوار الجيد هو الذى يبرز إلى ساحة الوجود عفويا، بمعنى أن يمليه الواقع من غير أن يقحم على السياق، كما تلاحظ فى هذا الحوار، وهو لا يستمر طويلا و لم يستغرق وقتا، بل لا يلبث أن توقف عند نقطة معينة، هى الهدف الأساسى من الحوار، أوجزه الرسول الكريم فى قوله "إنما الصبر عند الصدمة الأولى".

وقد قسمت الإيجاز فى الحوار النبوى إلى ثلاثة أقسام:

أ - إيجاز قِصَر.

ب - إيجاز بالقصْر.

جـ إيجاز بالحذف.

وقد درج البلاغيون القدماء على تقسيم الإيجاز إلى (إيجاز قِصَر، وإيجاز حذف) ومن البلاغيين المحدثين من جعل القصر طريقا من طرق الإيجاز(٢) وقد نهجت نهجه فى ذلك، لأن القصر أسلوب تعبيرى شاع كثيراً فى الحوار

---

(١) مسلم - كتاب الجنائز - ٢٢٧/٦، وفتح البارى - كتاب الجنائز - ١٢٥/٣، ١٧١، (ط بيروت) ١٧٧/٣ (ط الريان).

(٢) هو الدكتور منير سلطان فى كتابه "بلاغة الكلمة والجملة والجملة" ص ٢٣٩ وما بعدها، ط ١٩٩٢/٢ منشأة المعارف بالاسكندرية.

النبوى، وكما ذكرت أن الحوار بطبيعته أميل إلى الإيجاز، وجملة القصر تفيد معنى جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية، والمنفية تنفى عكس ما تثبته المثبتة، ونفى النفى إثبات، فصارت بمثابة جملة أخرى مكررة ومن هنا يكون التأكيد والإيجاز معاً.

أولاً: إيجاز القِصَر:

والإيجاز الذى هو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة، غالب على أسلوب النبى ﷺ: "لأن الإيجاز قوة فى التعبير، وامتلاء فى اللفظ، وشدة فى التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور وقوة الذهن، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول ﷺ. ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه ﷺ حتى عدت من خصائصه"(١).

يقول الرافعى: "ومن كمال تلك النفس العظيمة، وغلبة فكره على لسانه، قل كلامه، وخرج قصدا فى ألفاظه، محيطا بمعانيه، تحسب النفس قد اجتمعت فى الجملة القصيرة، والكلمات المعدودة بكل معانيها، فلا ترى من الكلام ألفاظا، ولكن حركات نفسية فى ألفاظ، ولهذا كثرت الكلمات التى انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلمه"(٢)

ومن أمثلة هذا النوع من الكلم الجامعة قوله ﷺ:

"إنما الأعمال بالنيات".

"الدين النصيحة".

"الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن".

"خير المال عين ساهرة لعين نائمة".

"إنما الصبر عند الصدمة الأولى".

---

(١) من وحى الرسالة ٣/١٠٧.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٠٠.

ومما جاء على سبيل المثل وهو - لا شك - من الإيجاز والبلاغة بمكان، **قوله ﷺ :**

"الآن حمى الوطيس".

"لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين".

"المؤمن مرآة أخيه".

"سبقك بها عُكّاشة".

"الأعمال بخواتيمها".

"وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم"...الخ[١]

فالإيجاز هنا تضمن ضروبا من الرمز إلى المعانى والمشاعر والقيم والمبادىء والأحداث التى تحيا فى نفس النبى ﷺ ويريد استحضارها فى أذهان المخاطبين على مر العصور، ومعنى هذا أن الصياغة التعبيرية الموجزة تحفل بالدلالات الثرية التى تفتح أمام القارىء أو المتلقى آفاقاً واسعة من فهم المعنى وتمثله، وتلك هى المزية الظاهرة للإيجاز "إنه يزيد فى دلالة الكلام من طريق الإيحاء، ذلك أنه يترك من أطراف المعانى ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال، حتى تبرز وتتلون وتتسع ثم تتشعب إلى معان أخر يتحملها اللفظ بالتفسير أو التأويل"[٢].

ومن شواهد إيجاز القِصَر فى الحوار النبوى هذا الحوار مع أهل مكة حينما دخلها ظافراً منتصرا وحطم ما بالكعبة من أصنام.

١ - "يا معشر قريش: ما تَرَوْنَ أنى فاعل بكم؟

قالوا: خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم.

---

(١) راجع هذه الشواهد فى كتاب المجازات النبوية للشريف الرضى وكتاب (الأمثال فى الحديث النبوى) للأصبهانى فقد ذكرا كثيرا منها.

(٢) دفاع عن البلاغة ٩٩.

قال: "اذهبوا فأنتمُ الطُّلَقاء".(١)

ما هذا الإفحام البليغ تنبعث به حروف معدودة تترك النفوس ذاهلة مأخوذة؟.

كم يستشعر الطليق من ذات نفسه ندم الخجل، فيرى فى وجهه عرق الخزى، ويحس فى حلقه مرارة الأسف؟.

وكم من الساعات سيظل مرددا قول القائد المظفر: "اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء" مستحييا أن تعود به الذكرى إلى باطل سلف وإثم أدبر.

أرأيت الإيجاز يبلغ مبلغه فى النفوس حتى يصبح فى كلماته مثلا سائراً مجلجل الأصداء، تاركا فى النفس أشد ضروب التأثير؟.(٢)

إن القدرة على إيجاز كل هذه المعانى فى هذه الحروف المعدودة، مع بلاغة القول، لمما يدل على امتلاك أزمة القول، كما يدل على رباطة الجأش والقوة النفسية التى يتمتع بها رسول الله ﷺ كما أنه - لا شك - وليد خبرة بالمنازع الهاجسة، يحدوها بما يضمن لها الهدوء والتثبت.

والحوار باعتباره وسيلة للإقناع ومجاراة للخصم، واستدراجه إلى الإقرار بالحكم عن طريق الاحتكام إلى النفس، يجب أن تكون جمله موجزة مركزة صائبة، تخاطب العقل بالدليل، وتؤثر فى الوجدان بالتصوير، لا يميل إلى الإطالة حتى لا يمل المخاطب، ولا يميل إلى المعاندة حتى لا ينصرف عن دائرة الحوار.

٢ - عن أبى هريرة ﷺ **قال: جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى ﷺ فقال:إن امرأتى ولدت غلاما أسود - وهو حينئذ يُعرِّض بأن ينفيه -**

فقال النبى ﷺ : "هل لك من إبل"؟

قال: نعم.

(١) جمهرة خطب العرب.

(٢) البيان النبوى ص ٦٢

قال: "ما لونها"؟

قال: حمــر.

قال: "هل فيها من أورق"؟

قال: إن فيها لورقا.

قال: "فأنى أتاها ذلك"؟

قال: عسى أن يكون نزعه عرق.

قال: "وهذا عسى أن يكون نزعه عرق".(١)

وهنا نلاحظ سمة الإيجاز تغلب على الحوار فهو لا يستمر طويلا، وسريع فى إدارته قائم على السؤال والجواب، لاستدراج المخاطب إلى الحكم بالاحتكام إلى نفسه، وربما كان السؤال أو الجواب كلمة أو كلمتين أو ثلاثاً، إلى أن ينتهى الحوار سريعا بتقرير الحكم المراد، هذا إلى ما فى جمل الحوار من إيجاز بالحذف.

والرسول الكريم ﷺ ترك الرجل يستخلص الحكم بنفسه و لم يقرره هو لئلا يشعر بأن شيئا فرض عليه، وهكذا كان الحوار جذابا مفحما للرجل عن طريق الموازنة التى مثّل بها الرسول ﷺ ، ومن الواضح أنه اعتمد على ما هو معروف عند المخاطب الذى كان له إبل.

٣ - عن ابى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال للنبى ﷺ أوصنى.

قال: لا تغضب.

فردد مِراراً.

قال: لا تغضب.(٢)

---

(١) فتح البارى - كتاب الحدود - ١٢/١٧٥، وصحيح مسلم - كتاب اللعان - ١٠/١٣٤.

(٢) فتح البارى - كتاب الأدب - ١٠/٥١٩.

"لا تغضب" جواب حكيم، يتلاءم مع حال السائل، ولا يقف عند رغبته فى جواب معين، فكلما كرر السؤال، كرر الرسول الجواب نفسه ناظراً لمـــا هو أفيد للرجل فى دينه ومعاشه وعاقبة أمره، فالانسان إذا ملـــك عواطفـــه وسيطر عليها ملك الخير كله. ذلك الجواب الحكيم منتهى الايجاز، كلمتان لا ثالث لهما فيهما الدواء والشفاء من كل داء.

٤ – عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة.

فقال النبى ﷺ "ما بَقِىَ منها"؟

قالت: ما بقى منها إلا كتفُها.

قال ﷺ : "بقى كلُّها غير كتفها"(١).

فى هذا الحوار السريع الموجز يعلمنا الرسول ﷺ معنى جديدا، خفى علـــى السيدة عائشة وهى أم المؤمنين، فالغرض من الحوار الحـــث علـــى الصدقـــة والاهتمام بها، وألا يستكثر المرء ما أنفقه.

والمعنى الجديد الذى يريد أن يعلمه لنا رسول الله ﷺ أن ما بقى سوف يفنى بأكله، وأما ما تُصدِّق به فهو باق عند الله. "فهو إن فنى صورة فهو باقٍ حقيقة لصاحبه عند الله، يرى ثوابه مضاعفا عند حاجته ومزيد فاقته، ففيه أعظم تحريض عليها من كل ما يأكله الإنسان"(٢)

٥ – عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ يســتأذنه فى الجهاد،

قال: "أحيٌّ والداك"؟

قال: نعــم.

قال: "ففيهما فجاهد"(٣).

---

(١) الترمذى – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع – ٢/٣٠١.

(٢) دليل الفالحين ٢/٥٦٠.

(٣) فتح البارى – كتاب الجهاد والسير – ٦/١٤٠، وصحيح مسلم – كتاب الـــبر والصلة والآداب – ١٦/١٠٣، ١٠٤، دليل الفالحين ٢/١٥٨، ١٦٢، ١٦٣

"ففيهما فجاهد" جملة موجزة نصت على الغرض والمقصد من الحوار الذى لم تتجاوز كلماته خمس كلمات، يقرر درساً قيماً ووصية دائمة ببر الوالدين، وقد رفع النبى ﷺ مترلة بر الوالدين إلى مترلة الجهاد فى سبيل الله، وهى مترلة عالية - لا شك - تفوق أجر الصائم القائم الذى لا يفتر من صلاته ولا صيامه، حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله.

ولا ننسى جمال التصوير الذى صحب جملة الإيجاز والذى يجسم المعنى ويقربه إلى الأذهان، "وكأنه فتح إلى مكان المعقول من قلبك بابا من العين"(١) إذ رسم النبى ﷺ صورة حية نابضة بالحركة لمن يبر والديه، ويسعى فى خدمتهما، بمن يحمل السلاح ويجاهد فى سبيل الله. فذاك يذود عن الدين والوطن ويدفع العدو ليسلم الدين، ويتحرر الوطن، وهذا يدفع عن والديه مشقة العيش ومتاعب الحياة، يوفر لهما قوهما من طعام وشراب، ويرعاهما بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة.

ومما يتصل ببر الوالدين ما جاء فى هذا الحوار القصير السريع:

٦ - عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ،

قال: رَغِمَ أنفُه. رغم أنفه. رغم أنفه.

قيل: من يا رسول الله؟

قال: "من أدرك والديه عند الكِبَر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة"(٢).

بالرغم من حصول التأكيد بتكرير اللفظ، وبأن عقوق أحد الوالدين كاف فى الحرمان من دخول الجنة، زيد التقرير بجعل الدعاء ماضيا، ليكون أشد فى الإرهاب والتحذير، وتستشعر النفس منه أن الرغم قد وقع فعلا للعاق، فإن لم يكن فهو يكاد أن يكون، ومثله.

(١) أسرار البلاغة ١٠٨ (رشيد رضا).

(٢) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - ١٠٨/١٦.

كل هذه المعانى تقررت فى هذا الحوار الموجز .. هل ترى ملء الصحائف نصحا ببر الوالدين، والتحذير من عقوقهما، أحدى فى بيان هذه العاقبة، من هذا القول الحكيم المحكم، والذى لم تتجاوز كلماته - مع المكرر - خمس عشرة كلمة؟

٧ - خاطب ﷺ رجلاً من وفد تُجِيب

فقال: "إنى لأرجو أن تموت جميعا"

فقال: أو ليس الرجل يموت جميعا يا رسول الله؟

فقال ﷺ: "تتشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا، فلعل أجله يدركه فى بعض ذلك فلا يبالى الله فى أيها هلك"(١)

"إنى لأرجو أن تموت جميعا" كلمة جامعة، ما أعظم قصرها وأكبر دلالتها، رائعة مغرية بما يفهم من ظاهر ألفاظها، وقد تعودنا أن نطالع كثيرا من هذه الغرائب المباغتة فى بيانه الكريم وبخاصة فى الحوار قصداً إلى قسر الانتباه، وتحريك نشاط المخاطب، لذلك سأل المخاطب متعجبا، لأنها ومضت كالبرق فى رأسه، تاركة من البهرة ما يحجبه عن المراد أو ليس الرجل يموت جميعا؟

وهنا بيّن له الرسول الكريم المراد بها فى أسلوب تصويرى، فيه إلى جلنب موضوعيته قدر كبير من ذاتية صاحبه.

يقول الرضى: "وفى هذا الكلام مجازان: أحدهما قوله ﷺ: "**إنى لأرجو أن تموت جميعا**" لأن الإنسان لا يموت إلا جميعا، وإنما أراد: انى لأرجو ألا يدركك الموت وهمومك متقسمة، وأهواؤك متشعبة، فكأنه يكون متفرقا بتفرق أهوائه، ومتشعبا بتشعب آرائه، والمجاز الآخر، قوله ﷺ : "**فى أودية الدنيا**" وهذه استعارة عجيبة، لأنه شبه اختلاف طرائق الدنيا ومذاهبها،

---

(١) المجازات النبوية ٨٢.

وتباين أهوالها ونوائبها بالأودية المختلفة، فمنها البعيد والقريب، والمخصب والجيب، والواسع والضيق، والمنجى والمعطب"(١)

والناظر إلى الحديث يرى أكثر مما ذهب إليه الرضى فى تجسيم الأهواء والهموم المتشعبة، وفى تصوير الأجل بالساعى الحثيث خلف الإنسان، وفى نسبة عدم المبالاة إلى الله ﷻ.

ومما يزيد التصوير فى العبارة جمالاً اشتراك الحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات، مما يمنح الصورة الحياة الشاخصة، فإذا المعنى الذهنى هيئة شاخصة، وإذا الحالة النفسية لوحة متجانسة، ولاسيما وأن العلاقة واضحة بين الصورة والبيئة والمجتمع.

ومما يلفت النظر إيثار الرسول الكريم ﷺ التعبير بالفعل المضارع الذى يدل على التجدد والحدوث لاستحضار الصورة الغائبة عن الأنظار لتكون أشد تأثيرا، كل هذه المعانى والدلالات فى عبارة قصيرة من حواره ﷺ.

٨ - عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ :

فقال: يا رسول الله: إن أمى ماتت وعليها صومُ شهر، أفأقضيه عنها؟

فقال ﷺ : "لو كان على أمك دَيْنٌ، أكنتَ قاضِيه عنها؟"

قال: نعم.

قال: "فَدَيْنُ اللهِ أحقُّ أن يُقْضَى".(٢)

فى هذا الحوار يتخذ النبى ﷺ القياس القريب جوابا مقنعاً، ويسوقه على طريق السؤال لينتزع الجواب من السائل، وهو لا يكون إلا بالإثبات، وهنا يتم الإقناع، ويفهم الحكم الشرعى، ويتحقق الهدف. كل ذلك فى كلمات قليلة، وفى حوار لا يتجاوز بضع دقائق، قرب المسألة إلى الفهم من خلال الموازنة بين حق الناس وحق الله سبحانه، يفهم منها السائل أن دَيْنَ الله أحقُّ

---

(١) المجازات النبوية ٨٢.

(٢) صحيح مسلم ٢٤/٨، فتح البارى ١٩٢/٤.

بالأداء، وأنه يجوز للولد أن يقضى عن أحد والديه ما عليه من صيام، ومثـــل ذلك فى الحج.

غالبا ما يستخدم الرسول ﷺ الاستفهام وأساليب القصر والتأكيد قصـداً إلى التقرير، وهى من الأساليب الموجزة الموسومة بالبلاغة، وذلك ما يتفـــق وطبيعة الحوار وما فيه من مراجعة ومجاذبة ليكون أشد تأثيرا واقناعا، فضـــلا عما فيه من تشويق يتعمده النبى ﷺ فى بداية الحوار، ليظل المخاطب مشـدوداً بكل فكره وعواطفه مع قضية الحوار حتى النهاية.

٩ - عن عبدالله بن بسر المازنى عن رسول الله ﷺ

قال: "ما من أمتى أحد إلا أعرفه يوم القيامة".

قالو: كيف تعرفهم يا رسول الله فى كثرة الخلائق؟

فقال: "أرأيت لو دخلت صَبْرَةً فيها خيل دُهْمٌ بُهم، وفيها فرس أغرٌ محجل أما كنتَ تعرفه منها"؟

قال: بلـــى.

قال: "فإن أصحابى يومئذ غــــرٌّ مـــن الســـجود محجلـــون مـــن الوضوء"(١).

من البراعة الفنية التى نقف عليها فى هذا الحوار، أننا نرى مـــن عنـــاصر الإثارة والتشويق والتأثير ما يجعل المخاطب أو السامع متتبعا الحوار فى انتبـــاه، وبخاصة أنه اعتمد على التصوير المستوحى من البيئة.

فقول النبى ﷺ: "ما من أمتى أحد إلا أعرفه يوم القيامة" أسلوب قصـــر، يفيد التأكيد فضلا على ما فيه من إيجاز، والرسول ﷺ يسوقه فى بداية الحوار، ليثير انتباه المخاطبين بما يحمله هذا الاسلوب من غرابة المعنى المؤكد، لذلـــك حملهم ذلك على التعجب فسألوا: كيف تعرفهم يـــا رســـول الله فى كـــثرة الخلائق؟

---

(١) صحيح مسلم بلفظ قريب من لفظه كتاب الطهار باب استحباب إطالـــة الغـــرة (التحجيل بالوضوء) ١٣٩/٣.

ولكن الرسول ﷺ لم يجبهم إجابة مباشرة، بل اتخذ القياس القريب جوابا، ليكون أشد اقناعا، فساق الإجابة على طريقة السؤال هكذا "أرأيت لو دخلت صبرة فيها خيل دهم بهم، وفيها فرس أغر محجل أما كنت تعرفه منها؟ ولابد أن تكون الإجابة بالإثبات، لأن الاستفهام للتقرير، ليكون ذلك أشد تنبيها والتفاتا إلى الإجابة التى ينتظرونها فى تشوق، وفى الإجابة تصوير فنى انتزعه النبى ﷺ من بيئتهم، ليكون أسرع فهما وإدراكا، حيث شبه النبى ﷺ أصحابه بالخيل الغر المحجلة وسط خيل دهم بهم، فلابد أن تكون مميزة، فهو يعرفهم بما يميزهم يوم القيامة – فهم غر من السجود، فأثر السجود فى جباههم كالعلامة البيضاء فى جبهة الفرس الأغر، وهم بيض الأرجل من أثر الوضوء، كأنهم الخيل المحجلة، وهذه الصورة تستمد عناصرها من البيئة، وتبلغ درجة من الواقعية ما يجعل المعنى يسرع إلى عقل السامع ووجدانه، ليتعمق أثر الكلام فى نفسه فيتقرر المعنى ويتحول إلى عمل فورى، وبذلك يتحقق هدف الرسول ﷺ من الحوار، وهو تعميق فضل الوضوء والصلاة فى نفوس الصحابة رضوان الله عليهم.

ومن مميزات الحوار التخفيف من رتابة السرد بما فى طبيعته من إيجاز ومراجعة وملاحقة وهذه وظيفة حيوية تتحقق فى جميع صور الحوار النبوى.

ومما يثرى الحوار ويضاعف من حيويته إذا كان متضمنا قصة أو حادثة أو مشهداً أخرويا فهذه الأنواع عمادها الحوار، وهى مناخ للحوار، فهو يضفى عليها جاذبية خاصة فتكون أشد تأثيرا وإقناعا بالهدف.

والقصة القصيرة – بطبيعتها – تحتاج إلى الإيجاز، فكل كلمة لبنة فى بنائها، تحمل الكثير من الأفكار، وتجسد المشاعر فى لحظة مكثفة من حياة الشخصية، فهى إذن تستخدم إيجاز القصر فى بنائها الفنى، وقد تستخدم إيجاز الحذف لتعطى الفرصة للقارىء كى يعمل ذهنه فى دراسة التركيب اللغوى، واستنباط المعنى منه، وفهم المضمون العام الذى يستشفه من بين السطور(١).

(١) دراسات فى المعانى والبديع ١٥١

١٠ - عن حذيفة قال، قال رسول الله ﷺ: تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم،

فقالوا: أَعَمِلتَ من الخير شيئا؟

قال: لا.

قالوا: تذكّر.

قال: كنت أُداينُ الناس، فآمر فتياني أن يُنظروا المعسرَ، ويتجوَّزوا عن الموسر.

قال الله عز وجل: "تجوزوا عنه"(١).

هذه قصة قصيرة موجزة تطوى فكرها سريعا فى كلمات معدودة، ومع ذلك اشتملت على عناصر القصة من مقدمة وعقدة وحل.

فالمقدمة: رجل من الأمم التى كانت قبلنا .. مات .. تلقت روحه الملائكة .. يدور حوار سريع تسأل الملائكة: أعملت من الخير شيئا، فيصدقهم الجواب ويقول: لا .. هنا تبدو **"العقدة"** .. رجل لم يعمل من الخير شيئا .. ترى ما مصيره؟ ولكن يبدو أمام الملائكة فى سجله خير قد عمله، فيقولون له: تذكّر. فقال: كنت أداين الناس فآمر فتيانى أن يُنظِروا المعسر ويتجوزوا عن الموسر. وهنا تبدو مفاجأة ولعلها هى **"الحل"** يصدر الأمر الالهى للملائكة بأن يتجوزوا عنه.

والقصة تعرض جانبا طيبا من جوانب النفس البشرية، رجل يعامل الناس بالحسنى ويُنْظِرُ المعسر ويتجاوز عن الموسر، وكان ذلك سبباً فى أن تجاوز الله عن سيئاته، وغفر له، رغم أنه لم يعمل من الخير شيئا.

والقصة رغم إيجازها وقصرها تشتمل على صورة من صور التربية الفكرية أو السلوكية، كما أنها تحمل فى تضاعيفها لونا من ألوان العظة والاعتبار، ولكن طبيعة القصة عادة تسكت عن ذكر المغزى، وتترك للسامع

(١) صحيح مسلم - كتاب المساقاة - ٢٢٤/١٠.

أن يستخرجه بنفسه، لذلك نجده أشد تأثيرا، لأنه يتبنى المغزى بنفسه عن قناعة. كل هذه المعانى اشتملت عليها هذه القصة القصيرة التى لا تتجاوز كلماتها العشرين.

ولا ننسى دور الحوار فى القصة فهو مناط الإيجاز، يعمق الحدث، ويبرز سمات الشخصيات، ويضفى عليها نوعا من الواقعية الحية، التى تجعل السامع أو القارىء يحس أنه أمام أحياء يمارسون وجودهم فعلا، مما يثير فى نفسه حب الاستطلاع إلى النهاية، فيظل منتبها يقظا يتقبل ما تعالجه القصة من قيم أخلاقية، وما تدعو إليه من مبادىء سامية.

ولو أنا أردنا أن نكتب هذه القصة بطريق السرد، لاستغرقت أضعاف هذه الكلمات ولفقدت عنصر التشويق الذى صاحب الحوار منذ بداية القصة إلى آخرها، فأوفت بالغرض.

إنها حكمة البيان النبوى و"**إن من البيان لسحرا**".

ثانياً: إيجاز القَصْر:

سبق أن أشرت إلى أنى جعلت القَصْرَ طريقا من طرق الإيجاز، لأن جملة القصر بمقام جملتين، إحداهما مثبتة والأخرى منفية، إذن فالتعبير عن المعنى بالطريق الأخصر – وهو الجملة الواحدة – أفضل نظراً لوجازته.

والقصر فن دقيق المجرى، لطيف المغزى، كثير الفوائد، غزير الأسرار، يستعمله الأديب ليأتى أسلوبه مصوِّراً قويا موحياً إلى القارىء بمعان شتى فى عبارة موجزة، وقد يلجأ إليه المتكلم إذا رغب فى تأكيد كلامه تأكّيداً حاسماً، ليقطع شك المخاطب، فيقول مثلاً: (ما هو إلا مصيب) أو (ما هو إلا مُخْطِىء) مؤكداً ومقرراً الإصابة أو الخطأ.

طرق القَصْر:

وللقصر طرق أربع:

أ – النفى والاستثناء.

ب – إنما.

جـ – العطف (بلا أو بـ لكن أو بل)

د – التقديم.

وقد أتى القصر كثيرا فى البيان النبوى بطرقه الأربع، ويعنينا هنا مـــا ورد منها فى الحوار النبوى:

أولاً: النفي والاستثناء:

١ – عن عبدالله بن بسر المازنى عن رسول الله ﷺ

قال: "ما من أمتى أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة"

قالوا: كيف تعرفهم يا رسول الله فى كثرة الخلائق؟

فقال: أرأيت لو دخلت صبرة فيها خيل دُهْم بُهْم، وفيها فرس أغـر محجل، أما كنت تعرفه منها؟

قال: بلـــى.

قال: فإن أصحابى يومئذٍ غـــرٌّ مـــن الســـجود، محجلـــون مـــن الوضوء".(١)

قول النبى ﷺ: "ما من أمتى أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة" أسلوب قصر، طريقه النفى والاستثنا، فيه إيجاز وتوكيد، والرسول ﷺ يســـوقه فى بدايـــة الحوار، ليثير انتباه المخاطبين بما يحمله هذا الأسلوب من غرابة المعنى المؤكـــد، لذلك حملهم هذا على التعجب، فسألوا: كيف تعرفهم يا رسول الله فى كثرة الخلائق؟ ولكن النبى ﷺ لم يجبهم إجابة مباشرة، بل اتخذ القيـــاس القريـــب جوابا ليكون أشد اقناعا، فساق الإجابة على طريقة السؤال هكذا "أرأيت لو دخلت صبرة فيها خيل دُهْم بُهْم، وفيها فرس أغر محجل، أما كنت تعرفه؟ ولابد أن تكون الإجابة بالإثبات، لأن الاستفهام للتقرير، ليكون أشد تنبيـــها والتفاتا إلى الإجابة التى ينتظروها فى تشوق.

وبذلك يتحقق هدف الرسول ﷺ من الحوار – الذى بـــدأه بأســـلوب القصر الملفت – وهو تعميق فضل الوضوء والصلاة فى نفوس المخاطبين.

(١) مسند أحمد – كتاب مسند الشاميين – ١٠٧٣٣.

٢ – عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: أتـــى رجـــل مـــن الأنصار يسأل رسول الله ﷺ:

فقال: أما فى بيتك شىء؟

قال: بلى حِلْسٌ نَلْبَسُ بعضَه، ونبسُط بعضه وقَعْبٌ نشرب فيه الماء .. إلى أن قال له النبى ﷺ: "إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مُدقع، أو لذى غُرم مُفظع، أو لذى دَمٍ مُوجع"(١)

هدف الرسول ﷺ من هذا الحوار مع السائل الأنصـــارى، أن يقـــرر أن المسألة لا تجوز إلا لثلاث فئات من الناس (الفقير شديد الفقر مع عجزه عـــن العمل والكسب، وصاحب الدين ولا يستطيع سداده، ومَن عليه ديةٌ يعجـــز عن أدائها) فساق هذا المعنى فى أسلوب من أساليب القصر، وهو قَوله فى نهاية الحوار: "إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع، أو لذى دم موجع" فقد قصر النبى ﷺ المسألة على هذه الفئات الثلاث، لا تتعداها إلى غيرهم، ليؤكد المعنى مع الإيجاز، يضاف إلى ذلك التأكيد بـــإن والـــلام فى خبرها واسمية الجملة، ثم جمال التوقيع الذى تحسه الأذن من ذلـــك الســـجع الجيد، فقر مدقع، غرم مفظع، دم موجع) ناهيك عن جرس الكلمات الـــذى يتفق مع ما توحى به من دلالة، فهى منسجمة مبنى ومعنى.

٣ – عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: "ما مِنْ صاحب كنزٍ لا يـــؤدى زكاته إلا جِيء به يوم القيامة وبكنزه، فَيُحْمَى عليه صفائحُ فى نـــار جهنم، فيكوى بها جبينه، وجنبه وظهره حتى يحكم الله بين عبـــاده فى يوم كان مقدارُه خمسينَ ألف سنة مما تَعُدُّون، ثم يرى سبيله إمـــا إلى الجنة وإما إلى النار .. (وذكر صاحب الإبل وصاحب الغنم)..

قيل: يا رسول الله، فالخيل؟

قال: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ..

---

(١) سنن أبى داود – الزكاة – باب ما تجوز فيه المسألة ١٢٣/٢ وراجع ص من هـــذا البحث.

قيل: يا رسول الله، فالحمر؟ .. الحديث.(١)

فى هذا الحوار يريد النبى ﷺ أن يؤكد بعض المعانى ويقررهـا فى نفـوس صحابته رضوان الله عليهم من ذلك بيان عاقبة كل مـن صـاحب المـال وصاحب الإبل وصاحب الغنم وصاحب الخيل وصاحب الحمر إذا لم يـؤد زكاها فاستخدم لذلك أسلوب القصر وسيلة للتأكيد والتقريـر "مـا مـن صاحب كتر لا يؤدى زكاته إلا جىء به يوم القيامة وبكتره.."

ونلاحظ أن جملة القصر بوضعها وموقعها ومعناها والغرض منها تقسـر انتباه المخاطبين فهى فى بداية الحوار كعنصر تشويق ولفت للانتباه، وكنـها تتضمن حكما وتعجل به فى بداية الحوار فى سياق من الترهيب والتحذير لمـن لم يؤد الزكاة لما يثير فضول السامعين إلى متابعة الحوار، واستيضاح ما أغلـق عليهم فهمه وترقب النتائج ليروا أنفسهم أإلى الجنة أم إلى النار.

و"من" زائدة لتأكيد العموم، لأنها وقعت بين النكرة "صاحب كتر" وبين أداة النفى "ما" ثم نجد التأكيد ثانيا بالقصر عن طريق النفى والاسـتثنا، فتـأكيد العموم هنا يملأ النفس خشية ورهبة بما يصاحب السياق من ترهيب (يحمـى عليها صفائح فى نار جهنم فيكوى بها..) ثم وقوع الظرف (يوم القيامة) بـين المعطوف عليه والمعطوف لتعجيل المساءة والرهبة.

وعطف الكتر على صاحبه لبيان أنه لن يغنى عنه شيئا بل كان سببا فى دخولـه جنهم يصلى نارها والأفعال (جىء، يحمى، يكوى) مبنية للمجهول لتصـور الحمل على الإكراه، وهى بصيغة المضارع بدلالته على التجـبر والحـدوث واستحضار صورة صاحب (المال المقصر فى زكاته وهو يعذب ويكوى جبينـه وجنبه وظهره تصعيدا للترهيب وتحذيرا من التهاون فى أداء الزكاة.

فإن قلت: لم خص الجبين والجنب والظهر؟ قلت: ليكون الجزء من جنـس العمل، فصاحب المال الضنين بماله إذا أتاه سائل قابله عابس الوجه مقطـب الجبين، ثم يعرض عنه بجنبه ثم يدير له ظهره مبالغة فى الإعراض والصدود.

---

(١) مسند أحمد - باقى مسند المكثرين - رقم ٨٦١٩ صحيح مسـلم - الزكـاة - ٦٤/٧ - ٦٧.

والنبى ﷺ متأثر فى هذا التعبير بقول الله تعالى: **﴿يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾** (التوبة٣٥)

٤ – عن عائشة رضى الله عنها – قالت: قال لى رسول الله ﷺ : إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غضبى.

فقلت: من أين تعرف ذلك؟

فقال: أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنتِ علىّ غَضْبَى، قلتِ: لا ورب إبراهيم.

قلت: أجل، والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسْمك(١).

فى قول عائشة رضى الله عنها: "ما اهجر إلا اسمك" حصر فى غاية اللطف، لأنها أخبرت إذا كانت فى غاية الغضب الذى يسلب العاقل اختياره، لا يغيرها عن كمال المحبة المستغرقة ظاهرها وباطنها، الممتزجة بروحها، وإنما عبرت عن الترك بالهجران، لتدل به على أنها تتألم من هذا الترك الذى لا اختيار لها فيه.

قال الشاعر:

إنى لأمنحك الصدود وإننى ... قسما إليك مع الصدود لأميلُ

يضاف إلى ذلك تصدير كلامها – رضى الله عنها بالقسم لتأكيد الحصر الذى أرادته فيكون تأكيداً على تأكيد، وتقديم "يارسول الله" بين يدى نداء النبى ﷺ يدل على مدى احترامها وتقديرها وإكرامها لرسول الله ﷺ.

ثانياً: القصر بإنما:

١ – عن عبدالرحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم الاثنين إلى قباء حتى إذا كنا فى بنى سالم وقف الرسول ﷺ على باب عِتبان(٢) فصرخ به، فخرج يجرُّ إزاره،

---

(١) عمدة القارىء ٢٠/٢١٠، ٢١١.

(٢) هو ابن مالك الأنصارى الخزرجى السالمى البدرى (عمدة القارىء ٣/٥٨).

"فقال رسول الله ﷺ: أَعْجَلْنَا الرجل.

فقال عِتبان: يا رسول الله، أرأيتَ الرجل يُعجَل عن امرأته ولم يُمنِ، مــاذا عليه؟

فقال رسول الله ﷺ: إنما الماء من الماء".(١)

قول النبي ﷺ: "إنما الماء من الماء" موجز العبارة، واسع الدلالة، مؤكد بإنما التي تفيد القصر، فقد قصر وجوب الغسل على نزول الماء الموجب للغسل بالفعل، وقد كنّى ﷺ بالماء الأول عن الاغتسال الواجب، وبالماء الثاني عن المنيّ الموجب للغُسل، وشتان بين التصريح والتلميح، كل هذه المعاني في هذه العبارة الموجزة المؤكدة، ناهيك عن عفاف اللفظ وأدب العبارة الذي يدل على كمال خلقه ﷺ.

٢ – عن أنسٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى امرأة تبكي على صبي لها،

فقال لها: "اتقي الله واصبري.

فقال: وما تبالي بمصيبتي ... ولم تعرفه ...

فقال ﷺ: إنما الصبر عند الصدمة الأولى"(٢)

قول النبي ﷺ: "**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**"، اسلوب قصر، طريقه "إنما" قصر الصبر على الصدمة الأولى، لأنها الحاملة لمفاجأة المصيبة، فكأنه قال: ما الصبر الحقيقي الذي يثاب عليه المرء الثواب الجزيل إلا ما كان عند الصدمة الأولى، أي ليكن الصبر الأوفى عند الصدمة الأولى.

قال **ابن المنير**: "لما جاءت المرأة طائعة لما أمرها به رسول الله ﷺ من التقوى والصبر، معتذرة عن قولها الصادر عن الحزن، بين لها أن حق هذا الصبر أن يكون في أول الحال، فهو الذي يترتب عليه الثواب".(٣)

---

(١) صحيح مسلم – الحيض – ٣٦/٤.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الجنائز – ٢٢٧/٦ وفتح الباري – الجنائز – ١٧٧/٣.

(٣) دليل الفالحين ١٦٥/١.

قال **الطيبى**: "صدر الجواب منه ﷺ بهذا عن قولها: (لم أعرفك) على أسلوب الحكيم، كأنه قال لها: دعى الاعتذار، فإنى لا أغضب لغير الله، وانظرى إلى نفسك فى تفويتك الثواب الجزيل بعدم الصبر عند مفاجأة المصيبة"(١) وهذا نوع من القصد إلى المطلوب وهو - لا شك - إيجاز.

٣ - عن أبى هريرة ﷺ قال: قام أعرابى فى المسجد فبال، فتناوله الناس، فقال لهم النبى ﷺ: دعوه وهريقوا على بوله سَجْلاً من ماء - أو ذَنُوبا من ماء - فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين.. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: "إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القَذَر، وإنما هى لذكر الله ﷻ وقراءة القرآن"(٢)

فى هذا الحوار تتجلى حكمة النبى ﷺ وحلمه، إذ نهى الصحابة عن تعنيف الرجل، وأمرهم أن يتركوه حتى يتم بوله، لئلا يصاب فى صحته، ولئلا يشرد عن الإسلام بسبب تعسير المسلمين، وإغلاظهم له فى القول، لذلك يقول لهم "فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"

(**إنما بعثتم ميسرين**) أسلوب قصر أداته "إنما" أى ما بعثتم إلا ميسرين، فالجملة على إيجازها مؤكدة "بإنما" وزاد فى تأكيدها الجملة التالية لها، لأنها نفى لضد الحكم، تنبيها إلى المبالغة فى يسر الإسلام، لأن المقام مقام تقرير وإيضاح وتأكيد لقيم الإسلام ومبادئه، لذلك اقتضى مع هذه المؤكدات اللفظية تأكيد معنويا، تجلى فى استخدام المقابلة بين الجملتين، حيث تُظهر كلا المقامين ترغيباً بأحدهما وترهيبا بالآخر، يضاف إلى ذلك اقترانهما بالذكر، فيتأكد المعنى لدى المخاطب.

وقوله ﷺ: "**إنما هى لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن**" اسلوب قصر آخر، حيث قصر المساجد على كونها مخصصة لذكر الله ﷻ والصلاة وقراءة القرآن، لا لشىء آخر غير ذلك، بدليل قوله: "إن هذه المساجد لا تصلح

---

(١) دليل الفالحين ١٦٥/١ ولم أجده فى التبيان.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى وجوب إزالة النجاسات إذا حصلت فى المسجد ١٩١/٣.

لشيء من هذا البول أو القذر" فالجملة مؤكدة بإن، وجاء اسم الإشارة "هذه" لمزيد التعيين وتعظيم شأن المساجد قال تعالى: ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا**﴾ (الجن ١٨) وقوله: ﴿**فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يُسَبِّح له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ**﴾ (النور ٣٦).

وقول النبى ﷺ: "فإنما بعثتم ميسرين"، تعليل لنهيه الصحابة عن تعنيفهم للرجل، ثم إن إسناد البعث إليهم على طريق المجاز العقلى، لأنه ﷺ هو المبعوث حقيقة، لكنهم لما كانوا فى مقام التبليغ عنه فى حضوره وغيبته، أطلق عليهم ذلك مجازا.

واستخدام لفظة "هريقوا" يدل على مقدرة النبى ﷺ على اختيار الكلمات التصويرية، لأن لهذا اللفظ من الخصائص الصوتية ما يحكى المعنى ويصوره، وكأننا نسمع صوت هراقة الماء، ونراه ينسال من السَّجْل على مكان البول.

٤ – عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: ذُكِر العزلُ عند النبى ﷺ،

فقال: وما ذاكم؟

قالوا: الرجل تكون له المرأة ترضع، فيصيبُ منها ويكره أن تحمل منه...

قال: "فلا عليكم أن لا تفعلوا ذاكم، فإنما هو القدر"(١)

"**إنما هو القدر**" عقّب النبى ﷺ بهذه الجملة الموجزة على ما تقدم من زجره لهم ونهيه عن العزل "**لا عليكم أن تفعلوا ذاكم**" لما يتسبب عنه من إضرار بالمرأة أولا، ثم إن الحمل وعدمه مقدر فى علم الله تعالى وبيده سبحانه، فكأنه قال لهم: لا تفعلوا ذلك فالحمل وعدمه ما هو إلا قدر الله، إن شاء كان، وإن لم يشأ لم يكن. وجاءت هذه الجملة بمثابة تعليل لهذا النهى والزجر، والنفس إذا فهمت العلة من وراء الأمر أو النهى اقتنعت واطمأنت، وأقبلت على فعل المأمور به، وأقلعت عن فعل المنهى عنه.

ورغم قصر هذه الجملة (إنما هو القدر) تركز فيها التوكيد بعدة طرق منها:

– التوكيد بالقصر بإنما.

---

(١) صحيح مسلم – النكاح – ١١/١٠

- التوكيد بإسمية الجملة.

- التوكيد بالقصر بتعريف المسند إليه والمسند.

وكل هذه المعاني أوجزت وتركزت في هذه الجملة التي لم تتجاوز كلماتها ثلاث كلمات.

ثالثاً : القصر بالعطف:

١ - عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

" ما تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فيكم؟

قالوا: الذى لا تَصْرَعُهُ الرجال.

قال: ليس ذلك، ولكن الصرعة الذى يملك نفسه عند الغضب".(١)

في هذا الحوار يريد الرسول ﷺ أن يعلم الصحابة معنى جديداً للرجل الشديد، فهو ليس الرجل الذى لديه القدرة والقوة على أن يصرع غيره، ولكن الصُّرَعَة الذى يملك نفسه عند الغضب، ويسيطر على أعصابه.

وقد عبر النبي ﷺ عن هذا المعنى مستخدماً أسلوب القصر، والمعنى المذكور والمستدرك عليه بالأداة من الأمور التي ثبت في العادة فهمها الخاطىء عند الناس، ولها مفهوم صحيح يقابله، وعبارة القصر جاءت تنفي الخطأ وتثبت الصواب، فهي بقصر القلب أشبه، لتصحيح هذا المفهوم وتقريره بإبطال معتقد المخاطب إبطالاً على سبيل الحقيقة أو المبالغة.

٢ - عن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: "استحيوا من الله حق الحياء،

قلنا: إنا لنستحى من الله يا رسول الله، والحمد لله.

قال: ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى(٢)

---

(١) صحيح مسلم - البر والصلة - ١٦١/١٦.

(٢) سنن الترمذى ٢٢٩/٢ والترغيب والترهيب ٢٥٥/٣

"لكن" فى هذا الحوار - كسابقتها - مسبوقة بالنفى، وما بعدها إيجاب، ونفى الشىء عن آخر، وإثباته لسواه يحقق معنى القصر والاختصاص، إلا أنها فى هذا الحديث ليست للعطف، لأنها مسبوقة بالواو، بل هى لمجرد الاستدراك، ونلمس معنى التخصيص فيما يفهم من المعنى العام، فكأنه قيل: ليس الحياء الحق إلا أن تحفظ الرأس وما وعى ... إلا أن فرض وجود هذا الحرف عاطفا أو مستدركا به، أن يذكر ما نفى وما أثبت ليكون ذكرهما معا آكد للأفهام وأشد تقريراً للمراد.

رابعاً : القصر بالتقديم:

إن تقديم جزء من الكلام بمقتضى البلاغة حقه أن يتأخر بمقتضى الأصل فى القواعد العربية، لابد أن يكون مشيرا إلى مغزى، دالا على هدف، كتقوية الحكم مثلا أو تقريره، أو إفادة القصر للمتأخر على المتقدم بدلالة المقام، "وما يفيده الاختصاص يفيد التقوية، لأن الاختصاص - كما قالوا - تأكيد على تأكيد".(١)

وقد كان كلام النبى ﷺ مبنيا على "الخلوص والقصد والاستيفاء ... فكأن الجملة تخلق فى منطقه خلقا سويا .. وكأن الألفالظ القليلة إنما ركبت تركيبا على وجه تقتضيه طبيعة المعنى فى نفسه، وطبيعته فى النفس"(٢)

فلا تجد فى كلامه تقديما أو تأخير أو ذكراً أو حذفاً أو إيجازا أو إطناباً إلا قد أصاب موضعه، وأدى فائدته.

١ - عن أنس ﷺ: "... فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال: يقول عمير بن الحُمام الأنصارى ﷺ: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم....

(١) خصائص التراكيب ص ١٧١.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٣٨، ٣٣٩.

قال: لئن أنا حَيِيت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتِل"(١)

ففى قوله: "لئن أنا حييت" قدم المسند إليه (أنا) على الخبر الفعلى (حييت) وذلك على سبيل الاختصاص، وفيه أيضاً تقوية للمعنى، فهو على نحو قوله تعالى **﴿قل لو أنتم تملكون خزائنَ رحمةِ ربى﴾ (الإسراء ١٠٠)** "فكأنه وجد نفسه مختارة للحياة على الشهادة فأنكر عليها ذلك، فقال استبطاءً للانتداب لما نَدَبَ إليه النبى ﷺ بقوله: "قوموا إلى جنة .. الخ" فعدّ حياته قَدْرَ ما يأكل تلك الحبّات ... حياة طويلة مسارعة للبر"(٢)

٢ – عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة ﷺ أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه

قال: "من قال لا إله إلا الله، والله أكبر صدّقه ربه

فقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر ...

وإذا قال: لا إله إلا الله، له الملك وله الحمد،

قال: لا إله إلا أنا لى الحمد ولى الملك ... الخ"(٣)

(له الملك وله الحمد) قصر بطريق التقديم، تقديم الجار والمجرور (المسند) على (المسند إليه) (الملك، الحمد) على معنى التخصيص، والقصر لتأكيد الثقة بالمقصود عليه سبحانه، فهو وحده الحقيق بالملك، وهو وحده الحقيق بالحمد، لا أحد غيره سبحانه.

٣ – عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: "جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد،

فقال: أحىٌّ والداك؟

قال: نعم.

---

(١) الإصابة لابن حجر ٣١/٣، أسد الغابة ٢٩٠/٤، ودليل الفالحين ١١٩/٤، ١٢٠.

(٢) دليل الفالحين ١٢٠/٤.

(٣) سنن الترمذى – الدعوات – ١٥٢/٣.

قال: ففيهما فجاهد.(١)

الرسول ﷺ أراد أن يعلم الرجل أن بر الوالدين والتلطف بهما، وحسن صحبتهما خير من الجهاد فى سبيل الله، إن كان الوالدان فى حاجة إلى خدمته ورعايته كل ذلك من خلال هذا الحوار الموجز.

ومن جمال العبارة وبلاغة التركيب، قوله ﷺ: (ففيهما فجاهد) قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص وقصر المجاهدة على الوالدين، والفاء الأولى جزاء لشرط محذوف، والثانية جزائية لتضمن الكلام معنى الشرط، أى: إن كان الأمر كما قلت، ففيهما فجاهد، أى اخصص المجاهدة بخدمتهما، واقصرها عليهما.

والمراد بالجهاد فيهما، جهاد النفس فى وصول البر إليهما والتلطف بهما، وحسن صحبتهما وطاعتهما.

هذا الحوار الموجز، قصير الجمل، سريع الخطاب، يفيض فصاحة وبلاغة، جمع أنواع الإيجاز (إيجاز القصر، وإيجاز الحذف، وإيجاز القصر) فهو من جوامع كلمه ﷺ هكذا تلمس القدرة المعصومة من الزلل، والجمال الصادف عن النقد، والحكم بالكمال الفنى، لا يستدرك عليه بالاستثناء إلا تأكيداً لمدحه، وتوثيقا لتأثيره.

ثالثاً: الإيجاز بالحذف:

يرجع حسن العبارة فى كثير ممن التراكيب إلى ما يعمد إليه المتكلم من حذف لا يغمض به المعنى، ولا يلتوى وراءه القصد، وإنما هو تصرف تُصَفّى به العبارة ليقوى حبكها، ويمتلىء مبناها، ويتكاثر إيحاؤها، فتصير أشبه بكلام أهل الطبع، وهو من جهة أخرى دليل على قوة النفس، وقدرة البيان، وصدق الفطرة، واستقامة الطبع، وسلامة الذوق.

---

(١) فتح البارى - الجهاد والسير - ١٦٢/٦ ومسلم - البر والصلة والآداب - ١٠٣/١٦، ١٠٤.

ومن المقاصد والأغراض التى تراها وراء الحذف، الاختصار، وبعث الفكر، وتنشيط الخيال، وإثارة الانتباه، ليقع المخاطب على مراد الكلام، مستنبطا معناه من القرائن والأحوال، وخير الكلام ما يدفعك إلى التفكير، ويستفز حسك وملكاتك.

ولا أجد قولاً أدل على قيمة الحذف وبلاغته من قول عبدالقاهر (ت٤٧١هـ) حين يقول: "الحذف باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأبين ما تكون إذا لم تبن"(١)

إذن فالذى يعنينا فى كل حذف استشراف دلالة الحذف، وإظهار الأغراض البلاغية التى ترتبت على حذفه، ولا نصنع صنيع المتأخرين من البلاغيين إذ جعلوا أغراض الحذف نحوية، بعيدة عن الوظائف الدلالية ذات اللفتات القيمة.(٢)

وقد ورد الحذف كثيراً فى أحاديث النبى ﷺ يهمنا منه ما ورد فى الحوار النبوى، واعتقد أن الحوار باعتباره قائما فى معظمه على السؤال والجواب ومراجعة الكلام فيه فرصة كبيرة للحذف (حذف بعض كلام المتكلم أو من يحاوره لدلالة السياق على المحذوف) وهذا إيجاز واختصار لا شك يزيد من تركيز الحوار وحيويته.

وقد يكون المحذوف حرفا أو كلمة أو جملة أو عدة جمل، يدرك ذلك من له حسّ باللغة القادر على استنباط المعنى بقرائن الأحوال ومتابعة السياق.

أولاً: حذف حرف:

١ - "جاء رسول ﷺ بيت فاطمة، فلم يجدْ عليًّا فى البيت،

فقال: أين ابن عمك؟

(١) دلائل الإعجاز باب الحذف ١٤٦ تحقيق شاكر.

(٢) انظر البحث البلاغى عند العرب "تأصيل وتقييم" ١٦٠ وما بعدها.

قالت: كان بينى وبينه شىء فغاضبنى فخرج ولم يَقِل عندى.
فقال رسول الله ﷺ لإنسان: انظر أين هو؟ فجاء فقال يا رسول الله: هو فى المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب، فجعل النبى ﷺ يمسحه عنه ويقول: قم أبا تراب قم أبا تراب"(١)

(قم أبا تراب، قم أبا تراب) كم فى هذا النداء من تلطف وممازحة وحب وحكمة، حذف منه حرف النداء للدلالة على قرب المنادى من قلب رسول الله ﷺ وعلو منزلته عنده، فهو على بن أبى طالب ابن عم النبى ﷺ والذى تربى فى حجره، وزوج ابنته فاطمة ، يضاف إلى هذا ما فى تكرار النداء من مزيد اهتمام النبى ﷺ بشأن على، والعمل على تطييب خاطره بهذا التلطف والممازحة الصادقة، فقام على وما كان اسم أحب إليه من "أبى تراب" وإن كان ليفرح إذا دُعى بها - أى بهذه الكنية - لأن الذى كناه بها هو رسول الله ﷺ

٢ - قال رسول الله ﷺ: "يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تُزْلَف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ... ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سَلِّمْ سلم حتى تَعْجِزَ أعمال العباد، حتى يجىء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا... الحديث.(٢)

فى قوله: "رب سلم سلم" حذفٌ يفهم من السياق، فأصل العبارة (يارب سلّم يارب سلّم) فحذف حرف النداء من الأولى وحذف من الثانية حرف النداء والمنادى، لأن المقام - لعظم هوله - مقام إيجاز، فإسقاط بعض أجزاء الكلام دلالة على الإحساس بفداحة الخطب، وهول الموقف، وإنما حرص

---

(١) فتح البارى - الصلاة - ١/٦٣٧، ١١/٧٢ ومسلم - فضائل الصحابة - ١٥/١٨٢.

(٢) مسلم - الإيمان - ٢٨٨.

على ذكر سلّم سلّم وكررها، لأن همّه طلب السلامة له ولأبناء أمته، والنجاة من هذا الهول.

ثانياً: حـــذف كلمـــة:

قد تكون الكلمة المحذوفة ركنا أساسيا فى الجملة كالمسند إليه أو المســند، وقد تكون فضلةً كأن تكون صفة أو موصوفا أو معطوفا أو مضافا أو مضافــا إليه أو غير ذلك.

١ - جاء رجل إلى النبى ﷺ يطلب الاستزادة من الصيام.

فقال له النبى ﷺ:

صم شهر الصبر ويوما من كل شهر.

قال: زدنى، فإنى بى قوة.

قال: صم يومين.

قال: زدنى.

قال: صم ثلاثة أيام.

قال: زدنى.

قال: صم من الحُرُم واترك (وكررها ثلاثا)(١).

فى هذا الحوار حذف كثير، لنعيده مرة أخرى مقدرين المحـــذوف حـــتى تتبين لنا نسبته.

صم شهر الصبر (وصم) يوما من كل شهر.

قال: زدنى (أياما) فإن بى قوة.

قال: صم يومين (من كل شهر).

قال: زدنى، (فإن بى قوة).

قال: صم ثلاثة أيام (من كل شهر).

قال: زدنى، (فإن بى قوة).

قال: صم من (الأشهر) الحرم (بعض الأيام) واترك بعضها (مكررة ثلاثا).

---

(١) سنن أبى داود - الصوم - ٣٣٥/٢

من خلال المقارنة بين صورتى الحوار نلاحظ أن طبيعة الحـوار تساعد وتسمح بحذف بعض أجزاء الكلام، لأن السياق ومراجعة الكلام بين الطرفين تقتضى ذلك.

ومن خلال هذه المقارنة يمكننا معرفة المحذوف، ففـى الجملـة الأولى، حذفت كلمة (صم) المسند لدلالة السياق عليه، فالاختصار أولى وأفضـل، والمسند إليه محذوف وجوبا لأن "صم" فعل أمر. وفى الجملة الثانية، حـذف المفعول الثانى (أياما) والمحذوف فى الجملة الثالثة (من كل شهر) ومثل ذلك فى الجملة الخامسة، والمحذوف فى الجملة الرابعة (فإن بى قوة) وهى جملة تعليليـة لطلب الزيادة، ومثل ذلك فى الجملة السادسة، وكل ذلك الحذف اختصـاراً لدلالة السياق عليه.

أما فى الجملة السابعة وهى قول النبى ﷺ : "صم من الحرم واترك" حذف منها موصوف الحرم أى (الأشهر الحرم) وسبب حذف الموصوف لاختصـاص الصفة به، فمن يسمع (صم من الحرم واترك) ينصرف ذهنـه إلى (الأشـهر الحرم) لا غير، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

قوله "واترك" معطوف على "صم" أتى به لعلمه ﷺ أنه يشق على السائل صومها كلها تباعا، وحذف مفعول "صم" ومفعول "اترك" مبالغة فى التسهيل عليه، ليصوم منها ما يشاء، فإذا وجد مشقة فلا عليه، وكرر النبى ﷺ العبـارة ثلاث مرات تأكيداً لطلب الرجل، وتنبيها على شرفه، ولأنه يشق عليه صـوم الأشهر الحرم كلها.

ولعل حكمة الرسول ﷺ فى أمره الرجل بصيام ثلاثة أيام ثم يفطـر، لأن المرء إذا اعتاد عملا معينا من البر ألفته النفس، وأصبح إلف عـادة، فـترتفع مشقته، ولذا أمره الرسول ﷺ بالإفطار بعد الصوم، وهو ما يفهم من قولـه "واترك" لئلا يصير العمل سهلاً عليه فيقل ثوابه، بخلاف ما إذا أفطر ثم صـلم، فيكون فيه نوع من المشقة فينمو بها ثوابه، لأن الثواب على قدر المشقة ومـن جنس العمل.

٢ - جاء فى حديث معاذ بن جبل وقد سأل النبى ﷺ:

أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار.

قال: لقد سألتنى عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت ... الحديث"(١)

فكلمة "عظيم" صفة لموصوف محذوف، والتقدير: لقد سألتنى عن أمر عظيم، أى أمر بالغ فى العظمة، متناه فى الفخامة، وفى ذلك مزيد عناية بشأن المحذوف، فركز على ذكر الصفة التى تبرز عظمته، ولعل سرور النبى ﷺ بمطلب معاذ أدى به إلى الاختصار، فبادر ببعث المسرة والطمأنينة إلى قلب معاذ بذكر الصفة دون الموصوف تنويها بعظمة مطلبه.

وفى قوله (تصوم رمضان) حذف المضاف، والتقدير: تصوم شهر رمضان، ولعل السر فى الحذف شهرة المحذوف واختصاصه بالمضاف إليه، حتى لكأن ذكره وعدم ذكره سواء، فعدم ذكره أفضل لبلاغة الحذف عن الذكر، ولأن المضاف إليه أغنى عن ذكر المضاف، وأفادت عَلَميته زيادة التخصيص.

٣ - عن أبى هريرة ﷺ قال: "سئل النبى ﷺ أى العمل أفضل؟

قال: إيمان بالله ورسوله.

قيل: ثم ماذا؟

قال: الجهاد فى سبيل الله.

قيل: ثم ماذا؟

قال: حج مبرور"(٢)

أجوبة النبى ﷺ عن أسئلة سائله (إيمان .. جهاد .. حج مبرور) كل منها خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: (أفضل العمل إيمان .. أفضل العمل جهاد، أفضل العمل حج مبرور) ولعل السر فى اختصار الإجابة بحذف المسند إليه،

(١) سنن الترمذى - كتاب الإيمان - ٣٢٨/٢ وابن ماجه - الفتن - ٣٥٩/٢

(٢) مسلم - الإيمان - ٧٢/٢.

أن المقام مقام استيضاح واستفسار عن شىء مجهول لدى السائل، ومادام السائل يطلب المعرفة ويستفسر عن شىء يجهله، فمعنى ذلك أن نفسه مستشوفة إلى الإجابة، متشوقة إلى المعرفة، فالمبادرة بالإجابة فى مثل هذه الحال - اختصاراً وإيجازا - أفضل وأوقع فى نفس السائل، إذ يقع على مطلبه بسرعة فيتمكن من نفسه فضل تمكن، والرسول المعلم يدرك ذلك ويراعى أحوال المخاطبين.

٤ - ومثل ذلك حديث ابن مسعود ﷺ قال: "سألت النبى ﷺ:
أى العمل أحب إلى الله؟
قال: الصلاة على وقتها.
قلت: ثم أى؟
قال: بر الوالدين.
قلت: ثم أى؟
قال: الجهاد فى سبيل الله.(١)

لعل سائلا يسأل هل هناك تضارب أو تنافٍ بين أجوبة النبى فى هذا الحديث وما قبله؟

والجواب: لا تضارب ولا تناف، وتوجيه ذلك، أن النبى ﷺ خبير بأحوال المخاطبين، مميز للمقامات، حريصٌ على إبلاغ وحى السماء بأوضح أسلوب، وأقصر طريق، وأوجز عبارة، فكل كلمة صادرة عنه مقصودة بمقدار، فهو يجيب كل سائل بما هو إليه أحوج، وبما هو به أليق، وبحالته أنسب.

فمثلا عندما سأله رجل كثير الغضب، وقال: "أوصنى يا رسول الله، قال: لا تغضب فردد الرجل مراراً، فقال: لا تغضب"(٢)
"كما روى أنه ﷺ قال: "حَجّة" لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة، و"غَزوة" لمن حجّ أفضل من أربعين حجة"(٣)

---

(١) فتح البارى - الأدب - ٤١٤/١٠ - والجهاد والسير - ٦/٦.
(٢) فتح البارى - الأدب - ٥٣٥/١٠.
(٣) عمدة القارى ١٨٩/١

وقد يكون الاختلاف باختلاف الأوقات، كأن يكون عمل ما فى وقت ما أفضل من غيره فى ذلك الوقت، فالصلاة مثلا أفضل من الصدقة بتضافر النصوص، ومع ذلك ففى وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل.

وقد يكون للمتأهل للجهاد، الجهاد فى حقه أولى من الصلاة وغيرها، وقد يكون له أبوان كبيران لو تركهما لضاعا، فيكون برهما أفضل، لقوله ﷺ لمن سأله الجهاد وعرفه أن له أبوين كبيرين، فقال له "ففيهما فجاهد"، وقد يكون الجهاد أفضل من سائر الأعمال عند استيلاء الكفار على بلاد المسلمين، فالحاصل أن اختلاف الأجوبة فى هذه الأحاديث لاختلاف أحوال السائلين، وذكر ما لا يعلمه السائل وترك ما علمه.(١)

والمراد من أفضل الأعمال كذا، كما يقال: فلان أعقل الناس، أى: من أعقلهم.(٢)

ومن مراعاته أحوال المخاطبين، إجابته ﷺ كل سائل أو مستفسر بما يناسب حاله،

ومن ذلك، جاءه شاب فقال: يا رسول الله:أُقبِّل وأنا صائم؟
قال: لا، فجاء شيخ فقال: أقبل وأنا صائم؟
قال: نعم. (فنظر بعضنا إلى بعض) يعنى الصحابة ﷺ .
فقال ﷺ: قد علمت لم نظر بعضكم إلى بعض،
إن الشيخ يَملِك نفسه"(٣)

لقد أجاب النبى ﷺ كلاً من الشاب والشيخ بما يناسب حاله، ولما عجب الصحابة بيّن لهم العلة فى اختلاف الأجوبة، فالشيخ لا يُخشى عليه إفساد الصوم بالوقوع فى الجماع أو دواعيه، بخلاف الشاب فقد يجره التقبيل إلى

---

(١) عمدة القارىء ١٨٩/١ ودليل الفالحين ٧٧/٤ (بتصرف).
(٢) عمدة القارىء ١٨٩/١.
(٣) سنن أبى داود - الصوم - ٣٢٣/٢

دواعى الجماع فالجماع أو الإنزال فيفسد صومه، وبذلك أزال عجب الصحابة، وأعطاهم درساً قيماً فى مراعاة أحوال المخاطبين.

وأعتقد أن التعبير بالشيخ والشاب هنا جرى على الأغلب من أحوال الشيوخ فى انكسار شهوتهم، ومن أحوال الشباب فى قوة شهوتهم، ولو انعكس الأمر انعكس الحكم.

إنها أحكام فقهية فى قوة القانون التشريعى لبيان حقوق الإنسان وفهم أمور دينه ولكنه قانون نبوى يخاطب العقل والعاطفة معاً بالمحبة والعطف يعرف منه العقل الحكم، وتعرف منه العاطفة الطاعة والرضا.

٥ - عن أبى ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم - قالها ثلاثا -
قلت: خابوا وخسروا يا رسول الله، من هم؟

قال: المسْبِل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب.(١)

"ثلاثة" نكرة منونة، أغنى التنوين عن ذكر المضاف إليه، والذى سوّغ الابتداء بها ملاحظة الإضافة والوصف، والتقدير: (ثلاثة رجال) أو (ثلاثة أصناف) ولعل النبى ﷺ قد عمد إلى حذف المضاف إليه، ليثبت التنوين للعدد النكرة، ليعطيه لونا من الإبهام يثير فضول السامعين شوقا إلى معرفة ما غاب عنهم.

فالعدد المبهم فى أول الكلام له دلالة تأثيرية، تجعل المخاطب ينصرف ذهنه إلى تتبع من هم هؤلاء الثلاثة الذين حُرموا كل خير؟ خوفاً أن يكون منهم.

٦ - عن أبى سعيد الخدرى عن معاوية ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟

قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا ومنّ به علينا..."(٢)

---

(١) صحيح مسلم - الإيمان - باب تحريم إسبال الإزار - ١١٤/٢

(٢) مسلم - الذكر والدعاء - ٢٢/١٧، ٢٣.

حذف الممتن به إيماءً إلى كثرته وتنوعه وتعدده، ولقصور العبارة عن الإحاطة به، وجعله مبهما لتذهب النفس فيه كل مذهب، فالله سبحانه وهّاب النعم ﴿وإن تعُدُّوا نعمة الله لا تُحصوها﴾ (إبراهيم ٣٤، النحل ١٨).

حذف بعض المتعلقات:

١ - من حديث الساحر والغلام والراهب، قال الجليس - جليسٌ للملك كان قد عَمِيَ - للغلام. "ما ههنا لك أجمعُ إن أنت شفيتنى، قال الغلام: إنى لا أشفى أحدا، إنما يَشفى الله .."(١)

قوله (إن أنت شفيتنى) يقصد (إن شفيتنى أنت لا غيرك) كما يؤذن به المقام، فإن شرطية، وفعل الشرط محذوف، ولما حذف انفصل الضمير المتصل به، وقوله (شفيتنى)تفسير لفعل الشرط المحذوف، وجواب الشرط محذوف أيضا لدلالة سابق الكلام عليه، أى (إن شفيتنى فلك جميع ما ههنا).

وقول الغلام (إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله تعالى) جاءت الجملة الثانية مؤكدة - بالقصر - لمضمون ما قبلها، أى إذا كان لا يشفى أحداً إلا الله، فلا أشفى أحداً إذ لا شفاء إلا شفاؤه سبحانه(٢) - وفى ذلك تعريض بغباوة المخاطب.

وحذف مفعول "يشفى" لعدم تعلق الغرض به، إذ الغرض إثبات المعنى للفاعل الحقيقى إى إثبات الشفاء لله سبحانه، ولبيان أنه تعالى يقع منه الشفاء مطلقا دون تعرض لبيان المشفى، لذلك استغنى عن ذكره، لأن ذكر ما لا فائدة منه تفويت للفائدة.

٢ - جاء فى حوار ملك الجبال مع رسول الله ﷺ بشأن قومه - فيما روته السيدة عائشة رضى الله عنها: "**... يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال ... إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين،**

---

(١) صحيح مسلم - الزهد - ١٨/١٣١.

(٢) دليل الفالحين ١/١٥٦.

فقال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا"(١)

ففى قوله (إن شئت) حذف مفعول "شئت" إيجازا لدلالة وجوده فى قوله (أطبقت عليهم الأخشبين) وتقديره: "إن شئت إطباق الأخشبين" وكان جواب النبى ﷺ يقتضى الإيجاز فقال: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم...." فالمعطوف عليه ببل محذوف يدل عليه السياق وتقديره: (لا آمرك بما فيه هلاكهم بل أرجو... الخ) ولعل السر فى هذا الحذف أن الزمن يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، والموقف فيه من التهويل وخوف النبى ﷺ على أبناء أمته ما يجعله يبادر بهذا الجواب.

٣ – ومن حديث طويل رواه أبو هريرة ﷺ فيه من حوار الله تعالى مع ملائكته: "... **قال: فَمِمَّ يتعوَّذُون؟ قال: يتعوذون من النار، قال: وهل رَأَوْهَا؟**

قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فِرَارا، وأشد لها مخافة،

قال: فيقول: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم.(٢)

حذف مفعول "غفر" للتعميم، فلم يتعين لتذهب النفس فيه كل مذهب "ألا ترى أن المحذوف إذا ظهر فى اللفظ، زال ما كان يختلج فى الوهم من المراد، وخلص للمذكور"(٣)

حذف جملة:

١ – عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"إياكم والقُسَامة! قلنا: وما القسامة؟

---

(١) فتح البارى – بدء الخلق – ٣٦٠/٦

(٢) صحيح مسلم – الذكر والدعاء – ١٤/١٧

(٣) البرهان فى علوم القرآن ١٠٤/٣.

قال: الرجل يكون فى الفِئَام من الناس، فيأخذ حظ هذا وحظ هذا"[١]

(إياكم) هذه الصيغة مبنية على الإيجاز بالحذف (حذف الفعل والفاعل) لتكون عَلَماً بذاهّا على الخطر.

وتصدير الكلام بها تعجيل بالإنذار، وإعلان الخطورة ليلتفت السامع بكل ما يملك إلى المحذر منه.

ولعل الدلالة على التعجيل ناشئة من بناء الصيغة على الإيجاز بحذف الفعل والفاعل، فإذا روعى أن المحذوف مكرر الحذف، مرة مع الضمير، ومرة مع الظاهر - القسامة - (المحذر منه) المعطوف، تبين حرص المتكلم على السامع بسرعة المبادرة إلى الاقلاع عن المحذر منه.

٢ - قلت يا رسول الله: إن لى جارين، فإلى أيهما أُهدِى؟

قال: إلى أقربهما منك بابا"[٢]

أى (أَهْدِ) إلى أقربهما منك بابا. فحذف الفعل والفاعل لدلالة السياق عليه ولعل حرص الرسول على إسداء النصيحة والتوجيه أدى به إلى الإيجاز فبادر بذكر المهم.

وذكر كلمة (بابا) دلت على القرب المكأنى، وفى ذلك توجيه من الرسول ﷺ إلى الاهتمام بالجار ورعايته الأقرب فالأقرب.

٣ - عن ابن عمر ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: "إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟ ...

ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله؟

قال: "هى النخلة".[٣]

---

(١) سنن أبى داود - الجهاد - ١٦٧ - (المعجم المفهرس).

(٢) فتح البارى - الأدب - ٤٦١/١٠

(٣) فتح البارى- العلم - ١٧٨/١

قول النبى ﷺ "فحدثونى ما هى" جوابٌ لشرط مقدر أى (إن عرفتموها فحدثونى ما هى؟) وحذف الشرط لأن لسان حالٍ المقال أنطق به وأدل عليه، فالمقام مقام تعليم عن طريق الحوار، يثيره النبى ﷺ ليلفت انتباه المخاطبين، يسألهم وينتظر منهم الجواب، فلما عجزوا أجابهم بقوله: "هى النخلة". والجواب بعد الحيرة وطول التفكير يتمكن فى النفس فضل تمكن.

وقول الصحابة (حدثنا يا رسول الله) فيه حذف أيضاً، والتقدير: حدثنا ما هى يا رسول الله.

وقد حذفت جملة - ما هى؟ المكونة من المبتدأ وخبر،

والسبب فى الحذف دلالة السياق، حيث سبق المحذوف فى سؤال النبى ﷺ لهم "حدثونى ما هى؟" لذلك أوجز الصحابة فى قولهم: حدثنا يا رسول الله، لأن ذكر المعلوم بالقرائن أو بالسياق تفويت للفائدة.

وقد بنى النبى ﷺ حديثه على الإيجاز مراعاة لأحوال المخاطبين، بدليل أن طلبهم مبنى أيضا على الإيجاز.

٤ - عن أبى قتادة ﷺ قال: "بينما نحن نصلى مع النبى ﷺ إذ سمع جَلَبة الرجال، فلما صلى قال: ما شأنكم؟

قالوا: استعجلنا إلى الصلاة.

قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما سبقكم فأتموا"(١)

قول النبى ﷺ "فلا تفعلوا" جوابٌ لشرط محذوف، والفاء الواقعة فى الجواب تسمى الفاء الفصيحة، قد أغنت عنٍ الإطناب بذكر الشرط، والتقدير: (إذا حصل مثل ذلك فلاتفعلوا) ونلحظ أيضا حذف مفعول "تفعلوا" أى فلا تفعلوا ما فعلتم من الاستعجال أو فلا تفعلوا الاستعجال وقد عبّر النبى ﷺ بلفظ "لا تفعلوا" بدل "لا تستعجلوا" للمبالغة فى النهى عن

---

(١) صحيح مسلم - المساجد ومواضع الصلاة - ٥/١٠٠

الاستعجال فى الاتيان إلى الصلاة، وهو نفى عام، ونفى العام يستلزم نفى الخاص وزيادة، وهى نهىٌ للتتريه لا للتحريم.

والنبى ﷺ الحريص على تعليم المسلمين وهدايتهم يُنهِى الحوار بتقرير الهدف، ووضع الأسس الحكيمة، حرصا على تفقيههم فى الدين، فيقول "إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا".

٥ - عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: "نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر فى جنبه،
فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وِطَاءً؟
فقال: ما لى وللدنيا..."[١]

ففى قولهم "لو اتخذنا لك وطاءً؟" جواب "لو" محذوف، والتقدير: (لاسترحت أو ما أثر الحصير فى جنبك)

ولعل السبب فى حذف جواب "لو" هنا الاختصار، والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر، فقد استُغنىَ عن الجواب بقرينة شهادة الحال، وهى تأثير الحصير فى جنبه الشريف ﷺ فلو ذُكِر مع ذلك لكان عبثا من القول.

يضاف إلى ذلك أن طبيعة الحوار يكمل بعضه بعضا، فما يرد فى كلام أحد المتحاورين يبنى عليه الآخر كلامه، مستغنيا بقرائن الأحوال وبمعونة السياق عن ذكر كلام كثير، لذلك فطبيعة الحوار أميل إلى الإيجاز، سواء إيجاز قصر أو إيجاز حذف.

حذف أكثر من جملة:

١ - جاء فى خطبة الوداع قوله ﷺ : "ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، لكم أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون ... اللهم قد بلغت؟ قالوا: نعم (ثلاث مرات)
قال: اللهم فاشهد[٢] (ثلاث مرات).

(١) الترمذى - الزهد - ٢/٢٨٠ ودليل الفالحين ٢/٣٤٠.

(٢) سنن أبى داود ٢/٦٤٢

العبارة دون تكرار فيها جانب من التوكيد، هو دعاؤه الله قبل الإخبار بالبلاغ فى صورة استفهام تقريرى، ودخول حرف التحقيق "قد" على الفعل الماضى، لذلك لم يسع الصحابة إلا أن يقروا بالإثبات، فقالوا: نعم (ثلاث مرات)

فإذا كان هذا قد تكرر فقيل ثلاثا، فإن مدى تقرره فى نفوس الصحابة (السامعين) بعيد، إنه تكرار التبرئة من القصور، ولتحقيق حق أمانة كبيرة، ولإشعار المخاطبين بانتقال التبعة إليهم، فليتحملوا حقوقها.

وقول النبى ﷺ "اللهم فاشهد" عبارة موجزة، تقرع السمع والقلب فى شدة، وفيها من الإيجاز ما جعلها سريعة نافذة، أليس التقدير: اللهم بلغتهم، وطلبت إقرارهم على أنفسهم بالبلاغ فأقروا به على أنفسهم، فاشهد على ذلك؟ إن المقام والموقف وما يصحبه من إجلال وإعظام، وتهويل وترهيب، هو الذى أدى إلى هذا الإيجاز وتركيز العبارة، فتأمل كم يضيع فى هذا النسق من الإطناب من حدة العبارة وكم يتشتت من اجتماع فكر السامع المتأمل، وكم يختفى من دوى اللفظ فى امتداد العبارة؟(١)

٢ - جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة فلم يجد عليا فى البيت،

فقال: أين ابن عمك؟

قالت: كان بينى وبينه شىء فغاضبنى فخرج ولم يَقِلْ عندى،

فقال رسول الله ﷺ لإنسان: انظر أين هو؟ فجاء، فقال: يا رسول الله: هو فى المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، فجعل النبى ﷺ يمسحه عنه ويقول: قم أبا تراب. قم أبا تراب"(٢)

(١) الحديث النبوى ص٩٧.

(٢) فتح البارى - الصلاة - ٦٣٧/١، ٧٢/١١ ، مسلم - فضائل الصحابة - ١٨٢/١٥.

وقول النبى ﷺ "أنظر أين هو؟" فيه حذف لفعل مقدر، أى انطلق فـانظر أين هو؟ وحذف لدلالة السياق عليه، ولأنه لا يتعلق به الغرض فإضماره أبلغ من ذكره.

(فجاء، فقال ...) الفاء تفصح عن عدة أفعال محذوفة من الكلام والتقدير كما يقتضيه السياق (فانطلق، فبحث عنه، فوجده فى المسجد، فجاء إلى النبى ﷺ فقال له...) عدة جمل طويت وحذفت اختصاراً، ولعل فى هذا الحذف والاختصار إيحاء بسرعة الباحث عن علىّ ﷺ وجدّه فى طلبه، ثم هذه الأفعال المضمرة لا علاقة لها بالغرض، وهو معرفة مكان على ﷺ فحذفها اختصاراً أبلغ من ذكرها.

بعد هذا العرض لأنواع الإيجاز فى الحوار النبوى نستطيع أن نقرر أن الإيجاز من أبرز ما يميز الحوار النبوى، وذلك لتعدد الوسائل التى تتجه بالحوار إلى الإيجاز، اتفاقا مع طبيعته القائمة على المراجعة أو السؤال والجواب. فهناك كيفيات تعبيرية متعددة تتعاون على إبرازه وتحقيقه غير الأساليب التى تتعين دلالتها على الإيجاز والتى يغلب وردها فى الحوار النبوى، كأساليب القصر، والاستفهام، وبخاصة ما يراد منه التقرير، وإيجاز الحذف على تنوع المحذوف ومقداره، والقصص القصير، فمن هذه الكيفيات التعبيرية مثلا تخير الكلمات وبخاصة التى يكون لها دلالة واسعة كالالفاظ التصويرية المعبرة عن المعنى، ككلمة "تزفزفين" فى قول النبى ﷺ لأم السائب [وهى مريضة بالحمى]: مالك يا أم السائب تزفزفين؟ فهذا الفعل وحده يرسم لنا صورة فكى أم السائب ﷺ ووجهها فى حركة سريعة قسرية تدل على نوع المرض الذى يصيبها، وقد يصحب ذلك صوت غير مقصود، تساوى ذبذبته الحركة نفسها، كما أن مضعف الرباعى يصحبه التكرار المتلاحق فى الحديث الذى يدل عليه.

وكلمة "المتفيهقون" تصور بأصواتها التفاصح فى المنطق، وامتلاء الأشداق بالكلام وتكلف الاداء، والمبالغة فى امتلاء المخارج بالحروف.(١)

(١) لمزيد من الشواهد راجع مبحث تخير الكلمات وإيثار كلمة على أخرى ص١٢٦ من هذا البحث.

وإذا كنا فيما بعد قد خصصنا مبحثا للإطناب، واخترنا له بعض الشواهد من الحوار، لأن فيها تكراراً أو توكيداً لفظيا أو معنويا أو تفصيلاً بعد إجمال او توضيحا بعد إبهام، فالحق أن كل شواهد الحوار فى حقيقتها إيجاز بالقياس إلى ما يراد منها، لأن كل كلمة فى الحوار لها مغزاها، ولها مقصدها، ولها دلالتها التى لا يتأدى الغرض المطلوب بدونها، وسوف يشعر القارىء بذلك عندما يقرأ تحليلنا للشواهد التى أتينا بها فى الإطناب. فما من كلمة إلا ولها دور فى خدمة المعنى وتوضيح الهدف، فلم يكن البيان بعد الإبهام عبثا، و لم يكن الإبهام أصلا لغير هدف، بل غرضه التشويق وجذب الانتباه، وتنشيط الفكر وترقب البيان، فإذا أتى البيان تمكّن المعنى فى النفس حق التمكن.

الإطناب

الإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، لذلك قيل: "البلاغة الايجاز فى غير عجز، والإطناب فى غير خطل"(١)

يقول **ابن قتيبة** (ت٢٩٦هـ): "ولو كان الإيجاز محموداً فى كل الأحوال لجرده الله تعالى فى القرآن، و لم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام"(٢)

ويقول **أبو هلال** (ت٣٩٥هـ): "والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يُحتَاج إليهما فى جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز فى موضعه، كالحاجة الى الإطناب فى مكانه، فمن أزال التدبير فى ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب فى موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز فى موضع الإطناب أخطأ"(٣)

(١) الصناعتين ٢٠٩.

(٢) أدب الكاتب لابن قتيبة ١٥ ط القاهرة ١٣٠٠هـ.

(٣) الصناعتين ٢٠٩.

فالإطناب بلاغة، والتطويل عِيّ، لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يَبْعُدُ جهلا بما يقرب .. والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نَزِهٍ يحتوى على زيادة فائدة"(١)

وسوف نقسم الإطناب قسمين:

أ – إطناب بالبسط.

ب – إطناب بالزيادة.

وقد ورد القسمان فى الحوار النبوى، وسوف نورد فيما يلى بعض الشواهد على كل نوع منهما:

أولاً: الإطناب بالبسط:

أ) إطناب بتكثير الجمل:

وقد عرّفه ابن أبي الاصبع (ت٦٥٤هـ): "أن يأتى المتكلم إلى المعنى الواحد الذى يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل، فيدل عليه باللفظ الكثير، ليُضمِّن اللفظ معانىَ أُخَر يزيد بها الكلام حسنا"(٢)

ومن شواهد ذلك فى الحوار النبوى:

- **عن ابى هريرة ﷺ عن تميم الدارى أن النبى ﷺ قال: "إن الدين النصيحة (ثلاث مرات)**
  قالوا: لمن يا رسول الله؟
  قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم".(٣)

حاصل هذا الكلام إذا ورد من طريق الاختصار، أن يقول بعد تخصيص الله تعالى بالذكر وكتابه ونبيه – أن يقول: وللمسلمين، فإنها لفظة جامعة للأئمة وللعامة، فبسط هذه اللفظة ليفرد الأئمة بالذكر من جملة المسلمين، و لم يمكن الاقتصار على الأئمة فيكون المعنى ناقصا،إذ تمامه لا يكون إلا بذكر

---

(١) الصناعتين ٢١٠، ٢١١، والنكت للرمانى ٧٩.

(٢) تحرير التحبير ٥٤٤.

(٣) صحيح مسلم ٣٧/٢، سنن الدارمى – الرقاق – ٢٦٣٦ والترمذى ١٨٠/٢.

عامة المسلمين، فأتى بذلك البسط ليفيد تتميم المعنى بعد تخصيص من يجب تخصيصه بالذكر، والله أعلم.(١)

ب)إطناب بإعادة الكلام بلفظه:

ومن شواهد ذلك فى الحوار النبوى:

١ - عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، ما تقولون؟ أيبقى ذلك من درنه شيئاً؟

قالوا: لا يبقى ذلك من درنه شيئا.

قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"(٢)

جواب الصحابة على سؤال النبى ﷺ: لا يبقى ذلك من درنه شيئا.
كان يكفى قولهم: "لا" لورود الجملة فى السؤال، ولكنهم أعادوها بلفظها مع أداة النفى، تأكيدا ومبالغة فى نفى الدرن.

٢ - من حديث معاذ بن جبل ﷺ قال للنبى ﷺ: "أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار"

فقال النبى ﷺ: لقد سألتنى عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة..."(٣)

لما كان مطلب معاذ عظيما مهّد النبى ﷺ للجواب بمقدمة نبّه فيها على فخامة المسئول عنه، بأن أكده تأكيد بليغا، وعظمه غاية التعظيم ليمكنه فى الذهن ويوطنه فى القلب. هذا التمهيد قبل الجواب يعد من الإطناب.
وكذا الزيادة على الجواب، فكلما أجابه عن شىء قال: ألا أدلك على كذا؟ ويجيب ثم ألا أخبرك بكذا؟ ويجيب.

---

(١) تحرير التحرير ٥٤٨.

(٢) فتح البارى ٢/١٤، ١٥ والترمذى - الأمثال - ٢/٣٨٠

(٣) الترمذى - الإيمان - ٢/٣٢٨، ٣٢٩ وابن ماجه - الفتن - ٢/٣٥٩

وتوضيح ذلك أنه لما فرغ من جواب معاذ، وكان الكلام فى شأن الدين، وهو الإيمان والإسلام، استطرد أمر النوافل تكميلا للفرائض فقال: "ألا أدلك على أبواب الخير" ثم بعده أمر الجهاد ثم أخيراً قوله: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله" كف عليك هذا...

وكذا الزيادة فى الجواب حيث قال النبى ﷺ "الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفى الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين".

فإن الظاهر كان يكفى أن يقال: (الصوم والصدقة وقيام الليل). ولكن النبى ﷺ أراد زيادة التصوير للمعنى المقصود تقريرا لفضله وإبرازا لفائدته ترغيباً فى الإقبال عليه والتمسك به.

فالزيادة هنا لفائدة اقتضاها المقام، لأن تقديم المعنى فى صورة تشبيهية أقوى من عرضه مجردا، لأن التشبيه يقدم المعنى فى صورة محسه متخيلة تجعل المخاطب يرى الصوم سوراً حاميا يقيه المخاطر والمخاوف، ويرى الخطيئة ناراً مشتعلة، والصدقة ماء بارداً ينصب عليها فيطفئها، كل ذلك يرغب المخاطب فى التمسك والالتزام بالصوم والصدقة وصلاة الليل.

والحديث بطوله يشير إلى الإطناب، لأن المقام مقام إرشاد وتعليم وتوجيه، فلابد من ذلك لمناسبة المقام لمقتضى الحال.

وسبق أن أشرنا إلى مواطن كثيرة للإيجاز فى هذا الحديث، ولكن كلاًّ من مقام الإيجاز أو مقام الإطناب فى الحديث النبوى له مواضعه التى تتجلى فيها فائدته.

وكما يقولون: للإيجاز مقامه وللإطناب مقامه، ولو أن الإيجاز أفضل من الإطناب لأتى القرآن كله على الإيجاز، ولكن جاء فيه الإيجاز فى مواضع، والإطناب فى مواضع، حسبما يقتضى المقام ويتطلب السياق.

وكذا الأمر فى الحديث النبوى، وإن كان الحوار بطبيعته أميل إلى الإيجاز.

وخلاصة القول إن عُلُوَّ شأن الكلام بحسب مصادفة المقام.

ولله در القائل:

يرمون بالخطب الطوال وتارة   وَحْيَ الملاحظ خِيفةَ الرقباء(١)

ثانياً: الإطناب بالزيـــادة:

ويكون بأنواع منها:

أ - التأكيد اللفظى.

ب - التأكيد المعنوى.

جـ - التكرير أو التكرار.

د - التفصيل بعد الإجمال.

هـ الإيضاح بعد الإبهام.

وقد وردت كل هذه الأنواع فى الحوار النبوى، لأن النبى ﷺ داعيـــة فى المقام الأول، ومبلغ عن ربه فى مجتمع تغلب عليه الأمية والجـــهل، والجـدل والمراجعة، مما يضطره أن يلجأ إلى أساليب التوكيد - حسبما يقتضى المقـــام وتتطلب الحال - لتثبيت معانيه فى نفوس المخاطبين، وتقرير قضايا الدين.

أولاً: التأكيد اللفظى:

وهو ظاهرة أسلوبية شائعة فى البيان النبوى إذ كان النبى ﷺ يكرر الكلمة أو الجملة مرتين أو ثلاثاً على الوجه الذى يلمس حاجة المعنى إلى إعادته، كما أنه وسيلة إلى نقل أحاسيسه ومشاعره نحو فكرة ما، أو قضية ما.

وللتأكيد اللفظى طريقان:

الأول: أن يكون بإعادة الكلمة أو الجملة على الوجه الذى يقتضيه المقام.

الثانى: أن يكون بأداة من أدوات التوكيد التى وضعتها اللغة أو العرف البلاغى لإفادته.

فمن شواهد الأول:

١ - عن ابى سعيد الخدرى ﷺ قال: "جاء بلال ﷺ إلى النـــبى ﷺ بتمـــر برْنى، فقال له النبى ﷺ: من أين هذا؟

---

(١) البيت لأبى داود الإيادى البيان والتبيين ٤٤/١ والصناعتين ٢١١.

قال بلال: كان عندى تمر رَدِىٌّ فَبِعْتُ منه صاعين بصاع، لِيَطْعَم النبى صلى الله عليه وسلم.

فقال النبى ﷺ عند ذلك: أَوَّهْ. أَوَّهْ، عين الربا، عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشترى فبع التمر ببيع آخر، ثم اشترِ به"(١)

النبى ﷺ حريص على نقاوة سلوك أصحابه، فلا يسكت أو يتغاضى عن خطأ يراه، بل يسارع بإصلاحه على الفور، وهو يهتم بأمر الدين وتعليمه مَنْ لا يعلمه، فلما سأل بلال: من أين هذا؟ يقصد هذا التمر الجيد، لأنه لم يعهد لبلال مثل هذا. فلما أجابه بلال تألم - لسوء تصرفه - **وقال: أَوَّه. أَوَّه، عين الربا. عين الربا، لا تفعل.**

فالتأكيد اللفظى واضح قول النبى ﷺ: أَوَّه. أوَّه، عين الربا. عين الربا.

تأوه النبى ﷺ إظهاراً لخطورة فعل بلال ﷺ ، وكرر التأوه ليكون أبلغ فى الزجر، وصعد الزجر بقوله (عين الربا. عين الربا) فهى بمثابة التعليل للزجر ثم أعقب هذا بالنهى الصريح "لا تفعل" وكأنه يأمره برد التمر إلى صاحبه، و لم يترك النبى ﷺ القضية دون أن يضع لها التشريع الحكيم فى نهاية الحوار "إذا أردت أن تشترى فبع التمر ببيع آخر، ثم اشتر به"(٢)

٢ - روى البخارى ومسلم وابن ماجة واللفظ لمسلم(٣)، عن أنس بن مالك ﷺ قال: "مُرّ بجنازة فأُثنى عليها خيرا،(٤)

---

(١) فتح البارى - الوكالة - ٥٧٢/٤ وصحيح مسلم - المساقاة - ٢٢/١١ (أَوَّهْ) كلمة تقال عند الشكاية والحزن.

(٢) جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "... ولا تبتاعوا التمر بالتمر" مسلم البيوع وفى المساقاة ٢٠/١١، ٢١

(٣) صحيح مسلم - الجنائز - ١٨/٧، ١٩ وفتح البارى - الجنائز - ٢٧٠/٣ وابن ماجه ٤٧٨/١

(٤) قوله: فأثنى عليها خيرا ثم قوله بعدها فأثنى عليها شراً (بالبناء للمجهول فيهما) جاء فى "المصباح المنير" مادة "ثنى" الثناء يستعمل فى الخير وفى الشر، فيقال: أثنيت عليه خيرا، وأثنيت عليه شرا، لأنه بمعنى وصفته، نص عليه جماعة من أئمة اللغة المحققين، كما بسطه الفيومى فى المصباح، وغلّط من قال: لا يستعمل الثناء إلا فى الخير.

فقال النبى ﷺ: وجبت ، وجبت، وجبت. ومر بجنازة فأُثنى عليها شرا، فقال نبى الله ﷺ: وجبت، وجبت، وجبت.
قال عمر: فدى لك أبى وأمى، مر بجنازة فأثنى عليها خيرا فقلت: وجبت، وجبت، وجبت.
ومر بجنازة فأثنى عليها شرا، فقلت: وجبت وجبت وجبت.
فقال رسول الله ﷺ: من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض. أنتم شهداء الله فى الأرض. أنتم شهداء الله فى الأرض"(١) (ذكر الفعل بلفظة ثلاثة مرات).

فالتأكيد اللفظى فى قوله ﷺ: وجبت. وجبت. وجبت وقوله: أنتم شهداء الله فى الأرض. أنتم شهداء الله فى الأرض. أنتم شهداء الله فى الأرض. (ذكر الجملة بلفظها ثلاث مرات) قال الإمام العينى "والتكرير فى الحديث لتأكيد الكلام، لئلا يَشكُّوا فيه"(٢)

٣ – عن أبى سعيد "جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ قالت يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك.... ثم قال: ما منكن امرأة بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجاب من النار، فقالت امرأة منهن: يا رسول الله، واثنين؟ قال: فأعادها مرتين، ثم قال: واثنين واثنين واثنين"(٣)

٤ – حدثنا شعبة عن عمرو قال: "سمعت جابر بن عبدالله قال: كان معاذ بن جبل يصلى مع النبى ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه. فصلى العشاء فقرأ بالبقرة، فانصرف الرجل، فكأن معاذا تناول منه، فبلغ النبىَّ ﷺ

---

(١) المواضع السابقة من مسلم وفتح البارى وابن ماجه.

(٢) عمدة القارىء ١٩٥/٨.

(٣) فتح البارى – الاعتصام بالكتاب ٣٠٥/١٣/ ٣٠٦ – ومسلم – البر والصلة – ١٨١/١٦.

فقال: فتّان. فتّان. فتّان (ثلاث مرات) أو قال: فاتنا. فاتنا. فاتنـــا، وأمره بسورتين من أوسط المفصل..."(١)

ومن شواهد الثانى: وهو ما كان **التأكيد فيه بالأداة**، حيث يختلف التعبـــير بوضعها وجوداً وعدما:

١ - عن صفية بنت حُيىّ ﷺ قالت: "كان النبى ﷺ معتكفاً: فأتيته أزووره ليلا، فحدثته ثم قمت لأنقلب، فقام معى ليقلبنى، وكان مســكنها فى دار أسامة بن زيد ﷺ فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النـــبى ﷺ أسرعا، فقال النبى ﷺ: "على رِسْلِكُمَا إنها صفية بنت حُيىّ"

فقالا: سبحان الله يارسول الله.

قال: إن الشيطان يجرى من الإنسان - وفى رواية من آدم - مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شراً، أو قال: شيئاً"(٢)

جاء فى هذا الحديث ثلاث جمل مؤكدة بحرف التأكيد "إن" ولكل تأكيد دافعه وسببه، فإسراع الرجلين فى هذا المقام مشعر بالتحرج من رؤية الرســول ﷺ على هذه الحال، فإتيان "إن" فى هذه الجملة "إنها صفية" لتأكيد المعرفــــة بالمرأة، وهى زوج النبى ﷺ.

وفى قوله ﷺ: "إن الشيطان يجرى من الإنسان ..." تنبيه لما ينبغى أن يعلـــم على وجه من التأكيد، وهو شدة ملابسة الشيطان لقلب الإنسان.

ولما تعجب الرجلان بقولهما: "سبحان الله" إظهاراً لطهارتهما من ســـوء الظن برسول الله ﷺ كان جوابه عليه السلام مؤكداً لحرصه الشديد عليهما وخشــية عليهما من نفثة الشيطان فحسّن ذلك تأكيد جملة الخشية بإن "وإنى خشــيت أن يقذف فى قلوبكما شرا".

٢ - عن أبى هريرة ﷺ قال: "ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ (ثلاث مرات) قالوا : بلى.

---

(١) فتح البارى - الأذان - ١٩٢/٢ (طبع ونشر مكتبة الرياض).

(٢) فتح البارى - بدء الخلق - ٣٨٨/٦.

قال: خيركم من يُرْجَى خيره، ويُؤْمَن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره"(١)

فى هذا الحديث يجعل الرسول ﷺ خير المخاطبين مقابل شرهم، ويجعل صفات هؤلاء مقابل صفات الآخرين، ليقيس كل امرىء نفسه بمقياس جلى، فيعرف طريقه ويعرف نفسه من أى الفئات هو فلا ينخدع ولا يسوّف.

وجاء التأكيد فى هذا الحديث بحرف الاستفتاح "ألا" وهو يؤكد مضمون الجملة بعده ومع ما لأداة العرض (الاستفتاح) "ألا" من استنهاض لقوى النفس وإثارة نشاطها، تكررت الجملة مع الأداة نفسها ثلاث مرات.

ولا ننسى المقابلة بين خير المخاطبين وشرهم التى تضيف توكيداً معنويا إلى التوكيد اللفظى، مما يقوى المعنى ويزيد من تأثيره فى نفوس المخاطبين.

٣ - عن أبى بكرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالها ثلاثا

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس،

فقال: ألا وقولُ الزور ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت"(٢)

كرر النبى ﷺ جملة العرض ثلاث مرات تأكيدا وتنبيها للسامع إلى إحضار قلبه وعقله، لتلقى الخبر الذى يذكره.

وكرر قوله (ألا وشهادةُ الزور) ولم يكرر (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين) اهتماما منه ﷺ بالزجر عن شهادة الزور، لسهولة وقوعها على الناس وتعدى مفسدها إلى الغير، وقد تؤدى إلى قلب الحق باطلا والباطل حقا.

وزاد من شدة التأكيد والزجر تغيير جلسته ﷺ وظهور غضبه وتكرار العبارة بشكلٍ لم يقع منه عند ذكر ما هو أكبر منها، كالقتل مثلا أو الزنا.

---

(١) الترمذى - الفتن - (المعجم المفهرس) ٩٨/٢

(٢) صحيح مسلم - الإيمان - ٨٣/٢

التأكيد بإن واسمها ضمير الشأن وألا:

٤ - عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ
"إنها ستكون فِتَنٌ، ألا ثم تكون فتن، القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟
قال: يَعْمِد إلى سيفه، فيدق على حده بحجر، ثم لينجُ إن استطاع النجاء".
اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟(١)

قوله ﷺ "إنها ستكون فتن" فى صدر الحديث يقوم مقام اللافتات التحذيرية، ولاسيما أنها تشير إلى أمر غيبى مما يقسر انتباه السامع، ويشوقه إلى معرفة ما سيكون.

والعبارة مؤكدة بإن، ومما يُحسِّن التأكيد بها أن اسمها **ضمير الشأن**، وهو لا يخلو من تقرير المعنى وتأكيده مع دلالتها عليه، فإنه لعدم سبق مرجع الضمير وكونه ضمير غيبة يكتنفه شيء من الإبهام حتى يذكر المرجع، وذلك يحمل النفس على الانتباه، فيجيء التفسير إشباعا لظمأ النفس، فيتقرر به المراد، ولاسيما وأن ضمير الشأن والشأن أمر واحد ذُكِر بلفظين.
وقوله ﷺ "ألا ثم تكون فتن" "ألا" للتنبيه والتوكيد، لأن هذه الأداة "مركبة من همزة الاستفهام و"لا" النافية لتفيد تحقق ما بعدها"(٢)

وتكرار الجملة بلفظها من قبيل التوكيد اللفظى، ولكنه تكرار فى موضعه، حسّن موقعه أن جاء لينبه إلى عظم الخطب ويحذر من هول الموقف، وكأنه ﷺ يصعد انتباه المخاطب لأهمية ما يلقى عليه لأجل تقريره وتثبيته فى نفسه.

---
(١) صحيح مسلم - الفتن وأشراط الساعة - ٩/١٨.
(٢) التبيان للطيبى ٥٣٤.

وقوله ﷺ "اللهم هل بلغت؟" إخبار بالبلاغ فى صورة استفهام تقريرى، كرره بلفظه ثلاث مرات للتبرئة من القصور، ولإلقاء التبعة عليهم، وهذا أدعى إلى تقرير المعنى فى نفوسهم.

كما جاء تأكيده ﷺ مصحوبا بالتشويق وتجديد نشاط السامع وجذب الانتباه تحسينا وتقديرا، ليصل إلى أعماق المخاطبين تأثيراً وتقريراً.

التأكيد بالقسم:

والقسم من المؤكدات اللفظية القوية التى شاعت فى البيان النبوى، يؤكد به النبى ﷺ ما يستحق التأكيد من المعانى ،فتارة يقول "**والله**" وتارة "**وايم الله**" وأخرى "**والذى نفسى بيده**" أو "**والذى نفس محمد بيده**" ... وغير ذلك من صيغ القسم.(١)

أ - ومن شواهد التأكيد بالقسم ما جاء فى حواره ﷺ مع أسامة بن زيد عندما جاءه ليشفع فى حد من حدود الله بشأن المرأة المخزومية التى سرقت، فغضب النبى ﷺ **وقال له: أتشفع فى حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب قال: أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطع محمد يدها**"(٢)

فى هذا الحوار يؤكد النبى ﷺ نزاهة الإسلام وعدالته بالقسم "وأيم الله..." يعنى لا شفاعة فى حدود الله لجاه أو شرف، ولا نظر إلى صلة دنيوية - مهما تأصلت وعمقت - يطغى على إقامة ما أوجب الله أن يقام لسلامة دينه ولصيانة حقوق العباد، فصلة البنوة بين النبى ﷺ وبين فاطمة ابنته، لا تحرك رأفته ﷺ فيعفيها من إقامة الحد عليها بقطع يدها إن هى سرقت، وحاشاها.

وإتباع الاسم العلم "فاطمة" بالبيان "بنت محمد" له قيمة كبيرة فى تقرير وتأكيد مضمون الكلام، إذ لا يدع مجالا للشك فى تحديد أعلى صلة بين

---

(١) راجع الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ١٠٤.

(٢) فتح البارى - الحدود - ٨٩/١٢ ، ومسلم - الحدود - ١٨٦/١١، ١٨٧ النسائى.

الحاكم والمحكوم عليه، ففيه لفظة البنوة ثم هى مضافة - على الالتفات - إلى الاسم الظاهر "محمد" دون ضمير المتكلم، ليكون أشد تحديداً لمدلوله فى مقام الترهيب والمهابة، على العكس من نسبة فعل القطع إلى الضمير، لأن ذلك أبلغ فى الدلالة على مباشرة الفعل، وأسرع فى حسم الموقف(١)

ب - لما اجتمع الناس بكراع الغميم على النبى ﷺ بعد شهادتهم الحديبية خطبهم، فقرأ ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾

فقال رجل: أفتح هو؟

قال: "والذى نفس محمدٍ بيده، إنه لفتح"(٢)

فى هذا الحديث يرد النبى ﷺ على الصحابى الذى لم يَعُدَّ صُلح الحديبية فتحا، فكأنه بسؤاله ينكر ذلك، فمقام الكلام يقتضى هذا التأكيد، وهو مما اجتهد فيه رسول الله ﷺ بإطالة القسم، ثم بإن واللام، نزعا لما حاك فى صدر السائل وأمثاله، وثقةً بنشرها بين الصحابة فيما يعقب هذا الصلح من فتح قريب محقق.

اجتماع عدة مؤكدات:

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ:

"إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا بشهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى"

قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟

قال: قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يَتَعَاطَوْن، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حَزَنَ الناس"(٣)

نلاحظ فى هذا الحديث كثرة وسائل التوكيد التى استخدمها النبى ﷺ

---

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ١٠٧ (بتصرف).

(٢) سنن أبى داود - الجهاد - ٧٦/٣ (نشر مكتبة الرياض).

(٣) سنن أبى داود ٣٩١/٣ والترغيب والترهيب - الحب فى الله تعالى - ٤٨/٤.

أ - دخول أن على المسند المقدم الذى يحمل معنى التشويق والاهتمام بتقديمه أولاً، ثم دخول لام التوكيد على المسند إليه النكرة "لأناسا" والتنكير للتعظيم وبيان شرف هؤلاء ومترلتهم عند الله.

ب - التأكيد بالباء الزائدة داخلة على الخبر المنفى فى قوله "ما هم بأنبياء ولا بشهداء"

جـ - قسم النبى ﷺ ليؤكد سمو مكانتهم "والله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور".

كم وسيلةٍ للتأكيد فى هذه العبارة القصير، (القسم، وإن، واللام الواقعة فى خبرها، ثم عطف الجملة الثانية مؤكدة بإن) كل ذلك يصعد قوة التأكيد، ويزيد من تقرير المعنى.

د - صاحب هذه الوسائل من التأكيد أنواعٌ من التخصيص، تصعّد الشعور بمكانة هؤلاء من الله تعالى، منها:

أ - التقييد بالظرف الزمانى "يوم القيامة" بما يوحيه فى نفس المخاطب.

ب - التقييد بالظرف المكانى "بمكانهم من الله" الذى يملك كل شىء، ورضاه عنهم.

جـ - اختيار الجملة المضارعية "يغبطهم" نعتا لهم يفيد تجدد الغبطة وحدوثها بصورة مستمرة.

ثانياً: التوكيد المعنوى:

"يأتى التوكيد المعنوى لإفادة معنى (هو لا غيره) و(جميعه) وهو وارد فى الأسماء والأفعال بأفهام مختلفة، فأما الفعل فإنه يؤكد بمصدره لاستبعاد إرادة المجاز"[(١)] لأن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ولا تؤكد بالتكرار"[(٢)]

ويأتى التوكيد المعنوى لإثبات الشمول والعموم والإحاطة وتقرير المعانى.

ويحدثنا الزمخشرى عن جدواه فيقول: "وجدوى التأكيد أنك إذا كررت فقد قررت المؤكد وما علق به فى نفس السامع ومكنته فى قلبه، وأمطته شبهة ربما

---

(١) البيان فى روائع القرآن ٤٩٧

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١١١.

خالجته أو توهمت غفلة أو ذهابا عما أنت بصدده فأزلته، وكذلك إذا جئت بالنفس والعين، فإن لظان أن يظن حين قلت : فعل زيد، أن إسناد الفعل إليه تجوز أو سهو أو نسيان، وكل وأجمعون يجديان الشمول والإحاطة"(١)

وقد ورد التوكيد المعنوى فى البيان النبوى كثيرا، **ومما ورد منه فى الحوار:**

١ - قوله ﷺ للرجل الذى وجده لم يحسن صلاته: "... إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ،ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك فى صلاتك كلِّها"(٢)

٢ - وقوله ﷺ: "... ما لكم لا ترمون، قالوا: كيف نرمى وأنت معهم؟ فقال النبى ﷺ : ارموا فأنا معكم كلكم"(٣)

٣ - عن ابن مسعود ﷺ أن رجلا أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبى ﷺ فأخبره، فأنزل الله: "أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَىِ النَّهارِ وَزُلَفًا من الليلِ، إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ"

فقال الرجل: يارسول الله: ألى هذا؟

قال : لجميع أمتى كلِّهم"(٤)

(١) المفصل للزمخشرى ١١١، ١١٢ وبصائر ذوى التمييز ٢٦٤/٥.

(٢) فتح البارى - الصلاة - ٣٢٣/٣ مسلم - الصلاة ١٠٦/٤، ١٠٧.

(٣) فتح البارى - الجهاد والسير - ١٠٧/٦، أحاديث الأنبياء ٤٧٦/٦، المناقب ٦٢١/٦.

(٤) فتح البارى - مواقيت الصلاة - ١٢/٢، صحيح مسلم ٧٩/١٧، ٨٠، ودليل الفالحين ٣٤٢/٢.

ثالثاً: التكريـــر:

من المقرر أن الشيء إذا تكرر رسخ في الأذهان رسوخاً تنتـــهى بقبولـــه حقيقة ناصعة، ولعل السبب في ذلك "كون المكرر منطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الانسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار، وانتهى بتصديق المكرر"(١)

ومن هنا تتضح أهمية التكرير في الكلام، فهو من أهـــم العوامـــل لبـــث الفكرة في نفوس الجماعات، وإقرارها في قلوبهم إقرارا ينتهى إلى الإيمان بهـــا عقيدة وسلوكا.

جاء في بيان ضرورة الحاجة إلى التكرار قول الخطابي "وإنما يحتاج إليـــه ويَحسُنُ استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركـــه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها"(٢)

وقد استخدم النبي ﷺ التكرار - متأثراً في ذلك بمنهج القرآن الكـــريم - وسيلة لتأكيد المعاني وتثبيتها في نفوس من يدعوهم إلى الدين، ومن يعلمـــهم مبادىء الدين وأصول العقيدة، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ **"كان إذا تكلـــم بكلمة أعادها ثلاثا لتفهم عنه"**(٣) فهدفه ﷺ من التكرار تأكيد مضمـــون كلامه، وتنبيه المخاطب على أهميته، وليفهمه السامع ويتقنه .. كـــل ذلـــك إرادة الإبلاغ في التعليم والزجر في الموعظة.

---

(١) روح الجماعات ١٣٩.

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز ٥٢.

(٣) فتح الباري - كتاب العلم - ٢٢٧/١.

وقد يكون التكرار فى مقام الترغيب للإغراء والإكرام أو فى مقام الترهيب للإنذار والتهديد.

فمما جاء فى حواره ﷺ ترغيبا ما رواه البخارى ومسلم:

١ - عن معاذ بن جبل ﷺ قال: بينما أنا رديف النبى ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرحل، فقال يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة فقال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، فقال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك.

قال: هل تدرى ما حق الله على عباده، قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: حق الله على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .. الحديث.(١)

هذا النداء المكرر ثلاثا من رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ مع تأخير النداء فيه قسر لانتباه معاذ، وتشويق إلى ما سكت عنه النبى ﷺ ، وقد قصد النبى ﷺ بذلك تأكيد الاهتمام بما يخبر به، وليكمل انتباه معاذ ﷺ فيما يسمعه ليكون له منه محل التدبر والوعى كما ينبغى، ونلحظ من خلال الحوار أدب معاذ ﷺ فى إجابته رسول الله ﷺ "لبيك رسول الله وسعديك" أى إجابة بعد إجابة، وطاعة بعد طاعة، وفى رده ما لم يحط به من العلم إلى علم الله ورسوله وفيه قرب معاذ من رسول الله ﷺ مكانا ومكانة، إذ كان رديف النبى ﷺ فى سفره كما يفهم من قوله "ليس بينى وبينه إلا مؤخرة الرحل" فهذا كناية عن شدة القرب المكانى، وكون الرسول يخصه بهذا الشرف من العلم فذلك دليل التكريم وقرب المكانة.

---

(١) فتح البارى - كتاب الجهاد ٦٩/٦ وكتاب اللباس ٤١٢/١٠ وكتاب الاستئذان ٦٣/١١ وفى التوحيد ٣٥٩/١٣، ٣٦٠ ومسلم - كتاب الإيمان ٢٣١/١.

وذكر معاذ الهيئة والحال التى كان عليها وقت سماعه من رسـول الله ﷺ قرينة زيادة الضبط وكمال الصحة لما يقول.

٢ - عن أبى هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ

فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتى؟

قال: أمـك.

قال: ثم من؟

قال: أمـك،

قال: ثم من؟

قال: أمـك.

قال: ثم من؟

قال أبـوك"(١)

فى هذا الحوار السريع القصير الكلمات الموجز التراكيب، أراد الرسـول ﷺ أن يقرر فى نفس سائله واجب الصحبة للأم، فأعاد الجواب مكررا ثـلاث مرات، بهذا الشكل ليؤكد حق الأمومة لما خصت به الأم من الحمل كرهـا، والوضع كرها، ثم الرضاع عامين، فكأنما فى تكرير الجواب النبـوى ثـلاث مرات، تنبيه إلى هذه الثلاث، لما فيها من المشاق والإكراه على التحمـل فى بعضها، وهذا كاف لتصعيد الواجب على المرء نحو أمه.

"والإجابة الأولى هى حق السائل المستعلم، والثانية هى حـق السـائل المستشرف جديدا، والمشعر للمسئول بهذا المراد، إذ لو لم يكن كذلك لأتـى برابط غير "ثم" كالواو أو الفاء، والإجابة الثالثة هى حق السائل الذى بلـغ الغاية من الانتظار، وإيراد الرسول عليه كل ذلك بالجملة المقدر صدرها إيجازا أولا، والخالية ثانيا وثالثا من خصيصة التأكيد بالأداة، إشارة لطيفة إلى أن هذا

(١) فتح البارى - الأدب - ٤١٥/١٠ (ط الريـان) ومسـلم - البر والصلـة - ١٠٢/١٦.

- وإن دق - أمر مما يجب أن يعلم، وقد اكتفى ﷺ بتصعيد واجب الأم إلى هذ الحد بالتكرار المقرر لهذا المراد"(١)

وإذا كان الأب - وهو من هو فى حياة الولد وأمه - وقع فى رابع المنازل وآخرها، فوقوعه كذلك يطبع واجب الأم السابق بطابع الجزم، فليس فيه جموح بالخيال ولا غلو، وإنما هو تقرير حقيقة واقعة فى حياة الإنسان وتنبيه له إليها.

ومما جاء فى حواره ﷺ ترهيبا للإنذار والتهديد:

١ - عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه قيل: من يا رسول الله؟

قال: من أدرك والديه عند الكبر أو أحدها ثم لم يدخل الجنة"(٢)

صدر الرسول ﷺ الحوار بجملة دعائية بالفعل الماضى تأكيدا للوقوع، والعبارة فى صدر الحديث كلافتات الأنظار فى مقام الإنذار، ولافتات الأسماع فى مقام الترهيب، وتتكرر العبارة ثم تتكرر حتى يخفق قلب السامع ويستولى عليه الخوف، إشفاقا على نفسه أن يكون ذلك الراغم الأنف، ومن براعة الرسول وقدرته على قسر انتباه المخاطب وتشويقه إلى ما يقول، أن أبهم بيانه - الضمير يعود على ذلك الراغم - فأضمره غائبا قبل الذكر، حتى يستثير النفس بالانتباه، ولم يصبر الصحابي، فبادر بالسؤال: من يا رسول الله؟ فيجيبه النبى ﷺ أن هذا المحروم الشقى هو الذى يعق والديه أو أحدهما عند الكبر، ويزيد الرسول ذلك التأكيد تأكيدا باللزوم فيجعل إدخاله الجنة أو عدمه منسوبا إلى الوالدين، كأنهما يملكان ذلك.

"والإتيان "بثم" فيها إيماء إلى صعوبة المقام وإبطائه، فكأنه لذلك كالبعيد الحصول، فعبر فيه بذلك. قال العاقولى: معنى "ثم" فيه استبعاد لغفلته عن نيل مثل هذه السعادة العظيمة"(١)

---

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ٩٠.

(٢) صحيح مسلم - البر والصلة - ١٠٩/١٦. ودليل الفالحين ٢/ ١٥٢

٢ - عن أبي شريح الخزاعي ﷺ أن رسول الله ﷺ

قال: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن،والله لا يؤمن!

قيل: من يا رسول الله؟

قال: الذى لا يأمنُ جارُه بوائقَه"(٢)

صدر النبى ﷺ حديثه بجملة القسم بما تحمله من تحذير وترهيب تعجيلا بالإنذار وإعلان الخطورة، وكررها ثلاثا، ليضاعف من قوة الإنذار وآثار الخطورة، وليكون أبلغ فى الزجر والردع.

وما كان القسم منه ﷺ إلا للتنبيه على شناعة أذى الجار وتنغيصه، حتى نفى الإيمان عمن خالف هديه فى توثيق الصلة والتحاب بين الناس، ولزوم محبة الخير للجار.

ولتكرار القسم هنا دلالة تأثيرية على السامع (المخاطب)، إذ يخفق قلبه خوفا وإشفاقا على نفسه، أن يكون ذلك الموصوف بعدم الإيمان، فإن كان أقلع، وإلا فقد اطمأن على نفسه.

ومن ذلك أيضا حديث النبى ﷺ فى التحذير من شهادة الزور، يقول راوى الحديث (أبو بكرة) "... وكان متكئا فجلس، **فقال: ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت"(٣)**

نلحظ فى قول النبى ﷺ "الا وقول الزور، ألا وشهادة الزور" عطف أحدهما على الآخر عطف تفسير، ومن باب التوكيد وزيادة التفظيع، ثم تكرار "ألا" - التى توحى بشدة التنبيه إلى ما يذكر بعدها - مع كل مرة، لدليل الاهتمام بالتحذير من خطر شهادة الزور.

---

(١) دليل الفالحين ١٥٢/٢.

(٢) فتح البارى - الأدب - ٤٥٧/١٠ (ط الريان).

(٣) فتح البارى - الأدب - ٤١١/١٠ (ط بيروت) - الترمذى - البر والصلة - ١٧٦/٢.

فإن قلت: لم كرر قوله "الا وقول الزور ..." ولم يكرر قوله: "الإشراك بالله وعقوق الوالدين؟ قلت: لأن الشرك ينبو عنه المسلم، والعقوق ينبو عنه الطبع، أما شهادة الزور فالدوافع والبواعث عليها كثيرة، وإتيانها سهل، فحسن الاهتمام بها لخطرها ومن هذا الاهتمام أيضا أنْ صَاحَبَ القولَ تغييرُ الجلسةِ إشارة إلى خطورتها وعظم ضررها، إذ يتعدى ضررها إلى الغير، فقد تكون سببا فى إتلاف نفس، أو أخذ مال بغير حق، أو إبطال حق، أو إحقاق باطل، وهذا ما جعل النبى ﷺ غاضبا حين ذكرها، ووقع منه من التكرير ما لم يقع منه عند ذكر أكبر منها، كالقتل أو الزنا.

ومن الشواهد التى اجتمع فيها التكرار مع الإشارة هذا الحوار:

٣ - عن جابر بن عبدالله أن النبى ﷺ

قال: "... لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت، لم أَسُقِ الْهَدْىَ، وجعلتُها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحِلّ وليجعلها عمرة، فقام سراقة بن مالك بن جعشم،

فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبد؟

فشبك رسول الله ﷺ واحدة فى الأخرى وقال: دخلت العمرة فى الحج دخلت العمرة فى الحج، لا ، بل لأبدٍ أبد"(١)

التفصيل بعد الإجمال:

وغرضه بيان المجمل زيادة فى فهمه وتوضيح ما يقصد به.

١ - عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلا جيىء به يوم القيامة وبكنزه، فيحمى عليه صفائح فى نار جهنم، فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار... (وذكر صاحب الإبل وصاحب الغنم)

---

(١) سنن أبى داود - الحج - ٢/١٦٠

قيل: يا رسول الله، فالخيل؟

قال: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، والخيل ثلاثة: هى لرجل أجر، وهى لرجل سِتر، وهى على رجل وِزر، فأما الذى هى له أجر الذى يتخذها ويحبسها فى سبيل الله ... وأما الذى هى له ستر فرجل يتخذها تعففا وتجملا ... وأما الذى هى عليه وزر فرجل يتخذها أَشَرًا وَبَطَرًا ...

قيل يا رسول الله ، فالحمر؟

قال: ما أنزل على فيها شىء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره.ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾(١)

لما ذكر النبى ﷺ صاحب المال وصاحب الإبل وصاحب الغنم وسكت، قال بعضهم: يا رسول الله، والخيل؟ أى: وما شأن الخيل وصاحبها؟

وهنا وقع السؤال الذى مهد له النبى ﷺ واستنطقهم به، بسبب سكوته عنه، فقال ﷺ : "الخيل مقعود بنواصيها الخير .. والخيل ثلاثة: هى لرجل أجر، وهى لرجل ستر، وهى على رجل وزر، ثم فصل القول فى ثلاثة الرجال.

فيعد قوله ﷺ "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، إجمالا لما فصله فيما بعد.

يقول **الشريف الرضى**: "فى هذا القول مجاز، لأن الخير فى الحقيقة ليس يصح أن تعقد به نواصى الخيل، وإنما المراد أن الخير كثيرا ما يدرك بها، ويوصل إليه عليها ... وفى هذا حث على ارتباط الخيل لما فى ذلك من الغنم العاجل والأجر الآجل، فأما الغنم فما يدرك بها من الأسلاب والأنفال، وأما الأجر فعلى ما يدفع بها من أعداء الإسلام وأشياع الضلال، وكلا الأمرين خير تنحوه الطلبات وتتعلق به الرغبات"(٢)

---

(١) مسند أحمد باقى مسند المكثرين حديث رقم ٨٦١٩ والآيتان من سورة الزلزلة ٧،٨.

(٢) المجازات النبوية ٤٩، ٥٠.

ولعل فى هذا البيان والتفصيل من رسول الله ﷺ مزيد اهتمام بشأن الخيل، وإعلاء لقدرها وبيان نفعها، وحث على اقتنائها ورعايتها.

٢ - عن أبى هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه: "من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلمها من يعمل بهن؟

قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدى فعد خمسا:

قال: اتقِ المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب"(١)

الاستفهام فى صدر الحديث (من يأخذ عنى ..؟) غرضه التشويق، وفيه استرعاء لانتباه الصحابة وتحفيز لهم على الأخذ من رسول الله ﷺ وما يأخذون عنه إلا كل خير فيه سعادتهم، وهو سؤال ذو أهمية بالغة فى التشويق وتنشيط الفكر، إذ يترقب المستمعون ويتطلعون إلى معرفة هذه الكلمات المشار إليها.

والعدد مبهم فى الكلمات المشار إليها أولا، مفسر فى خبر الصحابى (عد خمسا) وقد انضمت الوسيلة الحسية الفعلية "فأخذ بيدى" إلى الأسلوب فزادت من الإثارة والتشويق، جلبا للاهتمام، وأشير إلى الكلمات التى لم ترد بعد إشارة المحس المشاهد - "هؤلاء الكلمات" - لتتميز أكمل التمييز فى ذهن السامع أو المخاطب.

بعد ذلك فصل الرسول الكريم ما أجمل، وبين ما أبهم فى العدد (خمسة) قال:

"اتق المحارم تكن أعبد الناس.

وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا.

---

(١) سنن الترمذى - الزهد - ٥٥١/٤ (ط الحلبى).

وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما.
ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب".

كل واحدة من هذه الوصايا تعد من جوامع كلم النبى ﷺ لما تشتمل عليه من معانى كثيرة، وأهداف نبيلة وآداب سامية تقيم من الضمير حسيبا ومن الله رقيبا، وما أحراه وقد عد منها خمسا أن يسمى **جامع الجوامع.**

وليس من هدفنا هنا شرح المعانى التى تضمنها هذا الحديث فشرحه يتطلب صفحات طوال، نستأذن القارىء فى الرجوع إلى كتب شرح الأحاديث(١)

١ - عن ابن عباس قال: قال رجل يا رسول الله: أى العمل أحب إلى الله تعالى؟
قال: الحالّ المرتحل.
قال: وما الحالّ المرتحل؟
قال: "الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حلّ ارتحل".(٢)

٢ - عن أبى قتادة بن ربعى رضي الله عنه أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة فقال: "مستريح ومستراح منه".
قالوا: يار سول الله: ما المستريح، وما المستراح منه؟
فقال: "العبد المؤمن يستريح من نَصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب".(٣)

فى الحديث الأول تولد من الجواب سؤال آخر، تلاه البيان الشافى وهو قوله ﷺ **"الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل"**

---

(١) انظر فتح البارى، وصحيح مسلم، وعمدة القارىء.

(٢) سنن الترمذى - كتاب القراءات - ٢٨٧٢، سنن الدارمى - فضائل القرآن - ٣٣٤١

(٣) صحيح مسلم - الجنائز - ٢٠/٧ وفتح البارى - الرقاق - ٣٦٩/١١ وزاد (من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله).

ومن جمال العبارة - غير المقابلة بين الحال والمرتحل - الوصف بالموصول الاسمى "الذى" يتسع به مجال استيعاب الصفة، والإفضاء بما فى النفس من معنى الموصوف، فقوله ﷺ "الذى يضرب ..." نجد الموصول الاسمى وقع نعتا لخبر المبتدأ، وكلاهما محذوف مقدر للعلم به، إذ التقدير (أحب الأعمال ... الحال المرتحل) الذى يضرب ... فالموصول هنا يعد وصلة إلى ما يستتبع من جملة الصلة ومتعلقاتها (يضرب من أول القرآن ..." تحقيقا للفائدة وتدعيما للمضمون.

ويشير النظر إلى أمور أخرى من دقة العبارة وبلاغتها:

- الإيجاز بالحذف.
- دقة استعمال الاسم الموصول افتتانا، ومطابقة لما هو له.
- التصوير الفنى فى تشبيه المداوم على قراءة القرآن - كلما أتمه ابتدأه من جديد - كالمسافر الجد الذى كلما حل بمكان تأهب للرحيل، وهكذا دواليك. فمن أفادت ابتداء الغاية، وإلى تشير إلى انتهاء الغاية، وكلما تدل على تكرار الفعل بلا توقف.
- ثم "الحال المرتحل" كلمتان اثنتان ترسمان صورة لصاحب القرآن المداوم على تلاوته، فهو كالمسافر الجد بينما يترل حتى يرتحل، وبينما يسير حتى يترل، وهكذا. ولك أن تتصور هذا الحال المرتحل يركب دابته ويحمل أمتعته ويحتمل وعثاء السفر، يسافر إلى غاية نبيلة ومطلب مرغوب، فهو يستعذب متاعب السفر فى سبيل الوصول إلى هدفه.

إنها صورة حية ماثلة للخيال، مليئة بالحركة توحى بعظمة الهدف ونزاهة المطلب.

وفى الحديث الثانى: ترتب على قول الرسول ﷺ **"مستريح ومستراح منه"** سؤال يتطلب جوابا لإزالة الإبهام عند المخاطبين، فكان البيان الموضح قوله ﷺ : **"العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب".**

ويشير النظر إلى أمور من دقة العبارة وبلاغتها:

- المقابلة بين حال العبد المؤمن وحال العبد الفاجر بعد مماتهما، ساقها النبى ﷺ فى صورة موازنة ليجلى الحالين، وتتضح كل منهما بمقابلها حتى ينظر ذو عقل فيرجح ويختار.
- إسناد الفعل "يستريح" إلى الشجر والدواب، وما فى ذلك من تشخيص يصور الشجر والدواب أحياء يحسون، ويعانون من شر الفاجر، يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب، أى بموته.
- الجمال التوقيعى فى العبارة "يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب" وغير ذلك مما يمكن استجلاؤه بالنظر.

الفصل الرابع

الصورة فى الحوار النبوى

- المجاز فى الحوار النبوى.

أولا: التشبيه.

ثانيا: المجاز المرسل.

ثالثا: المجاز العقلى.

رابعا: الاستعارة.

خامسا: الكناية.

- الأسلوب التصويرى فى الحوار النبوى.

أولا: التصوير بالوصف.

ثانيا: التصوير بالقص.

المجاز فى الحوار النبوى

إن المجاز تطوير لدلالة اللفظ، وتحميله من المعانى المستحدثة أو المعانى الثوانى، ما لا يستوعبه نفس اللفظ فى أصل وضعه، فالكلمة أو اللفظ قد يجتاز موضعه أو محله من معنى إلى معنى مع إرادة المعنى الجديد، لأنه استعمل فى غير ما وضع له.

وقد يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إذا كان فيه زيادة فى الفائدة، واستيعاب للمعنى الحقيقى بإضافة معنى جديد، ينتقل إليه ذهن السامع، وهذا الانتقال ذو قيمة فنية فى شمولية اللفظ، ومرونة استعماله.
لذلك فإنك تعجب بما فى التعبير المجازى من تلوين للأفكار، وتوليد للمعانى، ورسم للصور، وبعث للإيحاء بما هو ملائم لطبيعة المعانى.

والمجاز والتشبيه والاستعارة هياكل حية تعبد الطريق إلى الولوج فى نفس الإنسان، لما اشتملت عليه من سحر بيانى مقترن بناحيتين، هما:
(نقل العواطف، وإثارة الاحساس) وبهما تتجاوب الأصداء،وتلتقى الأصوات، وتتحرك الكلمات، وتنبعث الإيحاءات، وتتكثف الدلالات.
إذن فالجانب النفسى والسيطرة على الإحساس الداخلى، والامتزاج مع شعور الإنسان، عوامل انفعالية تكمن وراء العناصر الفنية للعبارة الحوارية.

والمجازات النبوية من تشبيه واستعارة ومجاز مرسل ومجاز عقلى وكناية، تعد صورا فنية غنية بالدلالة، تشخص المعنى وتمنحه الحياة الشاخصة، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة. وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى، وبذلك تعطينا الصورة كل عناصر التخييل التى يمكن بها تقريب المعنى وإدراكه، فيتقرر ويثبت فى أذهان المخاطبين.

أولا: التشبيه

التشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسى، وبه يوضح الفنان شعوره نحو شىء ما، حتى يصبح واضحا وضوحا وجدانيا، وحتى يحس السامع بما أحس المتكلم به، فهو ليس دلالة مجردة، ولكنه دلالة فنية.(١)

والتشبيه والتمثيل أداة فطرية لإظهار صورة ذهنية عند المتكلم، لا يرى التعبير عنها كافيا فى تصويرها، لتكون أشد وضوحا وأكمل أطرافا. **إذن فالغرض من التشبيه الوضوح والتأثير.**

يقول **ابن الأثير**: "إنك إذا مثلت الشىء بالشىء، فإنما تقصد به إثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد فى طرفى الترغيب فيه أو التنفير عنه، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هى أحسن منها، كان ذلك مثبتا فى النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها؟ وكذلك إذا شبهتها بصورة شىء أقبح منها، كان ذلك مثبتا فى النفس خيالا يدعو إلى التنفير عنها"(٢)

ويرجع جانب كبير من سر تأثير التشبيه إلى إبرازه المعانى فى صورة قوية، تقررها فى النفوس وتبرزها، وتودعها التأثير المخصوص، فإذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه معنى عقلى بحسى، فإنه ينقل النفس مما تعلمه إلى ماهى به أعلم، إذ تشترك الحواس عنئذ فى إدراكه، والنفس آنس لما يأتيها من طريق الحواس؛ لأنه ينقلها من الخفى إلى الجلى، وما أجمل تعبير عبدالقاهر "إنه قد فتح إلى مكان المعقول من قلبك بابا من العين"(٣)

والتشبيه يقرر المعانى بصورة قياسية، وكلما تأكد بخصيصة من خصائص التقوية زاد المعانى تقريرا، وكان أعمق تصويرا.

---

(١) من بلاغة القرآن ١٩٠.

(٢) المثل السائر ١/٣٩٤.

(٣) أسرار البلاغة ١٠٨ (رشيد رضا).

وأول ما يسترعى النظر من خصائص التشبيه فى الحديث النبـــوى، أنـــه يستمد عناصره من الطبيعة، وذلك سر خلوده، فإذا أضيف إليه خصيصة مـــن خصائص التقوية - كالحوار مثلا - زاد المعانى تقريرا، وكان أعمق تصويـــرا وأشد تأثيرا.

١ - عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنهـــا مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟ فوقع الناس فى شجر البوادى

قال عبدالله: ووقع فى نفسي أنها النخلة فاسْتَحْيَيْتُ.

ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله.

قال: هى النخلة.[١]

كان النبى ﷺ كثيرا ما يتسخدم السؤال والجواب اسلوبا يختبر به ذكـــاء أصحابه، وليكون وسيلة تعليمية يشوقهم بها إلى مـــا يريـــد أن يرســـخ فى نفوسهم، فهو فى هذا الحديث يسألهم عن شجرة من صفاتها (لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم).

فوقع الناس فى شجر البوادى، أى تفكروا فيه فلم يصلوا إليها، وكـــان فيهم عبدالله بن عمر (رضى الله عنهما) وقد وقع فى نفسه أنها النخلة ولكـــن حياءه من أبيه ومن كبار الصحابة منعه من أن يجيـــب. ويعلـــن الصحابـــة عجزهم قائلين: حدثنا يا رسول الله ما هى؟
فيجيبهم بأنها النخلة.

والمتأمل فى هذا الحديث يلحظ تشبيها تمثيليا، حيث شبه الرسول النخلـــة - لا يسقط ورقها، ولا يقطع ثمرها، ولا يعدم فيؤها، ولا يبطـــل نفعـــها - بالمسلم الكامل فى دوام نفعه وخيره.

---

(١) فتح البارى - كتاب العلم - ١/١٧٥، وصحيح مسلم - كتاب صفة القيامـــة والجنة والنار - ١٧/١٥٣ وانظر عمدة القارىء ٢/١٤.

(وإنها مثل المسلم) فوجه الشبه هيئة مركبة من متعدد، كثرة خيرهـــا ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، ويتخذ منها منافع كثيرة من خشبها وورقها وأغصانها، ثم آخرها نواها ينتفع به علفا للإبل، فكلها منافع وخـــير وجمال.

وكذلك المؤمن خير كله، من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه، وأنه ينتفع بمـــا يصدر عنه حيا أو ميتا.

وأرى أيضا أن مما يشتمل عليه وجه الشبه الثبوت والرفعـــة، فكمـــا أن النخلة أصلها ثابت، وفرعها فى السماء، فكذلك المسلم، أصل دينه ثـــابت، وعمله الصالح مرفوع فى السماء.

٢ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمـــس مرات، ما تقولون؟ أيبقى ذلك من درنه شيئا؟

قالوا: لا يبقى ذلك من درنه شيئا.

قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"(١)

يريد الرسول ﷺ من هذا الحوار أن يقرر لأبناء أمته فضيلـــة الصـــلاة، ويؤكد أجرها وعظيم ثوابها، فجعل التمثيل وسيلة إيضاح للتقرير، وجعـــل صورة الممثل به سابقة فى التعبير، لقسر انتباه المخاطبين وتحريك شوقهم، وقد اقترنت بذلك الاستفهام التقريرى (أرأيتم لو أن نهرا...) الذى يطلب منـــهم جوابه ليطيل الشوق ويزيد الانتباه.

وحسبنا ما توحى به كلمة "نهر" النكرة من رقة وصفاء، وعذوبة وجمـــال طبيعى، وما توحى به "الباء" بين النهر والباب (نهرا ببـــاب أحدكـــم) مـــن الالتصاق، حتى كأن الدار تجرى من تحتها الأنهار.

(١) فتح البارى - كتاب مواقيت الصلاة - ٢/١١ ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - ٥/١٧٠ والترمذى - الأمثال - ٢/٣٨٠.

هذا فى جانب صورة الممثل به، أما فى جانب الممثل له المتأخر وهو قوله ﷺ (فذلك مثل الصلوات الخمس...) فقد أغنت "الفاء الفصيحة" عن الإطناب بذكر الشرط، إذ أعيدت عليه الإشارة بالتعظيم إجمالا لتأكيد الربط وشدة الإيصال بين الهيئتين.

ومن بلاغة العبارة: إسناد فعل المحو إلى لفظ الجلالة، وجعل الصلوات آلة المحو وسببه، وهذا يزيد التفات الذهن إلى أن الممثل له هو الجانب الأشرف، والعمل الأسمى الذى يجعل العبد أهلا لرعاية ربه.
فإذا روعى مع ذلك أن "يمحو" مضارع، وأن المفعول الممحو وهو "الخطايا" جمع بصيغة منتهى الجموع، تقرر فى النفس فضل الصلاة، وما تفعله بالمسلم من خير، وما تفيض به عليه من نور، وعلم مقدار غفلته عن نهر من نور، لا يزيل درنا شاخصا فحسب، وإنما يمحو آثاما وخطايا.(١)

لقد اعتمد هذا التصوير على بعض العناصر:

- إثارة نظر السامعين باستخدامه صيغة (أرأيتم) لما يتضمنه من الاعتماد على الرؤية، وذلك لتحويل الصورة الخيالية التى تلى ذلك إلى صورة مرئية، تأكيدا وتقريرا لما يراد من وراء رؤيتها.
- تخصيص النهر بصفتين سيقتا لبيان وظيفته هنا، فليست الصلاة تشبه النهر على إطلاقه، ولكنها تشبهه وهو على هيئته تلك من ملاصقته لباب الإنسان، لا عذر له ولا حائل، كما أن الصلاة عبادة تقرب المسلم من ربه، إذ لا يحتاج إلى وسائط أو وسائل فى قربه من مولاه حين يصلى، ويتطهر فتزكو نفسه وتتطهر روحه، كذا فإن وجود النهر بجوار الإنسان لا يحقق له فائدة بذاته ولكن بصفاته.

---

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ١٥٥ - ١٥٧ (بتصرف).

▫ إيقاع فعل المحو على الخطايا، يبرز الخطايا فى صورة مادية محسوسة وينقلها من المعنويات المجردة إلى الماديات المحسوسة تقريبا لإدراك أثر الصلاة.(١)

٣ - من قول النبى ﷺ لمعاذ رضى الله عنه: "ألا أدلك على أبواب الخير؟

قال معاذ: بلى يا رسول الله.

قال: الصوم جُنّة والصدقة تُطفىء الخطيئةَ كما يطفىء الماء النار.(٢)

فقوله ﷺ: "**الصوم جنة**" تشبيه بليغ، لأنه مضمر الأداة محذوف الوجه، للمبالغة فى تصوير المعنى، وهو الوقاية من المكروه.

أما قوله ﷺ: "**الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار**"، فهو تشبيه على سبيل التمثيل حيث شبهت الحالة المتوهمة للصدقة الموجبة لإذهاب الخطيئة، بحالة الماء المطفىء للنار.

ولا ننسى مناط التخييل فى العبارة النبوية، إنه تعبير بالصورة المحسة للتخيلة عن المعنى الذهنى، فيجعل الصدقة فى صورة الماء المنقذ، والخطيئة فى صورة النار المحرقة، لتعلق النفس بالمنجى، وتهرب من المردى، وفى ذلك زيادة تقرير وفضل تأكيد لبيان فضل الصدقة.

ثم التعبير بالفعل المضارع (تطفىء) لاستحضار الصورة الممثلة حتى يتخيلها وكأنها تحدث أما عينيه.

٤ - عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: "نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر فى جنبه،

فقلنا يا رسول الله: لو اتّخذْنا لك وِطاءً؟

فقال: مالى وللدنيا، ما أنا فى الدنيا إلّا كَراكبٍ استظلَّ تحتَ شجرة ثم راحَ وتركها"(٣)

---

(١) تأملات فى البيان النبوى (إبراهيم عوضين) ص ٣٦

(٢) سنن الترمذى - كتاب الإيمان - ٣٢٨/٢، ٣٢٩ و ابن ماجة - الفتن - ٣٥٩

(٣) الترمذى - الزهد - ٢٨٠/٢.

يريد النبي ﷺ من هذا الحوار أن يقرر معنى فى نفوس صحابته، وهو الزهد فى الدنيا وعدم الركون إليها او اتخاذها وطنا، فالدنيا راحلة والآخرة هى الباقية. ولكى يقرب إليهم هذا المعنى قدمه فى صورة تشبيهية رائعة، إذ صور حاله فى الدنيا بحال المسافر الذى نزل فى أثناء سفره، وجلس تحت شجرة يطلب ظلها من حر الشمس، حتى إذا زال الظل راح وتركها، ويدخل مع ذلك التشبيه تشبيه آخر، فقد شبه مدة حياة الإنسان فى الدنيا بقدر ما يزول ظل الشجرة التى يستظل به المسافر، إنها مدة قصيرة.

وإذا كانت الهيئة الممثل بها من المقرر المألوف فى بيئة المخاطبين، يشاهدونه كل يوم ويعالجونه بأنفسهم، فقد ضربه الرسول الحكيم مثلا للمعنى الذى يريد أن يقرره، ويثبته فى نفوس صحابته ﷺ، وفى ذلك أتم إرشاد إلى ترك الدنيا وعدم الاهتمام بها والاشتغال بتحصيلها، وحث على الاعتناء بأمر الآخرة والعمل لها. وكم للنبى ﷺ من قول فى هذا المعنى، يقول لابن عمر ﷺ **"كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"**(١)

ويقول لرجل قال له : يا رسول الله، والله إنى لأحبك: **"إن كنت تحبنى فأعدّ للفقر تجْفَافَا، فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه"**(٢)

وقال لقوم مر بهم وهم يعالجون خصا: **"ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك"**(٣)

يعنى إن الأجل أقرب من مدة معالجة الخص - وإن كانت مدة يسيرة.

٥ - جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ وهو بين صحابته، فأعطاه وسأله: هل أحسنتُ إليك؟

فقال الأعرابى: لا، ولا أجملتَ.فقاموا إليه،

---

(١) فتح البارى - الرقاق - ٢٣٣/١١ الترمذى (الزهد) ٢٧٢/٢.

(٢) الترمذى - الزهد - ٣٦ (المعجم المفهرس) ودليل الفالحين ٤٢٦/٢، ٤٢٧

(٣) سنن الترمذى - الزهد - ٢٧٢/٢، وابن ماجه ٤٠٣/٢.

فقال لهم: كُفُّوا عنه فدخل منزله، فأرسل إلى الأعرابى، وزاده شيئا، وسأله: هل أحسنت إليك؟
فأجابه الأعرابى: جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا.
ثم قال له الرسول ﷺ: إذا كانت الغداة وحضرت مع أصحابى، فقل ما قلت فقد أصبح فى نفوسهم شىء، فقالها بحضورهم فذهب ما كانوا يجدون عليه ثم قال الرسول ﷺ مثلى ومثل هذا الأعرابى، كرجل له ناقة ضلت، فأخذ الناس يهيجونها.
فقال: خلوا بينى وبين ناقتى، فأخذ لها من قمام الأرض هونا هونا حتى استناخت، وشد عليها راحلتها"(١).

إن الذى يعنينا فى هذا الحوار قول النبى ﷺ: **"مثلى ومثل هذا الأعرابى كرجل له ناقة .. الخ.**
فهذا تشبيه قائم على التمثيل، وللتمثيل أو ضرب المثل قدرة عجيبة على الاستحواذ على المشاعر وإيقاظ النفوس، فإذا صاحب الحوار ذلك التمثيل ضاعف من التشويق وتجديد نشاط المخاطبين، فيأتى تأثيره بنتائج طيبة.
فالرسول ﷺ يصور حاله مع الأعرابى بحال رجل له ناقة - هى ثروته وحياته - ضلت، فجرى وراءها ينشدها، وقد تجمع الرعاة يريدون أن يدركوها، ولكن بسلوك يزيدها بعدا وشرودا، فقال صاحبها: خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أعرف بها، وأقدر على معالجتها واستدراجها، فأخذ بعض الحشائش واقترب من الناقة يستدرجها رويدا رويدا حتى استناخت، وأخذ بخطامها وشد عليها رحلها.

ما أجمل التصوير، وما أروع التمثيل، وما أذكى رسول الله ﷺ فى استخدام الأدوات المعينة على إبراز المعنى وتقريبه إلى أذهان المخاطبين، إذ عمد إلى انتزاع عناصر الصورة من الطبيعة، من بيئة المخاطبين، ومن الأحداث المحيطة بهم، وكأنى بالنبى ﷺ يعلمنا درسا فى أدب السلوك

---

(١) الأمثال للأصبهانى ص ١٦٢.

الاجتماعى ويحقق الحكمة القائلة: "إن أكثر الناس يخطئون فى معالجة أحداث حياتهم، فلنكن كذلك الواحد النادر الحكيم، يبدأ هونا ولكنه ينتهى ظافرا مسيطرا، ولا يبدأ شديدا وينتهى هينا منهارا"(١)

وما أبلغ قول النبى ﷺ للأعرابى: **"لقد أصبح فى نفوسهم شىء"** أى الصحابة فهو كناية عن الشعور بالمرارة فى نفس الصحابة ﷺ غضبا أو ألما أو حقدا على الأعرابى، ولكن أدب النبوة ورفق المعلم الحانى لم يصرح بماهية الشىء أو نوعه، حتى لم يقل (شىء عليك أو ضدك) استبعادا لكل كلمة تمسه بسوء، فقد تخلق فى نفسه شيئا من الألم أو النفور، لأن للكلمة ظلالها أو لفحها المؤثر فى النفس، وما أصعب شفاء القلوب المكلومة!

إن هذه الجملة صورة للتعبير الأدبى فى أدب النبوة، فهو يجمع أدب القول، وأدب النفس وأدب الدعوة، وأدب السلوك.

٦ - عن أبى هريرة ﷺ قال:

قيل للنبى ﷺ: ما يعدل الجهاد فى سبيل الله؟

قال: "لا تستطيعونه" فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه.

ثم قال: "مَثَلُ المجاهد فى سبيل الله، كمثلِ الصّائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله"(٢)

يريد الرسول ﷺ أن يبين للصحابة فضل المجاهد فى سبيل الله، فعرض المعنى فى صورة مثل قياسى من التشبيه التمثيلى، ليستحوذ على مشاعر المخاطبين، فهو يقيس الأمر الذى يريد أن يقرره على أمر معروف لديهم، وذلك من باب تأنيس النفس وتجديد نشاطها، فيقول: مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم ... الخ من يطيق هذا؟

---

(١) نقلا عن أدب الحديث النبوى ص ١٦٢.

(٢) مسلم - الإمارة - ٢٤/١٣، ٢٥، والترمذى - فضائل الجهاد - ١٢٣/٢.

إن غرض النبى ﷺ من التمثيل بيان مشقة الجهاد، وبيان فضل المجـاهد فى سبيل الله، وما أعده الله له من أجر عظيم إن توفاه أدخله الجنة، وإن رجـع رجع بأجر أو غنيمة.

هكذا أبرز الرسول ثواب المجاهد فى هذا التصوير المجسم للحقائق، من خـلال ذلك التشبيه التمثيلى، وساق المعنى فى إطار وصفى ينقل الفكر من صـورة إلى صورة، إحداهما واقعية، والأخرى متخيلة، تستمد خطوطها مـن الواقـع، وكلتاهما تقربان المعنى إلى أذهان المخاطبين وتمزجه بحنايا القلوب، وتسـتهوى به وجدانهم، فتحفز النفوس المؤمنة إلى الجهاد فى سبيل الله لما ظهر لها فيه مـن الكرامة.

ومن بلاغة العبارة التمثيلية: التصريح بلفظ التمثيل فى بدايـة البيـان، وذلك من شأنه أن يهيىء النفوس الواعية للاهتمام، ومراعاة النظر السديد إلى المعنى المقصود.

والحوار الذى صعده النبى ﷺ بناء على سؤال من سأل نبه الأذهـان وأثـار الاهتمام وهيأ النفوس إلى سماع الحق والاقتناع به.

٧ – عن أبى سعيد الخدرى قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قَسْمًا، أتاه ذو الخويصرة – وهو رجل من بنى تميم –

فقال: يا رسول الله، اعدل.

قال رسول الله ﷺ: "ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل؟ ..

فقال عمر ؓ : يا رسول الله ، ائذن لى فيه ..

قال رسول الله ﷺ: "دعه فإن له أصحابا يُحَقِّرُ أحدُكم صلاتَه مـع صلاتهم، وصيامَهُ مع صيامِهم، يقرءون القرآن ولا يجـاوز حناجرهم أو حلوقهم، يمرقون من الدين كما يمرق السـهم من الرَّمِيَّة، فينظر الرامى إلى سهمه، إلى نصله، إلى رَصَافِـه، فيتمارى فى فُوقِه، هل عَلِقَ بها من الدم شيء؟"(١)

(١) فتح البارى – الاعتصام – ٢٦٣/١٣ (ط الريان) – انظر سيرة ابـن هشـام ٤٩٦/٤، ٤٩٧.

فى هذا الحوار يلفتنا النبى ﷺ إلى نموذج من الناس دخلوا فى الدين ثم ارتدوا وخرجوا منه و لم يتأثروا به فى شىء .. مع أن ظاهرهم يدل على تدين وتقوى، يحرصون على أداء الشعائر والعبادات ولكنه أداء مجرد من روح الدين .. لقد ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

إن الذى يعنينا من هذا الحوار قول النبى ﷺ : "**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر الرامى إلى سهمه إلى نصله .. هل علق بها من الدم شيء؟**" إذ صور النبى ﷺ خروجهم من الدين بسرعة، بعد أن دخلوا فيه، و لم يتأثروا بشىء من تعاليمه أو مبادئه بصورة السهم الذى مرق من الرمية بسرعة هائلة، لدرجة أنه لم يعلق به شىء من دمها.
وإذا كانت الهيئة الممثل بها من المقرر المألوف الذى يشاهده كل واحد، تقررت لديه صورة الممثل له، وهيئته كذلك، لأنها موضوعة له، ومقيسة به للاعتبار والموعظة.

ولنا أن نتصور مشهد الرامى، وهو يتفقد السهم - متعجبا - بعد أن مرق من الرمية، ينظر إلى كل موضع منه - وكله دهشة - ينظر إلى نصله، إلى عوده، إلى ريشه، إلى مقدمته، إلى مؤخرته، هل علق به من الدم شىء؟

هكذا شأن هؤلاء القوم، دخلوا فى الدين وخرجوا منه، و لم يتأثروا بشىء من تعاليمه ولا قيمه ومبادئه. كيف ذلك؟ إنه أمر عجيب، ولكنه واقع لا شك فيه.

وقد آثر النبى ﷺ التعبير بالمضارع فى الحديث لما يدل عليه من تجدد حدوث الفعل، واستحضار الصورة الغائبة، وكأنها ماثلة أمام عين المخاطب، وذلك يضاعف من أثر المعنى فى نفس المخاطب.

ثانيا: المجاز المرسل

المجاز المرسل هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى. وهو اسلوب تصويرى يزيد المعانى تقريـرا وتأكيدا فضلا على الإيجاز وإعطاء المضمون فى ثوب خيـــالى شـــأن جميـــع المجازات، وقد جاء الحديث النبوى ناصع البيان بالفطرة المصطفـــاة والطبـــع الموهوب.

١ - عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ

قال "إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه"

قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟

قال: نعم. يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه"(١)

قوله ﷺ [أن يشتم الرجل والديه] فيه تعجيب للصحابة وإنكار لذلـــك، والرجل لم يشتم والديه صراحة، وإنما تسبب فى شتمهما، لأنه ســـب مـــن شتمهما قصاصا، فكان شتمه غيرهما سببا فى شتمهما.
والمذكور فى العبارة هو المسبب وقد عبر به عن السبب فهو من المجاز المرسل.

وفضل التعبير بالمجاز هنا استثارة وجدان المخاطبين وجذب انتباههم، فلـو أنه - عليه السلام - قال: إن من الكبائر أن يتسبب الرجل فى شـــتم أبويـــه بشتمه آباء الآخرين، لما كان مثيرا للإنكار أو التعجب، ولا لافتـــا لانتبـــاه المخاطبين، ومضى خبرا عاديا، إلا أن العبارة بهذا التركيب العجيب عبـــارة تصويرية، يصحبها التخييل الذى هو مناط الاهتزازات النفســـية، والتأثـــير الوجدانى فأشبهت النغمة العالية المفاجئة التى اســـتثارت انتبـــاه الصحابـــة، وأيقظت عقولهم، كل ذلك مما يقرر المعنى لدى المخاطبين، يضاف إلى ذلـــك تصدير الجملة بـــ"إن" المؤكدة، والتعبير بالمصدر المؤول (أن يشتم) لدلالـــة المضارع على التجدد والحدوث واستحضار الصورة الغائبة عـــن الأذهـــان، وكأنها ماثلة وقت النطق بها.

(١) مختصر مسلم ٢٢٩ - فتح البارى - كتاب الحدود - ٤٠٣/١٠.

٢ – عن أبي هريرة ﷺ قال: "لما كان يوم غزوة تبوك، أصـــاب النـــاس مجاعة،

فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهَنَّا،

فقال: افعلوا. فجاء عمر ﷺ

فقال: يا رسول الله، إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعـــهم بفضـــل أزوادهم ثم ادع الله لهم عليها بالبركة .. الخ[1].

فى قول عمر ﷺ لرسول الله ﷺ **"إن فعلت قل الظهر"** مجازان:

الأول فى اسناد الفعل إلى رسول الله ﷺ وهو ليس الفاعل الحقيقى وإنما هـــو الآمر فهو مجاز مرسل علاقته السببية.

والثانى فى قوله: **قل الظهر**، ففى كلمة "الظهر" مجاز مرسل، علاقته الجزئيـــة، حيث أطلق الظهر – وهو اسم الجزء – وأريد به الكل جسما وظـهرا، تعيينا لنوع الفائدة المرادة من الجنْس، لما لهذا الجزء من مزيد اختصـــاص فى استعمال الدابة، حيث إنها تحمل المحاربين على ظهرها فى المعـــارك والغزوات.

وقد كان عمر ﷺ عل حق فى هذا الرأى، لذلك أخـــذ رســـول الله ﷺ برأيه لما رأى فيه من الصواب.

٣ – عن أبي هريرة رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: "الولد للفراش وللعَاهِر الحجَر"[2]

هذه العبارة من حديث طويل تخلله حوار ختمه الرسول ﷺ بها، وهـــى تعد من المجاز المرسل من إطلاق المحل وإرادة الحال، لأن الفراش محل الـــوطء المشروع الذى ينسب إليه الولد.

---

(١) صحيح مسلم – الإيمان – ١/٢٢٥.

(٢) فتح البارى – الحدود – ١٢/١٢٧ (ط بيروت) ومختصر مسلم ٢٢٩

أما الحجر فهو آلة حد العاهر بالرجم، فهو مجاز من إطلاق اسم الآلة وإرادة ما هى له، إذن فقوله "الولد للفراش" مجاز علاقته الحالية، وقوله "للعاهر الحجر" مجاز علاقته الآلية.

قال **الشريف الرضى**: "هذا مجاز على أحد التأويلين: وهو أن يكون المراد أن العاهر لا شيء له فى الولد فعبر عن ذلك بالحجر، أى له من ذلك ما لا حظ فيه ولا انتفاع به، كما لا ينتفع بالحجر فى أكثر الأحوال، كأنه يريد أن له من دعواه الخيبة والحرمان، كما يقول القائل لغيره إذا أراد هذا المعنى: ليس لك من هذا الأمر إلا الحجر والجلد (الصخر) .. وأما التأويل الآخر .... (وذكره) ثم قال: فالأولى إذا الاعتماد على التأويل الأول، لأنه الأشبه بطريقهم"(١)

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه العبارة قد صارت مثلا يضرب فى كل حال تشبه هذه الحالة، فهى من قبيل الاستعارة التمثيلية، هذا فضلا على ما فيها من إيجاز.

٤ - عن حذيفة رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: "لا ينبغى للمؤمن أن يُذِلّ نفسه.

قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق".(٢)

ويعنينا هنا الإشارة إلى موضع المجاز المرسل، فالظاهر من هذا التفسير أنه ذكر المسبب أو اللازم - وهو ذل المرء نفسه - وأرد السبب أو الملزوم، وهو تعرض المؤمن لما لا يطيق من البلاء.

هذا، وفى الحديث من وسائل التشويق وجذب انتباه السامع ما يثير لديه التساؤل والاستيضاح، فضلا على ما فيه من تقرير بالحجة، وروعة بالتخييل، وجمال بالايحاء، وقوة بالايجاز.

---

(١) المجازات النبوية ١٠٤.

(٢) سنن الترمذى - الفتن - ٢/٢٥٤.

ثالثا: المجاز العقلى

يراه بعض البيانيين نوعا غير مستقل عن الاستعارة، لانطباق تعريفه على مثالها، فقد عرفه البلاغيون بأنه إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له فى الواقع .. والذى يهمنا أنه مسلك أسلوبى من مسالك التصوير الجميلة التى تلطف ويدق لطفها، حتى تعمل فى النفس عمل السحر، لذلك كثر وجوده فى البيان النبوى.

١ - من حديث سفيان بن عبدالله الثقفى ﷺ قال : "... قلت يا رسول الله: ما أخوفُ ما تخافُ على؟
فأخذ بلسانه ثم قال: هذا"(١)

يحذر الرسول ﷺ من خطورة اللسان وما يجره على الإنسان من وبلل إذا هو لم يحسن الكلام: والنبى صلى الله عليه وسلم حريص على أبناء أمته، عزيز عليه عنتهم، لأنه بهم رءوف رحيم، لذلك لما سأله أحد الصحابة: ما أخوف ما تخاف على؟، فأخذ بلسانه، ثم قال: هذا.

ففى قولى الصحابى (ما أخوف ما تخاف على؟) أسند ما فى معنى الفعل، قوله (أخوف) إلى المصدر (ما تخاف) على اعتبار "ما" مصدرية على طريق جد جده، كأنه قال: ما أخوف خوفك على؟ فهو مجاز عقلى، علاقته المصدرية.

وفى الإشارة إلى اللسان المصحوبة بالفعل مزيد تعيين، وبيان لخطورة هذا العضو لأنه زمام الإنسان، فإذا أطلقه لزم منه ما لا يرضى صاحبه شاء أو أبى.(٢)

٢ - من قول النبى ﷺ لمعاذ بن جبل: "... وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلى حصائد ألسنتهم؟"(٣)

---

(١) الترمذى - الزهد - ٢/٢٨٧.

(٢) دليل الفالحين ٤/٣٥٢ (بتصرف).

(٣) الترمذى - الإيمان - ٢/٣٢٨ وابن ماجه - الفتن - ٢/٣٥٩ ومسند أحمد - مسند الأنصار - ٢١٠٠٨.

أسند الكب إلى حصائد الألسنة، وهى ليست الفاعل الحقيقى وإنما هى سبب الكب، فهى من المجاز العقلى، والعلاقة: السببية، لأن حصائد الألسنة تكون سببا فى كب الناس على وجوههم فى النار. وفى ذكر على وجوههم فى النار مع الكب فيها من التصوير والتخييل ما يدل على التهويل والترهيب، ليبصر كل إنسان نفسه، ويحفظ لسانه.

٣ - من حديث الغلام والساحر والراهب: "... **وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص**" .. **الحديث**(١).

فى إسناد البرء إلى الغلام، إسناد الفعل إلى غير ما هو له، فهو مجاز عقلى علاقته السببية، لأن الغلام لا يبرىء المرض حقيقة، ولكن الشافى هو الله، والمبرىء هو الله.

---

(١) صحيح مسلم - الزهد والرقائق - ١٨/١٣٠، ١٣٣.

رابعا: الاستعارة

ذكرنا أن التشبيه يقرر المعانى بصورة قياسية، ويجمع بين الطرفين (المشبه والمشبه به) ولكن إذا انتقل التشبيه عن الجمع بين الطرفين لفظا وتقديرا تناسيا للتشبيه وتأكيدا للاتحاد، كان وسيلة أعلى للتشخيص والتجسيم، وهذا ما يسميه البلاغيون المجاز بالاستعارة.

والاستعارة وسيلة فنية يلجأ إليها الأديب، ليجعل القارىء يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه "فهى تصور المنظر للعين، وتنقل الصوت إلى الأذن، وتجعل الأمر المعنوى ملموسا محسا"(١)

١ - عن عبدالله بن جعفر رضى الله عنهما قال: دخل النبى ﷺ حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبى ﷺ حَنَّ وذَرَفَت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه فسكت.
فقال النبى ﷺ : "من رب هذا الجمل"؟ لمن هذا الجمل؟
فقال فتى من الأنصار: هو لى يا رسول الله.
فقال: "أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها؟
إنه شكا إلى أنك تُجيعه وتُدئبه". (٢)

من رب هذا الجمل؟ سؤال عن صاحب الجمل كالبحث عن المدعى عليه.
أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة ...؟ استفهام انكارى، يحمل معنى اللوم والتأنيب لصاحب الجمل وقد جعله بعيدا عن التقوى.

أما الذى يعنينا فى الحوار قوله ﷺ: إنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه، تصوير الجمل شاكيا الجوع والتعب للنبى ﷺ كما يشكو الإنسان لمن ينصفه، فهو من مجاز الاستعارة بالكناية، ولا يخفى ما فى جمال الاستعارة من التشخيص

(١) من بلاغة القرآن ص ٢١٧.

(٢) سنن أبى داود - كتاب الجهاد - ٢٣/٣.

ليؤكد للرجل ظلمه لجمله وعدم رفقه به، وليتصور الرجل مدى ما أصاب بهيمته من ألم، وليذهب بخياله فى شكواها إلى الرسول كل مذهب.

٢ - عن أبى هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ : "إن الله تعالى خلق الخلق حتى فرغ منهم
فقامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.
قال: نعم، أَمَا تَرْضَيْنَ أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟
قالت: بلى.
قال: فذلك لك ... الحديث"(١)

هدف الرسول الكريم من هذا الحوار تعظيم شأن الرحم، وبيان فضل واصلها، وعظيم إثم قاطعها. والرحم التى توصل وتقطع وبر إنما هى معنى من المعانى، وليست بجسم، إنما هى قرابة ونسب، والمعانى لا يتأتى منها القيام ولا الكلام، إذن فإسناد القيام والكلام إليها من باب المجاز، فقد شبه الرحم بإنسان يقوم ويتكلم ويحاج فى حقه "هذا مقام العائذ بك من القطيعة" فهى استعارة بالكناية تشخص المعنى وتضفى عليه الحياة والحركة.

ومما يزيد من تقرير المعنى وتأكيده، تلك المقابلة المسوقة فى صورة استفهام تقريرى، مصدر بأداة العرض "أما" التى تدل على الاهتمام بالمعروف، وتقرير مضمون ما تدخل عليه.

والوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه ولطفه ورحمته وتوالى نعمه. والقطع، كناية عن الحرمان من كل هذه النعم.

٣ - فى حوار النبى ﷺ مع معاذ بن جبل جاء قوله: "وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلى حصائد ألسنتهم؟"(٢)

---

(١) صحيح مسلم - البر والصلة والآداب - ١١٣/١٦.

(٢) سنن الترمذى - الإيمان - ٣٢٨/٢.

ما أجمل التصوير لما يكون من كلام المرء، بحصائد الألسنة، إنها صـــورة تطلق للخيال العنان، ليتصور الكلام كالزرع، والألســنة كالمنـاجل (آلـة الحصاد) وعملية الكلام كعملية الحصد، فهى من الاستعارات اللطيفة، حيـث شبه ما يكون من الكلام (جيده ورديئه) بما يقتطع من الحشـــيش الأخضـر واليابس بجامع الخلط بينهما من غير تمييز.

يقول **الشريف الرضى**: "وهذه من الاستعارات العجيبة، والمراد بهـا أن أكثر معاثر الأقدام، ومصارع الأنام، إنما تكون بجرائـر ألسـنتهم عليـهم، وعواقب الأقوال السيئة التى تؤثر عنهم، هذا فى الدار الدنيا على المتعارف بين أهلها، والمعالم من مجارى عاداتها، فأما فى الدار الاخرة، فيؤخذون فيها بآثـام الأقوال كما يؤخذون بآثام الأفعال، فيكبون علـى منـاخرهم فى أطـوار العذاب، وبين أطباق النيران، نعوذ بالله منها.

والعبارة عن هذه الحال بحصائد الألسنة من أحسن العبارات، لأنـه ﷺ شبه ما تقذف به الألسنة من الأقوال المذمومة التى تسوء عواقبـها، ويعـود عنيهم وبالها، بالزارع الذى يستربىء عاقبة زرعه، والغارس الذى يستمر ثمـرة غرسه، وهذا كقول القائل لمن أخذ بجريرة وعوقب على جريمة: "احصد مـا زرعت، واستوف أجر ما غرست"(١)

ومن بلاغة العبارة النبوية أنها استفهام تقريرى جاء فى صورة تحمل معنى القصر أى: لا يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسـنتهم، ولا يخفى ما فى القصر من الإيجاز والتوكيد، وذلك أقرب إلى تقرير المعنى عنـد المخاطبين والاهتمام بشأنه.

٤ - عن عبدالله بن مغفل ﷺ قال:

قال رجل للنبى ﷺ: يا رسول الله، والله إنى لَأُحِبُّكَ.
فقال: انظر ماذا تقول؟
قال: والله إنى لأحبك، ثلاث مرات.

---

(١) المجازات النبوية ١١٤.

فقال: إن كنت تحبنى، فأعدّ للفقرِ تجْفَافًا، فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه"(١)

قول النبى ﷺ: "فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه" عبارة تعليلية اشتملت على صورة خيالية تشخص الفقر والسيل وكأنهما شخصان يتسابقان إلى غاية ما، والفقر أسرعهما وصولا إلى هذه الغاية.
وإذا كان السيل فى سيره إلى منتهاه – إلى الجبل أو إلى آخر الوادى – فإن الفقر أسرع منه وصولا إلى من يحب رسول الله ﷺ.
وإنما كان كذلك، لأن الناس على دين ملوكهم، ولما كان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى الدنيا، كان المحب التابع له متصفا بما هو متصف به، لقوة الرغبة وصدق المحبة. "وأشار العاقولى إلى أن فى العبارة استعارة مكنية تتبعها استعارة تخييلية بقوله: شبه الفقر بالسهم الصائب والسيف القاطع والرمح النافذ، وشبه الصبر عليه بالتجفاف الذى يلبسه الإنسان أو الفرس ليقيه ذلك .. فالتشبيه المضمر فى النفس استعارة مكنية، وإثبات التجفاف استعارة تخييلية"(٢)

إن المؤمن حين ينظر إلى هذه الصورة الممثل بها، وينعم فى صدقها، فإنه يقتنع بانسحابها على حاله من قسم الله له ،فيزداد بحب رسول الله سعادة، وبالفقر أنسا وبالقناعة رضا، وبالزهد تمسكا، حتى يرى زيادة إقبال الحظ محنة، وترادف النعم فتنة **﴿فأما الإنسانُ إذا ما ابْتَلَاهُ ربُّه فأكرمه ونَعَّمَهُ فيقول ربى أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَرَ عليه رزقَه فيقول ربى أهانن كلا...﴾** (الفجر ١٥ – ١٧).

٥ – عن أنس ﷺ قال: رجعنا من غزوة "تبوك" مع النبى ﷺ

فقال: "لقد تركتم بالمدينة أقواما، ما سرتم مسيرا، ولا أنفقتم نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه"

---

(١) الترمذى – الزهد – ٥٧٦/٤ (ط الحلبى) ودليل الفالحين ٤٢٦/٢ – ٤٢٨.
(٢) دليل الفالحين ٤٢٨/٢، ٤٢٩.

قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا؟

فقال: حَبَسَهُم العذر"[1]

يريد النبى ﷺ أن يؤكد لصحابته أن ثبوت الأجر مرتبط بصدق النية، فمن أهل المدينة رجال صدقت نيتهم فى الخروج مع رسول الله ﷺ إلى القتال - فى غزوة تبوك - ولكن منعهم المرض عن الخروج إلى القتال، فعبر الرسول الكريم عن هذا المعنى بقوله: "حبسهم العذر" إنها صورة بيانية رائعة تشخص العذر، وتصوره إنسانا له القدرة على السيطرة والمنع، فهى استعارة مكنية، وفى إسناد الحبس إلى العذر مجاز عقلى علاقته السببية إذ كان المرض (العذر) سببا فى عدم قدرتهم على الخروج إلى القتال.

هذا وقد أكد النبى ﷺ ثبوت الأجر لهم كغيرهم من المجاهدين - فكأنهم كانوا معهم فى سيرهم ونفقتهم، وقطعهم الوديان، وذلك لصدق نيتهم فى الخروج - مستخدما لذلك أسلوب القصر "ما سرتم مسيرا .. إلا وهم معكم فيه" ليبادر ببعث المسرة والطمأنينة إلى قلوب أولئك المعذورين، وليعلم الصحابة درسا عظيما وهو أن الثواب على قدر النية، فمن صدقت نيته ثبت له الأجر.

والرسول الكريم ﷺ متأثر فى هذا الحديث بقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم نصب، ولا مخمصة فى سبيل الله، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ (التوبة ١٢٠،١٢١).

٦ - عن جندب بن عبدالله ﷺ أن رسول الله ﷺ بعث بَعْثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين...

فقال ﷺ: لم قتلته؟

فقال: يا رسول الله، أوجع فى المسلمين ..

---

(١) أبو داود - الجهاد - ١١/٣ وفتح البارى - المغازى - ٤٧/٦.

قال رسول الله ﷺ: أقتلته؟

قال: نعم

قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ فجعل لا يزيد على أن يقول: كيف تصنع ..؟[١]

الرسول ﷺ يريد أن يبين أن من حصل له ذمة الإسلام وحرمته يحرم قتله، لأن الإسلام يجب ما قبله، لذلك نجد الرسول يعنف أسامة بن زيد أن قتل رجلا بعد أن قال لا إله إلا الله – وإن تعلل بأنه أوجع فى المسلمين وقتل فيهم – قائلا له: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ استفهام تقريع وتوبيخ ليحذر الناس الوقوع فى مثل هذا الخطأ الشنيع، والعبارة الاستفهامية تشخص كلمة التوحيد فنراها شاخصة حية تتحرك وتتكلم وتجادل عن قائلها يوم القيامة.

ولنا أن نتصور رسول الله ﷺ غاضبا، محمر الوجه، جاهرا بصوته: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة. أى من يشفع لك، ومن يحاج عنك ويجادل إذا جيء بكلمة التوحيد ووقفتما موقف الخصومة يوم القيامة؟

---

(١) مسلم – الإيمان – ١٠١/٢.

خامسا: الكناية

الكناية من أروع المسالك البيانية والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشىء عن المعنى تعبيرا مظلا هادفا موجزا يخفى تحت ظلاله لطائف مراده، وتقوم الكناية بنصيبها كاملا فى أداء المعانى وتصويرها خير أداء، "وهى حينا راسمة مصورة موحية، وحينا مؤدبة مهذبة تتجنب ما ينبو عن الأذن سماعه، وحينا موجزة تنقل المعنى وافيا فى لفظ قليل، ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدى المعنى كما تؤديه الكناية[١].

لذلك قال الخطيب القزوينى فى سر بيان أبلغيتها: "أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح، لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم فهو كدعوى الشيء ببينة".[٢]

١ - روى عن عبدالرحمن بن أبي سعيد الخدرى عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم الاثنين إلى قباء، حتى إذا كنا فى بنى سالم، وقف رسول الله ﷺ على باب عِتْبَان فصرخ به، فخرج يجرُّ إزاره،

فقال رسول الله ﷺ: "أعجلنا الرجل"

فقال عتبان: يا رسول الله أرأيت الرجل يُعْجَلُ عن امرأته ولم يُمْنِ، ماذا عليه؟

قال رسول الله ﷺ: "إنما الماء من الماء".[٣]

فقول الرسول ﷺ: "أعجلنا الرجل" يحمل معنى الإشفاق على الرجل من الإعجال أو الإقحاط، ولعل الرسول ﷺ قد أدرك ذلك، لأن الرجل خرج مسرعا يجر إزاره ليجيب رسول الله ﷺ، ولكن الرسول عليه السلام قال ذلك ليفتح للرجل باب السؤال ولا يجد حرجا فى نفسه، وبالتالى يستغل النبى الموقف، ويقرر تشريعا للمسلمين، ليعلمهم أمور الدين، وهذا ما كان، فسأل

---

(١) من بلاغة القرآن ٢٢٦.

(٢) متن التلخيص - المقدمة.

(٣) مسلم - كتاب الحيض - ٣٦/٤.

الرجل النبى ﷺ: **أرأيت الرجل يعجل ...؟ فأجابه النبى ﷺ بقوله: "إنما الماء من الماء".**

ففى قول النبى ﷺ: **"أعجلنا الرجل"** كناية عن عدم نزول الماء الموجب للغسل، وفى قوله ﷺ **"إنما الماء من الماء"** كنايتان، فقد كنى عليه السلام بالماء الأول عن الاغتسال الواجب، وكنى بالماء الثانى عن المنى الموجب، وشتان ما بين التصريح والتلميح، ولكنه أدب النبوة، فما أسماه عفافة لفظ، وما أكرمه أدب لسان، وما أوجزه لفظا وأغناه معنى.

٢ - عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: "يا عبدالله بن عمرو إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل؟

فقلت: نعم.

قال: "إنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين، ونهكت له النفس، لا صلم من صام الدهر، صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله"... الحديث(١)

ما أجمل رفق رسول الله ﷺ بأصحابه، وما أجمل نصحه ليسلم المؤمن، فقد نهى عبدالله بن عمرو عن صوم الدهر لما فيه من مشقة على النفس، ووجهه إلى ما هو أرفق بالنفس وأحرص على الثواب.

ومن بلاغة العبارة فى الحديث قوله ﷺ: **"هجمت له العين ونهكت له النفس"** فهى كناية عن الضعف والهزال المؤديين إلى الهلاك.

٣ - عن أبى موسى الأشعرى قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر، فلما دَنَوْا من المدينة كبر الناس ورفعوا أصواتهم،

فقال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس! إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، إن الذى تدعونه بينكم وبين أعناق ركابكم".

ثم قال رسول الله ﷺ: "يا أبا موسى: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟".

فقلت: وما هو؟

---

(١) فتح البارى - كتاب الصوم - ٤/٢٦٤.

قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله"(١).

فى هذا الحوار توجيه نبوى سديد، يعلمنا أن ندعو الله تبارك وتعالى فى تضرع وخفية وخفض الصوت، لأن ذلك أدعى إلى الخشوع والقرب من الله تعالى ، وثم توجيه آخر موجه رسول الله لأبى موسى، أن يحرص على كنز من كنوز الجنة، وهو أن يردد دائما "لا حول ولا قوة إلا بالله"

وفى الحوار كناية لطيفة فى قوله ﷺ : إن الذى تدعونه بينكم وبين أعناق ركابكم " فهى كناية عن القرب، قرب الله تعالى من عباده الداعين، وصورة أخرى قائمة على التشبيه وهى تشبيه الحوقلة بكنز من كنوز الجنة، وذلك من أعلى درجات التشبيه بلاغة لأنه مضمر الأداة محذوف الوجه، وذلك يجعل الحوقلة كنزا يمتلكه الإنسان، وجمال التشبيه فى قيمته أى فيما يصوره من عظمة الثواب، حتى يرى المرء أن ما يبذله من السبب هين يملكه، وما يوهب له من الثواب عظيم يرجوه.

٤ - عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر رضى الله عنه: "ألا أعلمك كلمات تُدْرِكُ بهن من سبقك، ولا يلحقك من خلفك إلا من أخذ بمثل عملك؟.

قال: بلى يا رسول الله.

قال: تكبر الله ﷻ دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وتحمده ثلاثا وثلاثين، وتسبحه ثلاثا وثلاثين، وتختمها بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فمن قال ذلك، غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زَبَدِ البحر"(٢)

يريد النبى ﷺ أن يبين فضل التكبير والحمد والتسبيح والتهليل، فهى مكفرات للذنوب مهما كانت كثيرة، ولو كانت مثل زبد البحر.

---

(١) سنن أبى داود - كتاب الصلاة - ٨٨/٢.

(٢) سنن أبو داود - كتاب الصلاة - ٨٣،٨٢/٢.

والرسول - كعادته - يمهد دائما لدرسه بما يبعث النشاط ويشوق المخاطب فيقول لأبى ذر: ألا أعلمك كلمات ...؟
وبالطبع لا يكون الجواب إلا بالإيجاب - فقال أبو ذر: بلى يا رسول الله.
فقال النبى ﷺ: "تكبر الله دبر كل صلاة .... فمن قال ذلك غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر".

فقول النبى ﷺ **ولو كانت مثل زبد البحر** كناية عن كثرة الذنوب التى وعده الرسول ﷺ أن تغفر لو عمل ذلك العمل السهل القريب من تسبيح وتهليل وتكبير، وقيمة الكناية هنا فى سوق المعنى مصحوبا بالدليل، ناهيك عن التجسم والإيجاز وهما من أعلى مراتب البلاغة.

وفى قوله أيضا "مثل زبد البحر" تشبيه، **فالمشبه** الذنوب الكثيرة، **والمشبه** به زبد البحر، وقيمة التشبيه وجماله هنا فيما يصوره من عظمة الثواب حتى يرى المرء أن ما يبذله من السبب هين يمتلكه، وما يوهب له من الثواب عظيم يرجوه.

٥ - عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ

قال: "مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امرىءٍ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة"

فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟

فقال: "وإن كان قضيبا من أَرَاك"(١)

العبارة التى قدم بها الرسول ﷺ حديثه عبارة ملفتة، تثير الانتباه لما اشتملت عليه من ترهيب وتحذير دلت عليه المقابلة (فقد أوجب الله له النار،

---

(١) صحيح مسلم - الإيمان - ١٥٧/٢ والنسائى - آداب القضاة - رقم ٥٣٢٤، وفى رواية مالك كرر قوله: "وإن كان قضيبا من أراك" ثلاث مرات - كتاب الأقضية ١٢١٥.

والأراك: شجر معروف يستاك بأعواده [انظر دليل الفالحين ٥٣٥/١].

وحرم عليه الجنة) وهنا سارع رجل وقال: وإن كان يسيرا يا رسول الله؟ استفهام يدل على الحيطة والاحتراس والتهيب.

فقال عليه السلام مقررا الحكم: **"وإن كان قضيبا من أراك"** فهذه كناية لطيفة، فقد كنى النبي ﷺ عن قلة قيمة الحق المقتطع بالقضيب من الأراك، فهو حرام مادام حقا لأخ مسلم، وقيمة الكناية هنا في إعطاء المعنى مصحوبا بالدليل، فضلا على تصويره في صورة محسة، إذ شبه الحق بالقضيب من الأراك، والمشبه به مأخوذ من البيئة مما يجعل المعنى أقرب إلى أذهان المخاطبين، فيكون أشد تأثيرا وإقناعا.

وإنما نهى النبي ﷺ عن اليسير من باب التنزيه والتعفف؛ لأن الاستهانة بالحق اليسير ربما جرت إلى الاستهانة بما هو أكبر، وفي ذلك ضياع للحقوق واعتداء على الحرمات.

إنها أحكام في قوة القانون التشريعي لبيان الحقوق والمعاملات، ولكنه قانون لا يخاطب العقل وحده، وإنما يخاطب العقل والعاطفة معا بالمحبة والعطف، يعرف منه العقل الحكم، وتعرف منه العاطفة الطاعة والرضا، لأنه جاء بعبارة آدب وأبلغ، وهنا مناط التأثير.

٦ - عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ وهو يقسم قَسْمًا، أتاه ذو الخويصرة - وهو رجل من تميم -

فقال: يا رسول الله، اعدل.

قال رسول الله ﷺ "ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ ..

فقال عمر، يا رسول الله ، ائذن لي فيه ..

فقال رسول الله ﷺ : "دعه، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن ولا يجاوز حناجرهم أو حلوقهم، .. الحديث"(١)

---

(١) فتح الباري - الاعتصام - ٢٦٣/١٣ (ط الريان) - انظر سيرة ابن هشام ٤٩٦/٤، ٤٩٧.

فى هذا الحوار يلفتنا النبى ﷺ إلى نموذج من الناس دخلـــوا فى الديـــن ثم ارتدوا وخرجوا منه و لم يتأثروا به فى شىء، مع أن ظاهرهم يدل على تديـــن وتقوى من حرص على أداء الشعائر والتمسك بالعبادات بشـــكل ملفـــت، ولكنها عبادة خالية من روح الدين.

والذى يعنينا فى الحوار قول النبى ﷺ: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهـــم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن ولا يجاوز حناجرهم أو حلوقهم.." فقـد عبر النبى ﷺ عن حالهم بصور بيانية غاية فى الدقة والجمال، نحس ذلــــك فى قوله ﷺ: (**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامــــهم**) فـــهى كناية عن حسن صلاة هؤلاء القوم وصيامهم، فإذا وضعنـــا فى الاعتبـــار أن الكلام موجه إلى الصحابة ﷺ وهم من هم فى الاقتـــداء بـــالنبى ﷺ صـــلاة وصياما وسلوكا، ظهر لنا مدى حسن صلاة هؤلاء القـــوم وصيامـــهم، وإن الخيال ليذهب بعيدا فى تحديد معالم حسنهما بشكل لا تســـتطيع الكلمـــات تصويره، وإنما جاء تعبير النبى ﷺ - على إيجـــازه - مصـــورا المعـــنى أدق التصوير، مقدما المعنى مصحوبا بالدليل.

وقوله ﷺ: "**يقرءون القرآن ولا يجاوز حناجرهم**" كناية عن عدم التدبـــر والتعقل لما يقرءون، فهم يقرءون ويرددون، ولا يفهمون ما يقرءون، كـــأنهم الببغاء تردد ما تسمع ولا تعى معناه، وهذا يدل على انصراف قلوبهم التى ران عليها الإثم، فلا يعون ما يقرءون ولا يستطيعون منه نفعا، ولا هم به يعملون.

الأسلوب التصويرى فى الحديث

لم أجعل عنوان هذا المبحث "الأسلوبى التصويرى فى الحوار النبوى"؛ لأن الأحاديث التى تضمنت حوارا تعد جزءا من الحديث النبــوى. والأســلوب التصويرى سمة فنية شائعة فى الحديث النبوى بصفة عامة، فما أذكره فى هــذا المبحث يعم الحديث النبوى كله، إلا أننى اقتصرت - فى الاستشهاد - علــى النصوص التى تضمنت حوارا وهو موضوع بحثنا.

لم تعد الصورة فى النقد الحديث تعنى مجرد التشبيه أو الاستعارة أو المجــاز بصفة عامة، بل هى فى مفهومها البسيط كما يعرفها "راى لويــس" لوحــة مصنوعة من الألفاظ، وقد تخلق الاستعارة صورة، ولكن من الممكن أيضـا أن تصنع الصورة الرائعة عبارة وصفية بحتة تحمل إلى تصورنا شيئا أكثر من مجـرد الانعكاس الحرفى للحقيقة الخارجية"(١)

ومعنى هذا أنه إذا لم يكن لدينا الصــورة فى كــل وقــت أمكننــا أن نستحضرها باستعمال الألفاظ والصيغ استعمالا بارعا يؤدى دور الصــورة إن لم يرب عليه.

يقول "جوستاف ليبون": "الحق أن الألفاظ والصيغ إذا استخدمت بحذق اتفق لها من السلطان الخفى ما عزاه إليها المؤمنون بالسحر فيما مضى"(٢)

وقدرة الألفاظ على التصوير تكمن فى أن لكل لفظ - إلى جانب دلالتــه اللغوية - دلالة أخرى شعورية، تتمثل فيما يوحى به اللفــظ مــن الصــور والظلال، وما يبثه من موسيقى خاصة وإيقاع متميز، وبالنجاح فى اســتغلال طاقة اللفظ اللغوية والإيحائية، نستطيع أن نصور المعانى، ونجســم الأفكــار، ونشخص الأشياء، ونرسم بالألفاظ لوحات ذات أبعاد واضحــة، تبصرهــا العين ويتملاها الوجدان، فينفعل بها، ويتأثر بوحيها، ويستجيب لهتافها.

---

(١) The Poetic Image p ٢٥.

(٢) روح الجماعات ص ٩٦

إذن فسلطان الألفاظ والصيغ مرتبط بما تثيره من صور، وما تبثه من إيحاء، وهو شيء مستقل عن معناها اللغوى زائد عليها، وإن كان كل منهما يعضد الآخر ويؤازره.

وقد انتهى معظم الباحثين المحدثين إلى القول بأن الصورة تعنى كل عناصر الشكل بحيث توضع إزاء المضمون، وهى متحدة معه تماما بحيث لا يمكن الفصل بينهما. ودراسة أى نص ينبغى أن تكون فى إطار العلاقات التى تقيمها لغة النص، من حيث التراكيب والصور والرموز، وليست اللغة مجرد مفردات حديثة قائمة بذاتها، ولكنها أهم من ذلك بكثير، إنها علاقات متداخلة متشابكة، والنص نسيج متكامل يتداخل فيه إيقاع الذات وإيقاع البيئة والمجتمع والثقافة.

وقد كان من الحكمة والبصيرة النافذة وحسن الإدراك والتدفق العاطفى أن يتخير النبى ﷺ - فى دعوته إلى ما جاء به - الأساليب القادرة على احتواء المشاعر واستمالة القلوب، ومن هذه الأساليب **"الأسلوب التصويرى"**، بالوصف تارة، وبالقصة تارة، وبالتجسيم والتشخيص تارة أخرى، مما يقدم تصورا جديدا، ويفتح آفاقا جديدة للتخييل والإدراك، سيما وأن العلاقة واضحة بين صوره والبيئة والمجتمع والتقاليد والعادات المألوفة.

أولا: التصوير بالوصف:

إن التصوير الفنى فى الحديث النبوى تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة، تقوم مقام اللون فى التمثيل.
وهو ليس مجرد تصوير فوتغرافى آلى، ولكنه تصوير إدراكى، فيه إلى جانب موضوعيته قدر كبير من ذاتية صاحبه.

ويعلو الوصف فى التصوير، عندما يكون الموصوف أمرا غيبيا، لا سبيل إلى نقله إلا عن هذا الطريق الذى يتخيله السامع، وكأنه واقع ملموس، وكثيرا ما يشترك الحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، مع الوصف فى إبراز الصورة، ومنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو

مشهد، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى، وبذلك يتوفر للصورة كل عناصر التخييل.

١ - عن أبى وائل قال: سمعت أسامة رضى الله عنه يقول:

قال النبى ﷺ: "يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى فى النار فتندلق أقتابه فى النار، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أى فلان: ما شأنك؟! أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه"(١)

نحن هنا أمام مشهد أخروى من مشاهد العذاب، ولكنه مشهد حيوى حافل بالحركة وكأنه ماثل أمامنا واقعا ملموسا تتملاه العين مع الحس والخيال، مشهد يصوره الرسول ﷺ فى كلمات قليلة ولكنها معبرة أدق ما يكون التعبير عن هذا الموقف الرهيب الذى وقع فيه هذا الرجل المنكود.

إنها صورة تمثيلية بشعة، تبدأ بقمدمة مثيرة يكمن فيها عنصر التشويق الذى يربط السامع ببقية الأحداث متابعا لها حتى النهاية، هذه المقدمة (**يجاء بالرجل .. فيلقى ..**" ومتى يوم القيامة! وأين؟ فى النار .. ثم يصعد الحدث فى الإثارة والهول باندلاق أقتاب بطنه، ثم يزداد ارتفاعا فى التشنيع والقبح فيدور بأقتابه فى النار كما يدور الحمار الرحى، فإذا تناهت الصورة إلى الحد الملفت حتى لأهل النار مع ما هم فيه من هم شاغل، نظروا إلى صاحبها فإذا هو إنسان عرفوه فى الدنيا من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فيزداد عجبهم لما ناله من المنظر القبيح والعذاب الشديد، فيسألونه عن سر ذلك، فيكشف لهم إذ ذاك ما ستر عنهم فى الدنيا من مخالفة أقواله أفعاله، فقد كان يأمر بالمعروف ولا يعمل به، وينهى عن المنكر ويرتكب المنكر.(٢)

---

(١) فتح البارى بدء الخلق ٣٨١/٦، ومختصر مسلم - الإمارة - رقم ١٢٣٨.

(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ١٦٨، ٢٥٦، ٣٥٨ (بتصرف)، وراجع القصص فى الحديث النبوى لمحمد بن حسن الزير، ص

ولكن أمورا أخرى من البيان تلتمس واضحة فى هذا الحديث

- بناء الفعلين (**يجاء، يلقى**) للمجهول، وذلك دليل الإكراه والحمل على الفعل.
- كون الأفعال مضارعة لم تقترن بالتسويف مع أنها أمور أخروية مستبلة وذلك لاستحضارها فى الحال، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى يحس ويدرك كما يحس ويدرك دوران الحمار بالرحى، والتشبيه بأمر يتصل بالحمار لا يكون إلا تقبيحا، وذلك سر اختياره دون ما يجر الرحى من سائر الحيوان.
- إثراء الصورة بالحوار الذى يضفى عليها لونا من الواقعية الحية فى نظر السامع والقارىء، وتطوير الحدث وتعميقه، وبذلك تكتمل للصورة كل عناصر التخييل.

وبعد أليست كلمات الحديث مترابطة يأخذ بعضها بحجز بعض؟ متعاونة فى رسم الصورة المقصودة؟

ألست ترى التماسك واضحا بين عناصرها؟ هذا الترابط المتماسك المنسجم لفظا ومعنى ومشهدا وحوارا هو ما تتدفق فيه الموسيقى الخفية فتبعث تأثيرها فى النفس أشد ما يكون التأثير.

"فالحظ بدقيق النظر ما اشتملت عليه الألفاظ من المعانى تجدها لا تدخل تحت الإحصار، إلى سلاسة هذا النظم، وعذوبة هذا اللفظ وعلوه مع كونه مستعملا معروفا، وفاصحته على كونه متداولا مألوفا، ووضوح معانيه، وحسن البيان فيه، بحيث لا يفتقر أحد إلى السؤال عن لفظ فيه، قد استوى فى فهمه الذكى والبليد، والقريب من العلم والبعيد، وما فيه من الماء والديباجة التى لا توفى العبارة بها، ولا يقدر البليغ على أن يصفها، وهذا أمر يدركه كل ذى ذوق سليم وذهن مستقيم، والله أعلم"[١]

---

(١) تحرير التحبير ص ٣٧١.

٢ - عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ
قال: "أتدرون ما المفلس؟".
قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.
قال: "إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حسناتُه قبل أن يقضىَ ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرِحَ فى النار"(١).

يقدم الرسول ﷺ فى هذا الحديث معنى جديدا للمفلس يريد أن يعلمه للصحابة رضوان الله عليهم فنراه - كعادته فى مثل هذه المواقف التعليمية - يثير حوارا فيبدأ بسؤال - كما فى هذا الحديث - أتدرون من المفلس؟ ويجيب الصحابة الإجابة المتوقعة، ولكنه ﷺ يفاجئهم بقوله: "إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام ...."

هذه المفاجأة لها أثرها فى قسر انتباه المخاطبين، وبخاصة إلى ما قيل من معنى جديد للمفلس لا يعرفونه، وهذا يجعلهم أكثر تمسكا بمضمون ما تعلموا من نبيهم الكريم، وهو مطلع تمهيدى موفق، يربط السامعين بمضمون الحوار منذ اللحظة الأولى، وهى وسيلة تعليمية تربوية حكيمة.

والجميل فى عرض الفكرة أن قدمها النبى ﷺ فى ثوب بيانى رائع، أدوات نسجه الوصف بالألفاظ والعبارات، فصنع لنا صورة شاخصة محسة، تصور المفلس إنسانا ظالما يعتدى على حرمات الناس (أكل مال هذا وسفك دم هذا...) رغم أنه قام بجانب من الدين من صلاة وصيام وزكاة، ولكنه قليل بالنسبة للمظالم التى ارتكبها فى حقوق الناس، والتى عبر الرسول عنها بقوله: "أكل مال هذا وشتم هذا ..." تصعيدا لخطورة المظالم التى أتاها، وما ترتب عليها من تحمل الخطايا والسيئات، فإذا كان يوم القيامة - ولك أن تتصور

(١) مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - ١٣٥/١٦

ذلك الظالم وهو يناقش الحساب وقد أتى الغارمون ليقتص لهم منه، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته حتى تفنى حسناته، ولم يبق إلا سيئاته، ولم يوف بعض الغارمين حقوقهم، عندئذ يؤخذ من خطاياهم وتطرح على خطاياه، ثم يطرح فى النار، ولك أن تتصور ما يوحيه لفظ الطرح من الشدة والقوة والعنف فى المعاملة، وأن تتصور الحسنات والخطايا أشياء مجسمة ترى بالعين وتحس باليد، يؤخذ من إحداها ويطرح على الأخرى، ثم جمال المقابلة الذى يؤكد المعنى ويقرره، وتقييد القصاص بيوم القيامة تهويل وتفظيع، حيث لا يملك المرء فى ذلك اليوم شيئا، ولا يستطيع أن يكسب شيئا، والتعبير بالمضارع (يأتى - فيعطى) لاستحضار الصورة وتجدد حدوثها لتكون أشد تأثيرا.

هذا المشهد الذى ترسمه الألفاظ والعبارات رسما دقيقا، يتصوره الانسان بكل دقائقه مشهدا حيا مليئا بالحياة والحركة، يشهده المستمع عن قرب، ويحس بهوله، وهنا يكمن مناط التأثير به، ويتأثر بإيحائه ويستجيب لمضمونه، فتنفر النفس هاربة من الظلم باحثة عن المنجى والخلاص.

عرفنا أهمية الأسلوب التصويرى، ودوره فى التعبير عن المعانى الذهنية بالصورة المحسة المتخيلة، والارتقاء بالصورة التى يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، مما يكون له أثره فى استمالة القلوب، والتأثير فى النفوس، لذلك اتخذه النبى ﷺ طريقا - بجانب الحوار - لعرض مبادىء الدعوة، حيث تبدو تلك المبادىء والقيم كأنها تسعى على الأرض وتؤثر فى الأحياء، لأنه ﷺ حريص دائما على بث الحياة فى قلوب الناس، وإيقاظ الحركة فى قلوبهم، وتنشيط الفكر فى عقولهم، فإذا استخدم أسلوب القص بما فيه من أثر فى النفس يواكب فطرتها، وبما يمتاز به من قدرة على تصوير نواحى الحياة من خلال الشخصيات، بما تحمله من أخلاق وأفكار، تضاعف التأثير وتغلغل أثره فى النفوس، فآتى أكله يانعا طيبا.

وهذه صورة من الحديث النبوى اجتمع فيها كل عناصر التأثير من التصوير بالوصف، والتصوير بالكلمات وبالقص إلى جانب الحوار

والتشخيص،مما يجعلها نابضة بالحياة والحركة، ماثلة للعيان، وكأنها واقع ملموس.

٣ - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
"بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذى كان بلغ بى، فنزل البئر فملأ خُفَّهُ، ثم أمسكه بِفِيه ،فَسَقَى الكلبَ، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله: وإن لنا فى البهائم أجرا، فقال: نعم، فى كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ"(١)

ألفاظ الحديث وتراكيبه تعطينا صورة - بطريق الوصف - لهذا الرجل الذى اشتد به العطش فنزل بئرا ليروى ظمأه ثم خرج من البئر ففوجىء بكلب عند حافة البئر يلهث (ادلع لسانه) ويأكل الثرى من شدة العطش .. إن صورة الكلب مثيرة للشفقة، مستدرة للرحمة .. كلب يخرج لسانه متدليا متلمسا الحيلة إلى الماء .. يأكل الثرى عله يذهب ببعض ظمئه.

هذه الصورة الحية المتحركة النابضة بالحياة، المصورة للهفة الكلب ووجدانه، رسمتها الصفات (يلهث - يأكل الثرى) واختيار الجملة المضارعية نعتا للكلب، لما تفيده من التجدد والحدوث واستحضار المشهد أمام المستمع، وهو صورة الكلب على هذه الحال المهلكة كما رآها الرجل عند خروجه من البئر، فماذا يفعل؟

ويدور فى نفسه صراع، هل يترك الكلب بهذه الحال وينصرف أم يحاول أن يسقيه؟ وكيف يسقيه؟ إن إرواء الكلب يكلفه جهدا ليس بالهين .. وكلما نظر إلى الكلب تحركت فى نفسه دوافع الرحمة فقال يحدث نفسه: "لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى" وإذا به ينزل البئر، ويملأ خفه بالماء ثم يمسكه بفيه، ويصعد ويسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له.

(١) فتح البارى - كتاب الأدب - ٤٥٢/١٠.

ولنا أن نتخيل صورة الرجل وهو يصعد من البئر، ممسكا خفه مملوءا بالمـــاء بفيه، وما فى ذلك من مشقة وجهد، فضلا عما تعانيه عضلات الفـك مـن إجهاد، وكذلك عضلات اليدين والقدمين من محاولة الصعود والهبوط، ومـا يتخوفه الرجل خشية الانزلاق فى البئر، أو خشية سقوط الخف من فيـه .. كل هذه ألوان من الصراعات النفسية، تدور بين الرجل وداخله.

إنه مشهد مؤثر، وصورة حية نابضة بالحركة والحياة، مثيرة للفكر والوجـدان معا، تمس من القلوب الشغاف .. ويأتى التوجيه فى نهاية القصة فى قولـه ﷺ: "فى كل ذات كبد رطبة أجر" لافتا أنظار المسلمين إلى ما فى رعاية الحيـوان من ثواب جزيل.

ويشير النظر إلى أمور من دقة العبارة وبلاغتها:

- العطف بالفاء بين الأفعال (فاشتد .. فوجـد .. فـنزل .. فشـرب) والعطف بثم فى (خرج) لمناسبة كل لمقامه، فالفاء تفيـد الـترتيب مـع السرعة، لأن حرقة العطش دفعت الرجل أن يوالى هذه الأفعال على وجه السرعة، فبمجرد أن وجد البئر نزل فشرب، فلما أن تروى خرج، ومـن هنا كان العطف بـ"ثم" التى تفيد الترتيب مع التراخى، فلعل الرجل قـد مكث فى البئر بعض الوقت حتى يتروى، وتهدأ نفسه من شـدة الحـر، وحرقة العطش، ثم خرج.
- قوله " يأكل الثرى من العطش" كناية شدة حرقة العطش بـالكلب، وأكل الثرى لقربه من الماء فى التبريد، و"من" تعليلية، أى أخرج لسانه من شدة العطش وبسببه.
- "فى كل ذات كبد رطبة أجر" كناية عن كل نفس تدب فيها الحيـاة، وفيها حث على إرواء كل ظمآن لكسب الأجر والمثوبة.
- تضمنت القصة نوعين من الحوار:
  - حوار بين الرسول ﷺ والصحابة.

- وحوار ذاتى بين الرجل ونفسه، وهذا من شأنه أن يترجم عن مشاعر الشخصية وعواطفها وأحاسيسها، ويعمق الحدث ويضاعف من تأثيره فى النفوس.

- وبعد فالنص نسيج متكامل، ذو علاقات متداخلة يأخذ بعضها بحجز بعض، ويتداخل فيه إيقاع الذات وإيقاع البيئة والمجتمع والثقافة.

ثانيا: التصـــوير بالقـــص:

ومن طرق التصوير التى كان يتعمدها النبى ﷺ للتشويق والإيقاظ **القص**، فكثير من أحاديثه ﷺ صيغت فى شكل قصص قصير، ولا يخلو حديث منــها من الحوار الرائع الموحى المعبر، وهذا طبيعى؛ لأن الحوار دعامة القصة وأساس أصيل فيها.

والنبى ﷺ يلجأ إلى أسلوب القص، ليعمق به المفاهيم والقيم التى تعد مـن المسائل الكبرى فى النماذج الكلية من حياة الإنسان، ولأن للقـــص أثـرا فى النفس، يواكب فطرتها فى مدارج الحياة.

ومن أمثلة ذلك "**قصة الكفل**"

١ - عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ :"كان فيمن كان قبلكم رجل يسمى الكفـــل، وكان لا يترع عن شيء، فأتى امرأة علم بها حاجة، فأعطاهـا ستين دينارا، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟

فقالت: لأن هذا عمل ما عملته قط، وما حملنى عليه إلا الحاجة.

فقال: أتفعلين أنت هذا من مخافة الله تعالى؟ فأنا أحرى بذلك فاذهبى ولك ما أعطيتك، ووالله لا أعصيه بعدها أبدا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه: إن الله تعالى قـــد غفـر للكفـ!

فعجب الناس من ذلك حتى أوحـــى الله إلى نـبى زمـانهم بشأنه"(١)

(١) مسند أحمد - مسند المكثرين - رقم ٤٥١٧

هذه قصة درس فى التوبة .. تدور بين الحكاية والحوار .. وتبنى على بطلين فردين، الأول: الكفل (كان لا يترع عن شيء) والثانى: المرأة ترتعد وتبكى، لأنها ما فعلت فاحشة قط. أحوجها الفقر لقبول ماله .. ولكن ماذا وراء الدنانير؟ ... صراع بين الخير والشر .. بين الطهر والخطيئة .. إما أن أحيا وإما أن أموت .. ما الحل؟

ارتعاد تنقائى وبكاء مفاجىء صدوق.

ويبدأ التعقيد عند الكفل - حيرة .. دهشة .. ويسأل فيجىء الحل. وهنا يفجر الموقف حالة من الصراع النفسى عند الرجل، فإذا به يتعظ ويقلع عن المعصية، ويحس بالخوف من الله، درس يثمر فى ثوانٍ أقدس الثمرات . (والله لا أعصيه بعدها أبداً)

أول صدقة للكفل هى آخر صدقة له .. ستون دينارا.

وآخر وثبة للجريمة هى أول وثبة إلى الجنة .. سجلت على بابه .. يا عجبا بم أدرك الكفل هذه المغفرة؟

عقدة فى نفوس الجماهير ينطق آخر سطور القصة بحلها .. نبيهم يخبرهم عن الله خاتمة الكفل[1].

٢ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اشترى رجلٌ من رجلٍ عقاراً له فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جَرّةً فيها ذهب، فقال له الذى اشترى العقار: خذ ذهبك، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتعْ منك الذهب، فقال الذى شَرَى الأرض، إنما بِعْتُكَ الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذى تحاكما إليه: ألكما ولد؟ فقال أحدهما: لى غلام، وقال الآخر: لى جارية. قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقا عليهما منه وتصدقا".

---

(١) من بلاغة الحديث النبوى ص ٤٧٣، ٤٧٤

هذا الحديث يتألف من سطور قليلة استوعبت عناصر القصة فى عرض سريع شائق.

فالمقدمة: اشترى رجل من رجل عقارا له.. وماذا بعد؟ وجد فى العقار جرة فيها ذهب .. إنه رزق جميل ومال كثير .. فماذا صنع؟

هنا تبرز **العقدة** فقال للبائع: خذ ذهبك فإنما اشتريت العقار، و لم أشتر الذهب .. عجبا فهل فرح البائع بالذهب وأغراه بريقه؟

كلا، بل رده عنه قائلا: إنما بعتك الأرض بما فيها.

وكان **الحل**: لم يقبل المشترى الذهب، و لم يقبل البائع الذهب .. فلابد من رفع القضية للفصل "فتحاكما إلى رجل" ترى ماذا فعل الحاكم؟ وكيف حكم؟ ولأى دليل استند؟

إنه لم يجد الدليل، فاجتهد ليصل إلى ما يطمئن إليه من عدل، فقال الرجل: ألكما ولد؟ فقال أحدهما: لى غلام. وقال الآخر: لى جارية. فقال أنكحا الغلام الجارية، وأنفقا عليهما منه وتصدقا.

وهكذا كانت القصة بيانا لتصرف الحكم الموفق الذى يصلح بين المتخاصمين على وجه يرضيهما مع موافقته للحق.

فالحديث يقص علينا قصة رجال ثلاثة انطبعوا على الخير وترفعوا عن الطمع، فكان المشترى أمينا، فلم يخف خبر الكتر منتهزا أو منهوما، بل كان عفيفا زاهدا، فلم يطلب شركة فيه، وكان ورعا ملتزما بما فى عقد البيع فبرأ نفسه مما زاد، ورآه حراما على نفسه.

وكان البائع ورعا هو الآخر، إذ خاف مغبة الطمع ونأى عن الشبهة، ونظر إلى العقد و لم يفصل إجمال المبيع، فلم يغلبه بريق الذهب على الوازع الدينى، فرفض الذهب ليسلم الدين.

وكان الحكم ورعا أيضا غير متجانف لإثم، ملهما سديد الحكم، فسوى بين المحتكمين باجتهاد ذكى صالح، وأرضى الله، وأنصف المحتكمين فى حكومته.

وهكذا نرى الحوار والحكاية يشتركان فى تكوين المشاهد تكوينا متكـــاملا، فالقصة على قصرها يمكن تحويلها إلى فصل تمثيلى طريف، له خطره فى خلــق الوعى الدينى، وتقويم القيم السلوكية فى المجتمع.

والقصص النبوى كثير منه القصير ومنه الطويل نسبيا، فنكتفى بالاشارة إليه فى مظانه.

- حديث الأعمى والأقرع والأبرص(١)
- وحديث القاتل والراهب والعالم.(٢)
- وحديث جريج(٣)
- وحديث الملك والساحر والغلام.(٤)

وللدكتور محمد بن حسن الزير دراسة فنية موضوعية عن القصص فى الحديث النبوى، يمكن الرجوع إليها فى دراسة مقدمات هذه القصص وغيرها: وما فيها من عنصر الحوار ووسائل التشويق.(٥)

على هذا النهج القويم يستخدم النبى ﷺ أساليب البيان المؤثر وفنون القول البين، وأساليب التشويق من قصة ومثل وحوار وإشارة، مطابقا بين الـترغيب والترهيب، منتقيا لكل مقام عبارة، هى أمس رحما بالمعنى، وأقدر على الوفــاء به، يعرض ذلك فى صورة استوفت شرائط البلاغة، واكتملت لها القدرة على التأثير، حتى إذا ما انتهت صياغة المعنى بدا التعبير وكأنه بناء هندســـى بلــغ الغاية فى الكمال والجمال، يشدك حواره، ويهزك إيقاعه، ويبهرك تناســـقه، وتمتعك صوره، ويستولى عليك إيحاؤه، ويؤنسك جماله، ويأخذ عليك نفسك كلها سحر بيانه.

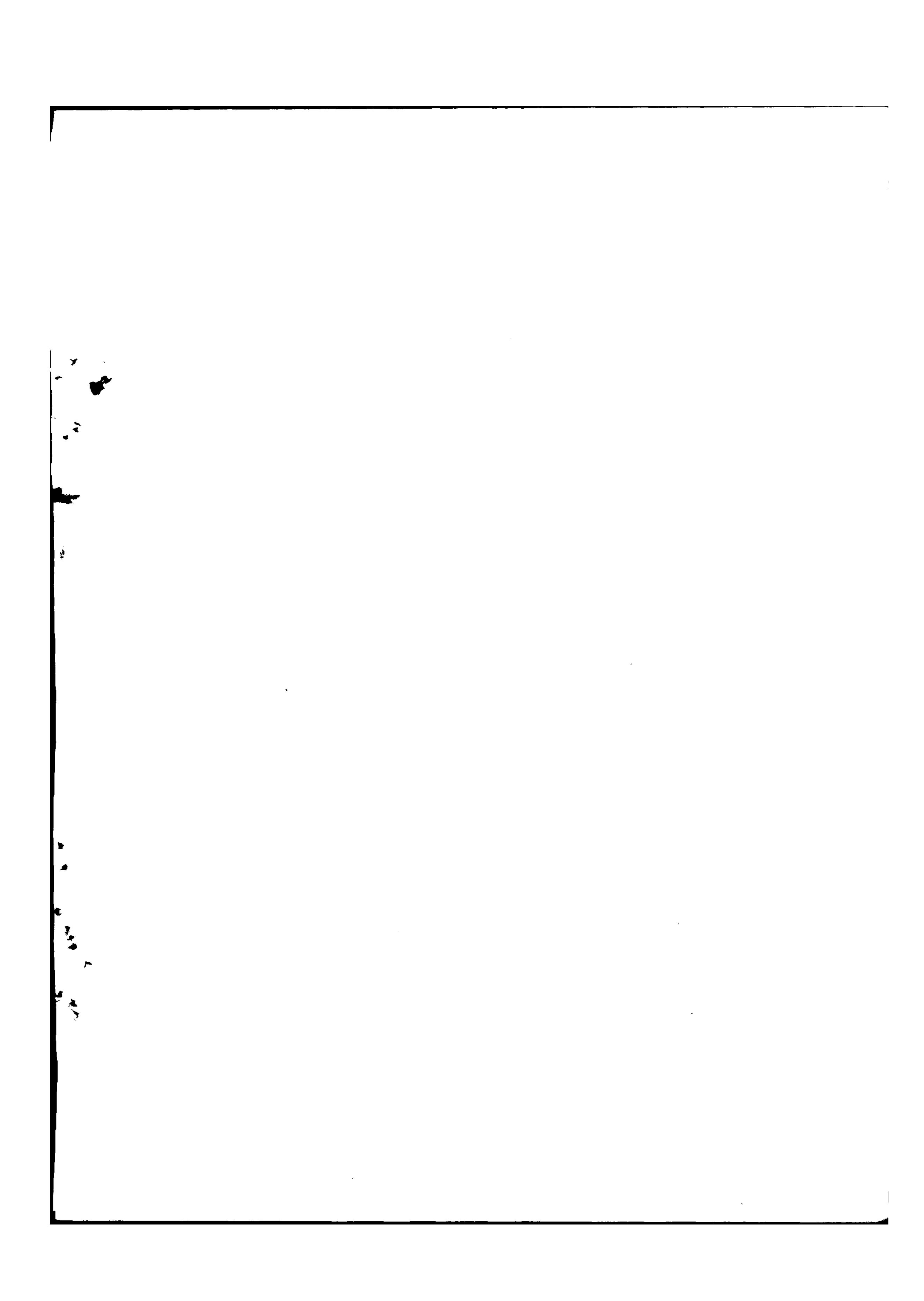
---

(١) فتح البارى - الأنبياء - ٥٠٠/٦، باب المراقبة من رياض الصالحين ص ٩٤

(٢) فتح البارى - الأنبياء - ٥١٢/٦، باب التوبة رياض الصالحين ص ٢٠

(٣) فتح البارى ١٣١/٤

الخاتمة ونتائج البحث



الخاتمة

بعد هذه الوقفة مع الحوار النبوى تبين لنا أن النبى ﷺ يسلك فى محاوراته سياسة جدلية بيانية، يعالج بها أوضاع الخصوم، ويناقشهم بما يتناسب مع أحوالهم فى مقام المجادلة والحوار.

قد تتخذ الفكرة الواحدة أشكالا متعددة فى عرضها، وطريقة أدائها مطابقة لأحوال المخاطبين (مستقبلين أو مستفسرين) وتبعا لتعدد نواحى الاستجابة فى النفس البشرية، والحوار هو الطريق المتميز بين طرق الأداء الموصلة، لأنه يخاطب الملكات المختلفة فى الانسان (العقل والوجدان والمشاعر النفسية) فيقنع العقل، ويستثير الوجدان، ويمتلك المشاعر والعواطف بغزو مناطق الشعور، لذا نرى أن الحوار ذو صلة قوية بالبلاغة، وهو أسلوب من أقوى أساليب الدعوة تأثيرا، وأداة فعالة من أدوات الداعية إلى الله، وقد تمثل ذلك كله فى الحوار النبوى.

يجمع أسلوب النبى ﷺ – فى المحاورة – بين عمق المعنى ودقة التصوير، ووضوح التعبير وسلامة التراكيب وإحكام نظمها، دون إخلال بالصورة البيانية التى تثير الوجدان وتوقظ الضمير، وتحرك المشاعر النفسية، وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بالاصطلاحات المنطقية المعقدة، وهذا لا يمنع استخدامه لقياس التمثيل، ليقنع به عن رؤية وبينة.

يتميز الحوار النبوى بشكله وقالبه التعبيرى اللافت لما فيه من مراجعة ومجاذبة، فهو جيد المناقلة، سريع المساجلة، سريع الجواب، قصير الخطاب، مركز المضمون، محدد الهدف مطابق لموقف المتكلم وخلقه، متغير اللهجة والجرس، مما يضفى على موضوع المحاورة لونا من الحيوية، تستنفر عناية السامع واهتمامه لمتابعة ما يطرح من قضايا، ثم هو فى غمرة هذا التتبع يلقى إليه بالغرض فى نهاية الحوار فيقع تحت تأثيره، ويؤمن به عن يقين.

يتيمز الحوار النبوى باشتماله على الوسائل القادرة على التأثير النفسى، لأن ذلك ينسجم مع طبيعته وهدفه فى الإقناع، فغالبا ما يقوم الحوار على

السؤال والجواب ومفاجأة الخصم بما لا يكون فى حسبانه مما يجره إلى الاعتراف بالحقيقة أو تقرير الحكم بنفسه.

يتميز أيضا بكثرة طرقه ووسائل التشويق التى يتعمدها النبى ﷺ وبخاصة فى بداية الحوار ليظل المخاطب مشدودا بكل فكره وعواطفه حتى نهاية الحوار، فإذا بالهدف قد تقرر فى نفسه وتمكن من عقله وقلبه، وغزا وجدانه وامتزج بدمه.

حرص النبى ﷺ على استخدام كيفيات تعبيرية ذات خصائص تركيبية لها من قوة الحبك وتكاثر الايحاء ما يجعلها شديدة التأثير، من ذلك الاستفهام المجازى، وأساليب القصر، واساليب التوكيد والتكرار، قصدا إلى التقرير، وهى من الأساليب الموسومة بالبلاغة.

ومن مظاهر التركيز فى جملة الحوار أن نرى الكيفية التعبيرية الواحدة منطوية على خصوصيات متعددة، نحس ذلك فى جملة القصر، وجملة الاستفهام المجازى، وفى التقديم وفى الحذف، فقد تبين - من البحث - أن بواعث الاستفهام المجازى فى الحوار نفسية، وان توخى طرق معينة فى صياغة الجملة لها تأثير نفسى أحيانا كالتقديم فى بعض مواضعه، والحذف والقصر والايجاز بوجه عام.

لم تقتصر الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والفصل والوصل، والتعريف والتنكير على ما ذكره القدماء، بل ظهر لكل نوع من هذه الأنواع فى موضعه نكتة بلاغية يستشفها صاحب الطبع من خلال السياق، لأن تغيير المواقع يصحبه تغيير فى الأثر النفسى.

من أهم ما يميز الحوار النبوى "الإيجاز" لأن خصائص الحوار وطرقه التعبيرية تكاد تتجه جميعها إلى الإيجاز، وهو أمر اقتضته طبيعة الحوار، لاعتماده على المراجعة والملاحقة وشدة التركيز فى تناول المعانى وأدائها. وإذا كنا قد خصصنا مبحثا للإطناب، واخترنا له بعض الشواهد من الحوا رالنبوى لأن فيها تكرار أو توكيدا أو تفصيلا بعد إجمال أو توضيحا بعد إبهام وغير ذلك مما ذكره البلاغيون من أنواع الإطناب، فالحق أن كل شواهد الحوار تعد

فى حقيقتها إيجازا بالقياس إلى ما يراد منها، لأن كل جملة فى الحوار لها مغزاها ومقصدها وكل كلمة لها دلالتها، لا يتأدى الغرض المطلوب بدونها، والإطناب إذا لم يكن منه بد فهو إيجاز وقد بينا ذلك فى حديثنا عن الإطناب، فهناك كيفيات تعبيرية متعددة تتعاون على إبراز الحوار وتحقيقه فضلا عن الأساليب التى تتعين دلالتها على الإيجاز والتى تغلب فى معظم حوار النبى ﷺ كالقصر والاستفهام المجاز.

فإيجاز القصر يستدعيه مقام الجدل الذى يقتضى التركيز على إثبات الحجة ويكون الجواب المتعين الذى لا يمكن الإجابة بغيره، ومن الظواهر التى تحدد ملامح الحوار، توخى طرق معينة فى ترتيب الكلم، وتركيب الجمل، وتنوع الأساليب بين الخبر والإنشاء، وتصوير المعانى المجردة تصويرا نابضا بالحركة والحياة.

نتائج البحث

١ - رسم صورة واضحة لأبعاد الحوار النبوى وخصائصه وأهدافه وتأثيره فى نفوس الناس.

٢ - أبرز وظيفة العبارة البليغة فى الحوار وأهميتها فى إقناع المخاطب والتأثير فيه، فهى بمثابة سلاح قوى، يدافع به أصحاب الحقوق عن حقوقهم، واصحاب الرأى عن آرائهم، وقديما قيل: "رب كلام أقطع من حسام، وأنفذ من سهام".

٣ - أثبت تأصيل مقررات البلاغيين فقد تبين من دراسة تراكيب الحوار وصوره البيانية اتفاق كثير من ظواهر الحوار فى بعض الأحيان مع ما قرره البلاغيون القدماء فى علمى المعانى والبيان.

٤ - كشف عن الجديد من الأسرار البلاغية فى كثير من التراكيب والصور، فقد لاحظت اشتمال بعض التراكيب الحوارية على خصائص لم تكن فى مقررات البلاغيين، كبعض أسرار الحذف، والتقديم، والفصل والوصل، والقصر، وبعرض صور خروج الكلام على مقتضى الظاهر،

وفى التعريف والتنكير، فالنكات البلاغية فى هذه الأنواع رهينة المقام أو السياق، لأن تغيير المواضع يصحبه تغيير فى الأثر النفسى، وحسن العبارة فى كثير من التراكيب يرجع إلى ما يعمد إليه النبى ﷺ من تصرف فى العبارة ليقوى حبكها، ويتكاثر إيحاؤها، كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان، وخير الكلام ما يدفع إلى إعمال الفكر وتنشيط الخيال، لاستشراف دلالة الحذف أو التقديم أو الفصل أو إيثار كلمة على أخرى أو التجوز بشىء على آخر مما يكشف عن الوظائف الدلالية لهذه الكيفيات التعبيرية.

أثبت البحث أن فى الحوار النبوى صورا فنية جديدة تماما، تختلف عما كان مألوفا ومكروراً من صور الشعر الجاهلى ونثره، وتلك النتيجة تؤكد أن الصدق الفنى، والبصيرة الثاقبة من العناصر الأصيلة فى التعبير النبوى، كما اعتمد الحوار النبوى على وسائل عديدة فى تصويره المعانى، فلم تعد الصورة تعنى التشبيه والاستعارة وغير ذلك مما عرف عند العرب وشاع فى استخدامهم، بل اتسع معناها ومدلولها فصار يشمل التصوير بالألفاظ والصيغ، وبالوصف وبالقصة، وبالإشارة، مما يفتح آفاقا جديدة للإدراك والتخييل، فضلا عن وضوح العلاقة بين الصورة والبيئة والمجتمع.

أثبت البحث أن الحوار بطبيعته وخصائصه وأهدافه (تركيبا وتصويرا) يتجه إلى تحقيق الهدف من رسالة النبى ﷺ باعتبارها دعوة إلى الله، وبيان لكتاب الله، وما حواه من تشريع وإصلاح.

قدم للدعاة منهجا متكاملا فى التعليم والتهذيب والإصلاح، كما قدم للمعلمين منهجا تربويا شمل أهم الوسائل التعليمية التى تساعدهم على أداء مهمتهم بنجاح، كما جلّى البحث طرقا لعلاج كثير من آفات المجتمع السياسية والاجتماعية.

والله اسأل أن ينفع بما فيه من صحيح العلم وصالحه.

المصادر والمراجع

١- **اتجاهات وآراء فى النقد الحديث**، الدكتور محمد نـايل، مطبعة العاصمة (د.ت).

٢- **الإتقان فى علوم القرآن**. جلال الدين السيوطى، تحقيق محمد أبو الفضل. الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤م.

٣- **أدب الحديث النبوى**. دكتور/ بكرى شيخ أمين، دار الشروق. ط٢ ١٣٩٥هـ/١٩٧م.

٤- **أسرار البلاغة**. عبدالقاهر الجرجانى تصحيح محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، ط٦، ١٣٩٧هـ/١٩٥٩م.

٥- **أسلوب الدعوة القرآنية (بلاغة .. ومنهاجاً)** دكتور/ عبدالغنى بركة، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط ١ - ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٦- **أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم** ، دكتور/ عبدالحليم حفنى، الهيئة العامة للكتاب ط ٢ سنة ١٩٨٥م.

٧- **الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز**. لعز الدين بن عبدالسلام، المطبعة العامرة سنة ١٣١٣هـ.

٨- **إعجاز القرآن، للباقلانى**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بالقاهرة ط ٢ سنة ١٩٧٧م.

٩- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الثالثة (د.ت).

١٠- **الأمثال فى الحديث النبوى**، للأصبهانى، الدار السلفية، ط١ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١١- **البحث البلاغى عند العرب**. **(تأصيل وتقييم)** د. شفيع السيد، دار الفكر العربى سنة ١٩٨٧م.

١٢- **البرهان فى علوم القرآن**، لبدر الدين الزركشى، تحقيق محمد أبو

الفضل، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٢م.

١٣- **بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز**، مجد الدين الفيروز ابادى. تحقيق محمد على النجار، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ط٢، ١٩٨٦م.

١٤- **بلاغة الكلمة والجملة والجمل**، دكتور/ منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٢، سنة ١٩٩٢م.

١٥- **بناء الجملة فى الحديث النبوى الشريف فى الصحيحين**، الدكتور/ عودة خليل أبو عودة، دار البشير، عمان ط ٢ - ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٦- **بيان إعجاز القرآن، للخطابى**، ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز، تحقيق د. زغلول سلام، محمد خلف الله، دار المعارف بالقاهرة.

١٧- **البيان والتبيين للجاحظ**، تحقيق أ.عبدالسلام هارون. مكتبة الخانجى ط ٤ سنة ١٩٧٥م.

١٨- **البيان فى روائع القرآن**. دكتور/ تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة ط ١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٩- **البيان النبوى**، دكتور/ محمد رجب البيومى، دار الفكر ط ١، ١٩٨٠م (الجزء الأول).

٢٠- **تأويل مشكل القرآن**. لابن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر. المكتبة العلمية، بيروت، ط٣ سنة ١٩٨٨م.

٢١- **التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان**، لشرف الدين الطيبى، تحقيق وتقديم د. هادى عطية الهلالى، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٢- **تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**. لابن

أبى الاصبع، تقديم وتحقيق د. حفنى شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامى.

٢٣- **الترغيب والترهيب. عبدالعظيم المنذرى.** مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر.

٢٤- **التصوير الفنى فى الحديث النبوى**، د. محمد بن لطفى الصباغ، المكتب الإسلامى، ط١ - ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٥- **ثلاث رسائل فى الإعجاز.** تحقيق طه الحاجرى، د. زغلول سلام. دار المعارف بمصر.

٢٦- **الجامع الصغير وهو سنن الترمذى.** تحقيق إبراهيم عطوة، مطبعة الحلبى ط١، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

٢٧- **الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية**، دكتور/ عز الدين على السيد، دار اقرأ، ط١ - ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٢٨- **الحوار فى القرآن الكريم (قواعده. أساليبه. معطياته)** محمد حسين فضل الله. مكتبة الشهيد الصدر (إيران) ط٢ - ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٢٩- **خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى**، دكتور/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط٢ - ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٣٠- **دفاع عن البلاغة.** أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة ط١، ١٩٤٥م.

٣١- **دفاعا عن التنوير.** الدكتور/ جابر عصفور "دعوة إلى الحوار" مكتبة الشباب. كتاب التنوير (١٨) سبتمبر سنة ١٩٩٣م، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٣٢- **دلائل الإعجاز.** للإمام عبدالقاهر الجرجانى، تعليق محمود شاكر. مكتبة الخانجى بالقاهرة، ط١ - ١٩٨٤م.

٣٣- **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**، لابن علان، الصديقي الشافعي، وبأعلى الصفحات كتاب "رياض الصالحين" للنووى، دار الريان للتراث ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، (٤ أجزاء).

٣٤- **روح الجماعات**، جوستاف ليبون، دار المعارف ط١، ١٩٥٥م.

٣٥- **السيرة النبوية لابن هشام**. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. مطبعة الحلبى ط٢ -١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.

٣٦- **صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند**. صححه: محمد ناصر الدين الألبانى. الناشر مكتب التربية العربى لدول الخليج.

٣٧- **صحيح سنن أبى داود باختصار السند**. صححه محمد ناصر الدين الألبانى، نشر مكتبة التربية العربى لدول الخليج.

٣٨- **صحيح سنن الترمذى باختصار السند** صححه: محمد ناصر الدين الألبانى. الناشر مكتب التربية العربى لدول الخليج.

٣٩- **صحيح سنن النسائى باختصار السند**. صححه: محمد ناصر الدين الألبانى. الناشر مكتب التربية العربى لدول الخليج.

٤٠- **صحيح مسلم**. بشرح النووى. طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

٤١- **الصناعتين** لأبى هلال العسكرى، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ - ١٩٨١م.

٤٢- **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة**.. ليحيى بن حمزة العلوى - دار الكتب العلمية - بيروت (د.ت).

٤٣- **علم اللغة النفسى** - للدكتور عبدالمجيد سيد منصور - عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود - الرياض - ط١ سنة ١٤٠٢هـ.

٤٤- **علم النفس النبوى**، للدكتور قاسم شهاب، مؤسسة الرسالة ط١

سنة ١٩٩٥م.

٤٥- **العمدة فى محاسن الشعر وأدبه ونقده**، لابن رشيق القيروانى. ت/محيى الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤٦- **عمدة القارى، شرح صحيح البخارى**، للإمام بدر الدين العينى (ت٨٥٥هـ)؛ ط دار إحياء التراث العربى، بيروت، بدون تاريخ.

٤٧- **فتح البارى، شرح صحيح البخارى** لابن حجر العسقلانى، طبعة بيروت.

٤٨- **فتح البارى، شرح صحيح البخارى** لابن حجر العسقلانى، طبعة الريان.

٤٩- **"الفتح الربانى" لترتيب "مسند أحمد" مع شرحه "بلوغ الأمانى فى أسرار الفتح الربانى"** - تأليف أحمد البنا - دار الشهاب - القاهرة.

٥٠- **فى أصول الأدب.** أحمد حسن الزيات. شركة الخزندار للتوزيع والإعلان. السعودية.

٥١- **القصص فى الحديث النبوى (دراسة فنية وموضوعية)**، الدكتور/ محمد بن حسن الزير، دار المدنى ط٣ - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٥٢- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى التأويل (تفسير الزمخشرى)**، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ط١ - ١٣٥٤هـ.

٥٣- **لسان العرب**، لابن منظور، طبعة دار المعارف بالقاهرة (٦ أجزاء).

٥٤- **المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر**، لضياء الدين ابن الأثير،

تحقيق د. أحمد الحوفى، ود. بدوى طبانة، دار نهضة مصر ١٩٧٣م.

٥٥- **المجازات النبوية**. للشريف الرضى، تقديم: طه عبدالرءوف سعد، مطبعة الحلبى بالقاهرة، الطبعة الأخيرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٥٦- **مجمع التفاسير، وهو يضم تفسير (الزمخشرى، الخازن، النسفى، والرازى)**، دار الدعوة استانبول (تركيا)، المطبعة العلمرة، ط١ سنة ١٣٢٠هـ.

٥٧- **مختصر صحيح مسلم**. عبدالعظيم المنذرى، ت/ ناصر الدين الألبانى، طبعة المكتب الإسلامى، بيروت ط ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥٨- **المسند، أحمد بن حنبل**. المطبعة اليمنية بمصر، ١٣١٣هـ .

٥٩- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبدالباقى، مؤسسة جمال للنشر، بيروت، بدون تاريخ.

٦٠- **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى**. ترتيب وتنظيم أ.ى. ونسنك وآخرين. دار الدعوة - استنبول ١٩٨٨م.

٦١- **مفتاح كنوز السنة**. فنسنك. ترجمة: محمد فؤاد عبدالباقى. مطبعة مصر، ١٣٥٣هـ/١٩٣٣م

٦٢- **المفردات فى غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلانى. مطبعة الحلبى. الطبعة الأخيرة ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

٦٣- **مقاييس اللغة**، لابن فارس. تحقيق وضبط عبدالسلام هارون. القاهرة ١٣٦٦هـ.

٦٤- **من بلاغة القرآن**. د. أحمد أحمد بدوى - مكتبة نهضة مصر. ط٣ ، ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م.

٦٥-**المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود** للشيخ محمود السبكي. دار إحياء التراث. بيروت ط٢ سنة ١٣٩٤هـ.

٦٦-**الموطأ**. مالك بن أنس - تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي - دار إحياء الكتب العربية بمصر.

٦٧-**النبأ العظيم** (نظرات جديدة في القرآن) دكتور/ محمد عبدالله دراز، مطبعة السعادة بالقاهرة ط١ - ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٦٨-**نقد النثر** ، لقدامة بن جعفر، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٦٩-**النكت في إعجاز القرآن** للرماني (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز) تحقيق د. زغلول سلام، أ. محمد خلف الله دار المعارف، القاهرة.

٧٠-**وحي القلم**، مصطفى صادق الرافعي (٣ أجزاء). دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).

الفهارس

- فهرس آيات القرآن العظيم.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس الموضوعات.

(١) فهرس آيات القرآن العظيم[١]

نص الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة	
"صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم"	١٢٨
سورة البقرة	
"وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة..."	٧
"رب أرنى كيف تحيى الموتى..."	٧
"فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج"	٢٥
"ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه..."	٢٦
"كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله"	٣٧
سورة آل عمران	
"وجادلهم بالتى هى أحسن"	٢٤
"وشاورهم فى الأمر"	٣٨
"إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً"	٧٠
سورة الأنعام	
"الله أعلم حيث يجعل رسالته"	١٣، ٣٥
"قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله"	١٢٠
سورة الأعراف	
"يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"	٣٧
سورة التوبة	
"عفا الله عنك لم أذنت لهم"	١٠٧

---

[١] لم أشر فى الفهرس إلى رقم الآية اكتفاء بذكره فى موضعه.

"يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهـا جباههم وجنوبهم وظهورهم ..."	١٧٣

سورة هود

"رب إن ابنى من أهلى..."	٧
"يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا..."	٣٦

سورة يوسف

"قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة ..."	٨٨

سورة الرعد

"كذلك يضرب الله الحق والباطل أما الزبد فيذهب جفاء ..."	٦٠

سورة النحل

"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..."	٣٢
"أتى أمر الله فلا تستعجلوه"	١١٥
"وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها"	١٨٩

سورة الإسراء

"قل لو أنتم تملكون رحمة ربى"	١٠٥ ، ١٧٩

سورة الكهف

"فقال له صاحبه وهو يحاوره..."	٢٥
"قال له صاحبه وهو يحاوره..."	٢٥
"وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً"	٣٠

سورة الحج

"ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم..."	٢٤،٣٦

سورة النور
"يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون" ٨٦
"في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه" ١٧٦

سورة القصص
"وأخي هارون هو أفصح مني لسانا" ٤٢
"قال سنشد عضدك بأخيك" ٤٢

سورة العنكبوت
"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن" ٣٢

سورة الروم
"فطرة الله التي فطر الناس عليها" ١٣٣

سورة سبأ
"وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" ٣٢

سورة الزمر
"ونفخ في الصور" ١١٥

سورة غافر
"وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق" ٢٤

سورة فصلت
"ادفع بالتي هي أحسن ..." ٣٥
"حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا ... فهم لا يسمعون" ٥٩
"يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون .. وإليه ترجعون" ٨٧

سورة الشورى

"وأمرهم شورى بينهم" ٣٨

سورة الحجرات

"يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله" ٨٦

سورة المجادلة

"والله يسمع تحاوركما" ٢٣،٢٥،٢٦

سورة الجن

"وأن المساجد لله، فلا تدعو مع الله أحدا" ١٧٦

سورة الفجر

"فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن" ٢٤٢

سورة الشمس

"ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ... دساها" ٢٩

فهرس الأحاديث النبوية[١]

"... إنك إن فعلت قل الظهر"	٢٣٥،٣٩
"الولد للفراش وللعاهر الحجر"	٢٣٥
"إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع، أو لـذى دم موجع"	١٧١،٥٧،٥٥
"كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى"	٦٥
"تعوذوا بالله من جب الحزن"	٦٦، ١٠١
"سبق درهم ألف درهم"	٦٧
"إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه، ... وهل يشتم الرجـل والديه؟"	٦٧، ١٢٢، ١٥٠، ٢٣٤
"ثنتان موجبتان"	٦٨
"ثلاث لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم"	١٢٩،١٠٢،٦٩، ١٨٨،
"أتدرون من المفلس؟"	٧٠، ٩٨، ٢٥٥
"مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله..."	٢٣١
"الحال المرتحل"	٧١، ٢٠٦
"حبسهم العذر"	٢٤٣
"إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفـه نعمه ..."	٧٢، ١٢٧
"وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسـا يـوم القيامـة الثرثـارون والمتشدقون والمتفيهقون"	٧٣، ١١١، ١٥٤
"إياكم والجلوس فى الطرقات"	٧٤

---

[١] ذكرت الأحاديث حسب ورودها فى البحث مشيراً إلى رقم الصفحـة وإن تكـرر وروده فى أكثر من موضع أشرت إليه.

"اتقوا اللعانين"	٧٥
"طوبى للسابقين إلى ظل الله"	٧٦
"أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان"	٧٧
"رغم أنفه. رغم أنفه. رغم أنفه"	٧٨، ١١٩، ١٦٣
"هل تدرون ما مثل هذه وهذه؟"	٧٩، ١٢٩
"هذاك الأمل وهذا الأجل"	٨٠
"فما كانت تُمُد؟ من أى شىء تعجب؟	٨١
"دخلت العمرة فى الحج، دخلت العمرة فى الحج، لا بل لأبد أبد"	٨٢، ٢١٥
"ألا أنبئكم بأكبر الكبائر... ألا وشهادة الزور"	٨٣،٢٠٤،٢١٤
"هل تدرون مما أضحك؟"	٨٥
"ما أخوف ما تخاف علىّ؟"	٢٣٧
"بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا مصعب بن عمير.."	٨٧
"قدم على رسول الله ﷺ بسبى.. أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟.. لله أرحم بعباده من هذه بولدها"	٨٨، ٨٩
"إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء ..."	٩٣، ٢٠٧
"أنت منهم ... سبقك بها عكاشة"	٩٣
"والذى نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها"	٩٤، ٢٠٦
"أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار .."	٩٤،١٢٠،١٢٩، ١٣١،١٨٥
"... إن الذى تدعونه بينكم وبين أعناق ركابكم	٩٦، ٢٤٦
"أتدرون من السابقون إلى ظل الله؟"	٩٦
"ألا أخبرك بملاك ذلك كله"	٩٨
"كف عليك هذا"	٩٨

"ألا أدلك على أبواب الخير" ١٠٠، ١٤٤

"الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار" ١٢٣، ٢٢٨

"... أو إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ ... وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم؟" ١٥٢، ١٥٩، ٢٣٧، ٢٤٠

"ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان..." ٩٥

"إن الذى تدعونه بينكم وبين أعناق ركابكم.." ٩٦، ٢٤٦

"ما أخرجكما من بيتكما هذه الساعة؟ .. وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخركما ..." ٩٧

"ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات..." ٩٧

"فذلكم الرباط، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط" ٩٧

"عليكم بالأسود منه ..." ٩٩

"وهل من نبى إلا وقد رعاها" ٩٩

"أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات" ٩٩، ١٠١، ١٢٠، ١٤٦، ١٩٨، ٢٢٦

"أى شهر هذا؟ ... فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا" ١٠٠، ١٠٤

"ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن أذهب الله عنك همك وقضى دينك؟" ١٠٢، ١٤٠

"إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله" ١٠٤، ١٨٩، ٢٣٨

"فإن له أصحابا يُحقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن، ولا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة" ٢٣٢، ٢٤٩

"لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة" ١٠٥، ١٧٩

"أخبرنى عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ... فأخبرنى عن الإحسان، قال: تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه ١٠٥، ١٢١

يراك"
"أحي والداك... ففيهما فجاهد" ١٠٦، ١٦٢، ١٨٠
"إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ..." ١٠٦
"لله ورسوله المنُّ والفضل ... ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله..." ٤٦، ١٠٧، ١٥١
"ألست فلان بن فلان؟ ... غفر الله لك" ١٠٧
"إن لله ما أخذ، وله ما أعطى" ١٠٨
"ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعدُه من النار ومقعده من الجنة .. اعملوا فكل ميسر لما خلق له" ١٠٨
"رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين" ١٠٩، ١١٠
"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا" ١٠٩، ١١٣
"ومن أراد الآخرة، ترك زينة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى" ١١٢، ١١٧، ١٢٦
قال الثلث، والثلث كثير، وإنك لن تُنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليهما" ١١٤
"كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ أمّا علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده..." ١١٤
"سمع ما قال فَكَرِهَ ما قال" ١١٧
"والله إنى لأحبك... فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه" ١١٧، ٢٤١
"إنما ستكون فتنٌ، ألا ثم تكون فتنٌ..." ١١٨، ٢٠٥
"إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء" ١١٨
"ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره..." ١١٩
"قال النبى لوفد عبدالقيس: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة ألا إله إلا الله ... وأن تؤدوا خمسا من المغنم" ١٢٢
"قال رجل منهم اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ..." ١٢٣

"أنت مع من أحببت" ١٢٤

"أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتُك" ١٢٤

"اتقى الله واصبرى إنما الصبر عند الصَّدمة الأولى" ١٢٤، ١٢٥، ١٥٧، ١٧٤

"ما الشيء الذى لا يحل منعه؟ أن تفعل الخير خير لك" ١٢٥

"لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك.." ١٢٨

"أُحِلُّ عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبداً" ١٢٨

"عطس رجلان عند النبى ﷺ فشَمَّت أحدَهما و لم يشمت الآخر" ١٣٠

"والذى نفس محمد بيده إنه لفتح" ١٣١، ٢٠٧

"إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنما هى مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟" ١٣٢، ١٩١، ٢٢٥

"هل تحسون فيها من جدعاء؟" ١٣٣

"أرأيتم لو وضعها فى حرام، أكان عليه وزر؟" ١٣٤

"أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ ... فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم" ١٣٥

"هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: فما لونها ... وهذا عسى أن يكون نزعه عرق" ١٣٦، ١٣٧، ١٦١

أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ .. فإن له ما قدّم ومال وارثه ما أخّر" ١٣٧، ١٣٨

"أتحبه لأمك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلنى الله فداك. أفتحبه لابنتك... اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه وحصِّن فرجه" ١٣٩

"دفنتِ ثلاثة؟ قالت: نعم. قال: لقد احتظرت بحظار من النار" ١٤٢

"ما من مسلم يصيبه أذى من مرض مما سواه إلا حَطَّ الله عنه سيئاته" ١٤٣

"مالك يا أم السائب تزفزفين؟" ١٤٥

"أوجدتم يا معشر الأنصار..." ١٤٦

"من يمنعك منى؟" ١٤٧

"مَنْ ربُّ هذا الجمل؟ ... أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة.." ١٤٧، ٢٣٩
"فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟" ١٤٨، ٢٤٤
"فمَنْ يعدل إذا لم يعدل رسول الله؟" ١٤٨
"وأنت يا رسول الله!" ١٤٩
"أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر؟" ١٥٠
"إن من البيان لسحرا" ١٥٦، ١٦٩
"قال رجل للنبى ﷺ : أوصنى. قال : لا تغضب. فردد مراراً : قال : لا تغضب. ١٦١
"ما بقى منها؟ قالت ما بقى منها إلا كتفها قال: بقيت كلها غير كتفها" ١٦٢
"إنى لأرجو أن تموت جميعا. أو ليس الرجل يموت جميعا يا رسول الله؟" ١٦٤
"إنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين، ونفهت له النفس ..." ٢٤٦
"لو كان على أمك دين، أكنت قاضيه عنها؟ قال: نعم. قال: فدين الله أحق" ١٦٥
"ما من أمتى أحد إلا أعرفه يوم القيامة" ١٦٦، ١٧٠
"تجوزوا عنه..." ١٦٨
ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلا جيء به يوم القيامة وبكنزه.."
"الخيل معقود بنواصيها الخير..." ١٧١، ٢١٦
"... ما أهجر إلا اسمك" ١٧٣
"... أعجلنا الرجل... إنما الماء من الماء" ١٧٤، ٢٤٥
"إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين" ١٧٥
"إنما هى لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن" ١٧٥
"يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى فى النار، فتندلق أقتابه..." ٢٥٣
"استحيوا من الله حق الحياء... ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الراس وما وعى..." ١٧٧
"ما تعدون الصرعة فيكم؟ ... ليس ذلك ولكن الصرعة الذى يملك ١٧٧

نفسه عند الغضب"
"له الملك، وله الحمد... لى الحمد، ولى الملك" ١٧٩
"رب سلم سلم" ١٨٢
"قم أبا تراب. قم أبا تراب" ١٨٢، ١٩٤
"صم شهر الصبر ويوما من كل شهر. قال: زدنى فإن بى قوة. قال: صم يومين. قال: زدنى" ١٨٣
"أى العمل أفضل؟" ١٨٥
"أى العمل أحب إلى الله؟" ١٨٦
"يا رسول الله: أقبّل وأنا صائم؟ قال: لا. فجاء شيخ فقال: أقبل وأنا صائم. قال: نعم" ١٨٧
"إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين فقال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله..." ١٨٩، ١٩٠
"إياكم والقسامة؟" ١٩١
"إن لى جارين، فإلى أيهما أهدى؟ قال: إلى أقربهما منك بابا" ١٩١
"فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا وما سبقكم فأتموا" ١٩٢
"اللهم فاشهد" ١٩٣
"... لو اتخذنا لك وطاءً؟ مالى وللدنيا" ١٩٣، ٢٢٨
"إن الدين النصيحة. لمن يارسول الله؟ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" ١٩٧
"أوّه. أوّه. عين الربا، عين الربا، لا تفعل" ٢٠١
"وجبت وجبت وجبت ... أنتم شهداء الله فى الأرض (ثلاث مرات)" ٢٠٢
"قال: واثنين واثنين واثنين" ٢٠٢
"على رِسْلكما: إنها صفية بنت حُيى... إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا" ٢٠٣
"ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ (ثلاث مرات)" ٢٠٣
"... فقال: فتان، فتان، فتان..." ٢٠٣

"اللهم هل بلغت؟ (ثلاث مرات)"	٢٠٥
" ... وافعل ذلك فى صلاتك كلها"	٢٠٩
" ... قال لجميع أمتى كلهم"	٢٠٩
" ... ارموا فأنا معكم كلكم"	٢٠٩
"كان النبى ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لتفهم عنه"	٢١١
"لبيك يا رسول الله وسعديك"	٢١١
"... قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك..."	٢١٢
"والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن"	٢١٤
"من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات...؟"	٢١٧
"مستريح ومستراح منه..."	٢١٨
"... قال الرسول ﷺ: مثلى ومثل هذا الأعرابى كرجل له ناقة ضلت..."	٢٣٠
"لا ينبغى للمرء أن يذل نفسه.... يتعرض من البلاء لما لا يطيق"	٢٣٦
" ما أخوف ما تخاف على؟"	٢٣٧
"فقامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة"	٢٤٠
"... فمن قال ذلك غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر"	
"وإن كان قضيباً من أراك"	٢٤٨، ٢٤٩
"لا عليكم أن تفعلوا ذاكم، فإنما هو القدر"	١٧٦
"بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها..."	٢٥٧
"كان فيمن كان قبلكم رجل يسمى الكفل وكان لا يترع عن شىء، ..."	٢٦٠
"اشترى رجل من رجل عقاراً له، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب..."	٢٦١

فهرس الموضوعات

استهلال ٥
الاهداء ٦
المقدمة ٧
تمهيد ١٣

الفصل الأول ٢١
الحوار
- تحقيق مصطلح الحوار ٢٣
- طبيعة الحوار وخصائصه ٢٩
- أهداف الحوار النبوى ٣٦
- صلة البلاغة بالحوار ٤١

الفصل الثانى ٦٣
طرق الحوار ووسائل التشويق

الفصل الثالث ٩١
التراكيب فى الحوار النبوى
- التعريف والتنكير ٩٣
- التقديم والتأخير ١٠٣
- الفصل والوصل ١١١
- من صور خروج الكلام على مقتضى الظاهر ١١٧
- الاستفهام فى الحوار النبوى ١٣٣
- الإيجاز فى الحوار النبوى ١٥٤
- الاطناب فى الحوار النبوى ١٩٦

الفصل الرابع ٢٢١
الصورة فى الحوار النبوى
- المجاز ٢٢٣
أولاً: التشبيه ٢٢٤
ثانياً: المجاز المرسل ٢٣٤

ثالثاً: المجاز العقلى ٢٣٧
رابعاً: الاستعارة ٢٣٩
خامساً: الكناية ٢٤٥
□ الاسلوب التصويرى فى الحديث ٢٥١
أولاً: التصوير بالوصف ٢٥٢
□ التصوير بالقص ٢٦٠
الخاتمة ٢٦٧
نتائج البحث ٢٦٩
المصادر والمراجع ٢٧١
الفهارس ٢٧٩
(١) فهرس آيات القرآن العظيم ٢٨١
(٢) فهرس الأحاديث النبوية ٢٨٥
(٣) فهرس الموضوعات ٢٩٣

رقم الإيداع: ١٩٩٤/٩٧٤٢
الترقيم الدولى: ٧ - ٤ - ٠٠٤ - ٢٤٧ - ٩٧٧ L.S.B.N